وراء ستار الخوف

اسم الكتاب	وراء ستار الخوف
اسم الكاتب	د. فاتن عبد الحميد
تصميم الغلاف	عبدالله عباس
تدقيق لغوي	أ.محمود عبد الرحمن
رقم إيداع	2022- 26895
ترقيم دولي	978- 977- 86442- 7- 2

The Writer Operation

شارك سطورك مع العالم

وراء ستار الخوف

تأليف

د. فاتن عبد الحميد

الفصل الأول

انتصف الليل، وسكون الليل يوقظ الأشواق ويسافر بالعشاق إلى عالم خاص بين الأحلام والآمال والحقيقة والخيال، وهو في غرفته في إضاءة خافتة يتقلب في فراشه، يحاول أن يظفر بنوم هادئ ولكن أفكاره اليائسة تطارده، تلعن نومه وتطرده، وتسخر من تردده، ثم هب فجأة منتفضًا مسرعًا كأنه نسي أمرًا خطيرًا، فتح درج مكتبه، وجلس على مقعده مبتهجًا منتصب القامة، وأخرج أوراقه وقلمه وكتب:

- أنا أنتِ، لا أدري منذ متى أحببتكِ، ربما قبل أن أولد التقت روحانا لنصبح روحًا واحدة. يكفيني أنكِ سر حياتي ومعناها.

دوَّن كلماته عنها كما اعتاد أن يفعل ذلك كل ليلة. ثم قرأ ما كتب وابتسم وخفق قلبه وكأنها تقرأ معه كلماته وترى ابتسامته وتسمع نبض قلبه وهو ينبض باسمها ويقسم بحبها، وسرح دقائق يفكر فيها، ثم أغلق أوراقه وخبأها في درجِ مكتبه وأغلقه بالمفتاح وكأنه يخفي جوهرة ثمينة عن كل العيون، وعاد إلى فراشه ولكن ما زال النوم يفر من عينيه، فقام من فراشه ووقف في الشرفة وعلق بصره على السماء بكل صفائها ونجومها وقمرها، والهواء المنعش يملأ صدره ويطمئن روحه المتعبة في المعافرة مع الأيام. وقف هائمًا مع القمر ونجومه المتلألئة بعض

الوقت، ومضت دقائق قصيرة وهو سارحِ في هذا السكون اللطيف ثم عاد إلى فراشه.

وقبل أن يغرق في أحلامه وعيونها بين جفنيه، سمع طرقات على باب غرفته، فأسرع إلى الباب، وفتح باب غرفته وقال في احترام بالغ:

- عمي! خير؟ تفضل حضرتك.

كان العم عبد العزيز رشدي رجلًا تخطى الستين من عمره، ملامحه السمراء تنم عن شخصية حازمة، ولكن في عينيه حنانًا فائضًا، يبدو قوي البنية، مهتمًا بصحته ولياقته، لا تكسو ملامحه إلا تجاعيد قليلة لا تعبر عن عمره الحقيقي.

ربت العم على كتف ابن أخيه، وطلب منه بصوت عطوف ونظرة حانية أن يجلسا سويًا يتحدثان حديثًا قصيرًا في أمر مهم، فأشار له سليم بالدخول وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة وفي عينيه نظرات مليئة بالاحترام والتقدير، لا تخفي شغفه البالغ في معرفة ذاك الحديث المهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

دخل الرجل الغرفة وجلس على أقرب مقعد وأشار إلى ابن أخيه أن يجلس إلى جواره ونظر له في صمت كأنه يرتب أفكاره وينمق كلماته قبل أن يقول أي شيء، بينما الشاب ينتظر كلمات عمه في ترقب واهتمام، وفي عقله أسئلة كثيرة تتسابق وإجابات تتنافس أي منها السبب في هذه الجلسة، وربما في نفسه أمل أن يزف إليه خبرًا طال انتظاره، فقال له العم في حنان:

- أنا ليَّا عندك طلب يا سليم.
- تحت أمرك يا عمي.
- تصالح أختك زينة.

تغيرت ملامح سليم الهادئة وغابت ابتسامته الصافية، وقبض سليم جبينه وقال بانفعال:

- أرجوك يا عمي، بلاش نتكلم في الموضوع ده.
- لا يا سليم، مهما حصل ماينفعش تقاطع أختك الوحيدة، في الآخر هي ماعملتش حاجة غلط.
- تتجوز واحد أكبر منها بعشرين سنة وأكتر وتبقى ماعملتش حاجة غلط، دمرت حياتها بجواز غير متكافئ ومحكوم عليه بالفشل.
- اللي حصل يا سليم حصل، ومابقاش ينفع الكلام، إنت خاصمتها سنتين كفاية كده.
- مش قادر يا عمي، وبعدين هي استغنت بكمال عن الدنيا كلها، هي مش مضّايقة ولا فارق معاها أخاصمها ولا أكلمها.
- بالعكس يا ابني، كتير طلبت مني أكلمك وأحاول أدخل بينكم، زينة مالهاش غيرك.

ثم نظر العم إلى سليم بتمعن، وكأنه يقرأ من ملامحه ما يدور في عقله، وهل ألانت كلماته قلب الشاب العنيد؟

إن عبد العزيز يعرف ابن أخيه حق المعرفة، قلبه عنيد حقًا ولكن ليس قاسيًا أبدًا، تأمل العم ملامح سليم، وجهه الوسيم وعيونه السوداء الواسعة وأنفه المستقيم وشعره حالك السواد، تأمله في صمت وتدبر ورأى مسحة الحزن التي لا تفارق عيني سليم مهما ابتسم، كأنها ولدت معه، ثم قال:

- عايزك تفكر في كلامي وأنا عارف إنك هتسامح، طول عمرك حنين وطيب يا سليم، تصبح على خير.

خرج العم وأغلق باب الغرفة ولكنه فتح باب الأوجاع النائمة في قلب الشاب الوسيم. كثيرة هي الآلام وكثيرة الذكريات، كثيرة هي الأحزان التي استيقظت الآن وتطوف حوله كأنها أشباح تعيد عليه كل عذابات السنين، وكم هي كثيرة سنوات عذابه، آخرها هو يوم زواج أخته الوحيدة زينة، شقيقته الغالية وقطعة من قلبه تسير على قدمين، كم كان ينتظر هذا اليوم؟ كم اشتاق لرؤيتها في ثوب العرس، ملكة على كل جميلات الدنيا إلى جوار زوج يليق بها، ولكنها اختارت رجلًا أكبر منها بأكثر من عشرين عامًا، أرمل ولديه ابن أكبر منها بعام يعيش في أوروبا حيث عمله وحياته. لا يدري كيف أقبلت على هذا الانتحار دون أن ترحم شبابها وترحم قلبه الذي يخاف عليها من زواج محكوم عليه بالفشل. حاول كثيرًا أن يقنعها أن كمال عبد الراضي لن يسعدها، ولكن انبهارها بأستاذها في الجامعة أعماها عن الحقيقة، أنساها كل شيء حتى أخيها الوحيد، وتزوجت ولم تعبأ بغضبه ولم يهمها حزنه ولم يقهرها ألا يحضر حفل زفافها، تمسكت بهذا

العجوز وتركت كل شيء خلفها. ما كان يريد لها أن تشقى، فقد كانت حياتهما رحلة شقاء وحرمان، ولكن ما الفائدة؟

هو ليس حزينًا ولا غاضبًا منها بل هو حزين لأجلها ومشفق عليها مما ينتظرها مع زوج في الخريف يريد أن يسرق ربيعها، ومتى الربيع والخريف يلتقيان في آن واحد؟

أرهقه التفكير الطويل إلى أن مل أفكاره وأحزانه وصراخ مشاعره المنقسمة بين إلحاح قلبه أن يصفح، وإنكار عقله لهذا الحنين والإلحاح. أرهقه صراع الأفكار في رأسه وتنافر المشاعر في قلبه، وكل هذا الطنين في أذنيه، فقرر سليم أن يغلق كل هذه المناقشات مع نفسه، أطفأ الأنوار ودس رأسه بكل أفكاره المرهقة بين وسادتين سعيًا إلى النوم إلى أن بلغ مبتغاه ونام.

*****

أشرقت شمس يوم جديد، استيقظ سليم على أشعة الشمس تملأ كل أركان غرفته، تطارد أشباح أحزانه وتعلن بدء يوم جديد، لعله يأتي بجديد، فأمسك هاتفه بقلق، وما إن رأى الساعة الحادية عشرة حتى زم على شفتيه وخبط بكفه على جبينه غاضبًا، وقال بضيق:

- يا خبر، سلمى.

ثم اتصل بها هاتفيًا، واعتذر لها على أنه لم يستيقظ مبكرًا ليوصلها إلى عملها، وطلب منها أن تخبره بموعد عودتها لعله يستطيع أن يأتي إليها، فأخبرته أنها ستتأخر قليلًا لارتباطها بموعد مهم مع صديقتها نجلاء لشراء بعض الأغراض، فطلب منها طلبه المعتاد الذي تحفظه جيدًا ألا تتأخر وأن تطمئنه عليها فور عودتها.

أنهى المكالمة وهو لا يزال غاضبًا من نفسه، لقد اعتاد أن يوصلها صباحًا حيثما تريد، سابقًا كان يوصلها إلى الجامعة يوميًا، وحتى بعد التخرج من كلية طب الأسنان واستلامها العمل في المستشفى منذ شهرين وهو ما زال يقوم بالمهمة، ما اعتاد أن يتأخر عنها في أي شيء، هي الغالية المدللة من الجميع ومنه بشكل خاص، إنها الجميلة التي نشأت أمام عينيه وكبرت بين يديه، فما عادت ابنة العم فقط بل أكثر من ذلك بكثير.

إنه يتذكر أول يوم له هنا في بيت عمه رغم أن عمره حينها كان سبعة أعوام، يوم مهم وقاسٍ في حياته لن ينساه مهما مرت الأيام والأعوام، يوم عاصف كإعصار يقتلع كل شيء من جذوره، ولقد اقتلعه هو وأخته من بيتهما ومن جذورها إلى بيت غير البيت وأرض غير الأرض، يوم أن ألقته أمه هو وأخته التي تصغره بعامين على باب شقة عمهما وتركتهما لتتزوج، ملت الأرملة وحدتها سريعًا جدًا ونسيت أمومتها وربما خلقها الله دون مشاعر الأمومة في ظاهرة نادرة الحدوث، ولكن هذا كان قدرهما، فأصبح هو وأخته يتيمي الأب والأم.

إنه يومٌ ترك جرحًا غائرًا في قلبه وروحه يأبى أن يلتئم مهما مرت السنوات. يوم ذُبح فيه على يد امرأة تدعي أمه. ورغم أن زوجة عمه كانت تحيطه هو وأخته بحب كبير وحنان نادر ورعاية بالغة إلا أنه لم ينسَ أبدًا أن له أمًا تحيا هانئة هادئة بين أحضان زوجها بعد أن دفنت أمومتها إن كانت أمًا، فهو مصمم أنها تختلف في تكوينها عن أي امرأة في الدنيا، أي امرأة تضحي بكل شيء من أجل أمومتها، ولكن هي خلقت هكذا، بقلب من حجر لا يلين، إنها ليست أمًا أبدًا.

وهل هناك أمٌ فعلت فعلتها؟ لا يظن أن لها مثيلًا في كل هذا العالم المتسع، في كل هذه الأرض المترامية الأطراف، إنها لم تسأل عنهما طوال كل هذه السنوات، لا يعلم عنها شيئًا وهي كذلك لا تعلم عنهما شيئا، انقطعت كل صلة لهما بها منذ ذاك اليوم البعيد، أحيانًا يسأل نفسه ربما تكون ماتت بعد زواجها بقليل لهذا لم تسأل عنهما، ولكن بداخله صوت يرفض أن يكون لها مبرر للغياب حتى ولو كان الموت، بل إنه على يقين أنها حية مثل ملايين البشر، لكن هي ليست مثل أيٍ من هؤلاء الأحياء، هي مجرد جسد يأكل ويشرب ويكبر ويترهل، لكن بلا قلب بلا روحِ بلا شعور. ربما تعمل، ربما تنتج، ربما تنجب، لكن هي آلة أقرب إلى الإنسان الصناعي الذي يجتهد البشر في تطويره، ربما تكون اجتهدت وأنجبت بشرًا آليين مثلها، ربما، من يدري؟

*****

انتبهت سلمى إلى أن الساعة تخطت التاسعة مساءً وما زالت مع صديقتها تتجول بين المحال التجارية وتتبضع المشتريات، اندهشت أن الوقت مضى بهذه السرعة دون أن تشعر، فهمست لنجلاء بما دار في عقلها وأنها تأخرت كثيرًا ووجب عليها العودة سريعًا قبل أن يلحظ سليم تأخرها، فضحكت صديقتها ساخرة وقالت:

- وبعدين في حضرة الناظر بتاعك ده، إنتي مابتخافيش من باباكي ولا أخوكي زي ما بتخافي منه.

فردت سلمى في جدية تامة كأنها لا تقبل أبدًا أن تسخر صديقتها من سليم أو منها، فما بينهما لا يقبل أبدًا السخرية والاستهزاء، قالت وهي واقفة تنظر لنجلاء نظرة جادة:

– أنا مش خايفة منه بس أنا مابحبش يزعل مني، هو بيخاف عليًا وعايز مصلحتي.

فردت عليها نجلاء بنفس اللهجة المستهزئة وعلى شفتيها ذات الابتسامة الساخرة:

- أيوة بس "خنيق أوي"

فقالت سلمى بنفس الجدية والثبات:

- لا والله، دا عشان إنتي ماتعرفهوش، إنما مفيش حد في طيبة سليم.

فقلبت نجلاء شفتيها وهزت رأسها في ملل قائلة:

- آه. طيب اتفضلي أوصَّلك.

وبينما هما يتحركان نحو السيارة، علا صوت هاتف سلمى، ارتبكت وبدا على وجهها الأبيض الجميل ظلال القلق، وردت في ارتباك:

- أيوه يا سليم، أنا مع نجلاء وهنروح حالًا.

فرد بانفعال بالغ:

- أنا قولت ماتتأخريش.
- الساعة لسه ماجتش ١٠، نصف ساعة بالكتير أكون في البيت.
- مفيش خروج تاني يا سلمى. ثم أنهى المكالمة.

جلست سلمى إلى جوار نجلاء في السيارة، بينما صديقتها السمراء الجميلة تقود السيارة وتنصحها بألا تسمح بأن يتحكم سليم في حياتها بهذه الطريقة السخيفة، ويكفي موافقة والدها أو أخيها، لأنها لم تعد طفلة ولا مراهقة. أكثرت نجلاء من الحديث والوصايا بينما سلمى تائهة بين أفكارها شاردة تفكر في سليم، لا تستمع إلى نصائح صديقتها، ربما تشعر أن حديثها كله ثرثرة فارغة تزيد توترها واختناقها. إن نجلاء لن تفهم أبدًا ما بينها وبين سليم.

سرحت سلمى في علاقتها بسليم، إنها لا تخاف غضبه ولكن لا تقبل أن تغضبه، ما يضايقه يضايقها حتى ولو كانت غير مقتنعة بأسبابه وأفكاره، إنها بلا عقل

أمامه، تفكر بعقله المتزن وترى بعينه العميقة وتشعر بقلبه الحاني الرقيق. إنها تقبل كل تدخلاته وأوامره دون أن تشعر أنه يقيدها ويقلص حريتها لأنها تفهم وتشعر ما خلف كل هذه التصرفات، إنه يخاف عليها ويريد أن يحميها. لقد كبرت على هذا الاهتمام الزائد وهذا الحنان الفائض، ولا تجد في أيامها يومًا بدون سليم، هو يكبرها بأربعة أعوام تقريبًا، وكلما كبرت كبر اهتمامه بها إلى أن أصبحت تشعر أنها مسئولة منه وحده فقط.

ملت نجلاء النصائح وكفت عن الحديث وساد الصمت إلى أن انتهى الطريق ووصلت سلمى إلى البيت.

استقبلتها والدتها لائمة برفق، فاعتذرت سلمى لها بينما تقبل والدها الاعتذار في صمت كما اعتاد، فهو يدللها كثيرًا ويثق بها كثيرًا ولا يقيم الدنيا ويقعدها إن تأخرت قليلًا، ثم دخلت إلى غرفتها وقبل أن تبدل ثيابها، اتصلت بسليم فلم يرد، فكررت الاتصال مرات ولكنه لم يرد فكتبت له رسالة تبلغه فيها أنها وصلت البيت.

لم يرد عليها وأدركت أنه غاضب ولن يمر الأمر بهدوء رغم أنه بسيط جدًا، لقد أنهت دراستها ولم تعد طفلة صغيرة كي يخاف عليها بهذا الشكل، ورغم ذلك ليس لديها مانع أن تعتذر لأنها تتفهم خوفه عليها، وتدرك معناه ومبتغاه. فلماذا لا يقبل اعتذارها بسهولة ويسر؟

انتصف الليل ونام والدها ووالدتها وما زال سليم بالخارج. وهي في غرفتها تنتظر عودته لتحدثه وتشرح له ما حدث، إلى أن سمعت صوت باب الشقة يفتح. فهرولت إليه ولامته كثيرًا أنه لا يرد عليها، لامته في عصبية وكلمات سريعة غير مترابطة لا تخفي ضيقها وعدم اقتناعها بأنها أخطأت.

فنظر إليها بطرف عينه ولم يتكلم، وسار بخطوات متباطئة نحو غرفته وتمنى لها نومًا هادئًا بصوت منخفض، وعينيه على باب غرفته دون أن يلتفت إليها إطلاقا.

دخل غرفته مسرعًا، وأغلق الباب، واضطرت سلمى أن تدخل غرفتها مرة أخرى دون أن تنتزع منه كلمة تنتظرها (أنه ليس غاضبًا منها) جلست في فراشها وقالت لنفسها (خلاص، أنا عملت اللي عليَّا، براحته)

ثم وقفت أمام مرآتها تمشط شعرها الذهبي الطويل في خمول وبفكر شارد مشتت، ثم نظرت إلى وجهها في المرآة تتأمله، وتسأل نفسها هل حقًا فعلت ما عليها ولا يعنيها إن كان غاضبًا منها أم لا؟ هل حقًا لا يعنيها إن كان قَبَلَ اعتذارها أم لا؟

تأملت تقاسيم وجهها وشعرت أن عيونها الخضراء الواسعة تكذبها وابتسامة شفتيها الباهتة تكذبها، حتى ورد خديها كأنه ذبل منذ أن غضب منها، كأن جمالها انتقص الآن وابتسامتها صغرت وبريق عينيها انطفأ، إنها ليست هي، هي أجمل من ذلك بكثير ولكنها لا ترى نفسها في مرآتها جميلة كما اعتادت،

فتوقفت يدها عن تمشيط شعرها، وسقط المشط من يدها وعادت تتأمل وجهها الجميل، عيونها الخضراء الواسعة وأهداب عينيها الطويلة وشفتيها الممتلئتين، أنفها المستقيم وفمها الصغير، وقوامها الرشيق، إنها لا ترى نفسها مثل كل ليلة، ما هذا؟ فقالت لنفسها: العيب في المرآة.

فراحت تلمع مرآتها التي تخفي جمالها عنها، ولكن لا جديد، ما زال جمالها باهتًا منقوصًا كأنها ليست هي، فسئمت تلك المجادلة وجلست في فراشها شاردة، ملولة، الدقائق تخنقها وتزيد ضيقها كلما مرت.

حاولت أن تنام ولكنها لم تستطع النوم، فأمسكت هاتفها بانفعال وكتبت له:

- أنا عندي شغل الصبح وعايزة أنام.

فكتب لها:

- نامي.

– أنا مخنوقة مش عارفة أنام، وأنت السبب.

– أنا؟

– سليم.. أنا آسفة، تمام؟ نقفل الموضوع ده.

– اسمعي يا سلمى، نجلاء دي أنا مش مرتاح لها، لو سمحتي خلي علاقتك بيها سطحية، أرجوكي.

– ليه، إنت شوفتها معايا مرة واحدة، اتكلمت معاها ٥ دقايق، بنيت فكرتك عنها على أساس إيه؟

– إحساس.

– يعني إيه إحساس، إحنا مع بعض كل يوم في المستشفى، الحقيقة هي ذوق جدًا ومحترمة وأنا ماشوفتش منها حاجة وحشة، أبعد عنها ليه؟

– ماقولتش ابعدي، إنما خليها زمالة مش صحوبية، وبعدين إنتي تعرفيها من شهرين بس وكمان عشان ماعِدش الكلام مفيش تأخير، أنا بخاف عليكي وإنتي عارفة كده.

قرأت كلماته وهمت أن تعترض، من حقها أن تختار رفيقاتها، إنه ديكتاتور مستبد، ولكن دون أن تدري وجدت يدها تكتب له كأنها مسلوبة الإرادة:

– حاضر، والله أنا مش عارفة بسمع كلامك ليه كده زي العبيطة، مجنونة أنا ولا إيه.

– تصبحي على خير.

واستسلمت لرأي الديكتاتور المستبد وهي مبتسمة، متصالحة مع نفسها، هكذا اعتادت معه أن تعترض وتختلف وربما ترهقه بمجادلة شاقة طويلة ولكن في النهاية ما يريده هو ما يحدث، كيف يقنعها وكيف يطوعها بكل أفكارها المتمردة إلى

ما يقتنع به بسلاسة. إنه ساحر يسحرها بابتسامته، وقائد يكسر ثورتها بهدوئه، وحكيم يعدل أفكارها بحكمته. هو، ومن يكون هو إلا أغلى من في حياتها.

*****

كانت حياة زينة هادئة سعيدة، سعادة حقيقية ربما لم تعشها من قبل، كان كمال يغمرها بحنان وعطف بالغ، ما ندمت لحظة على زواجها من رجل أكبر منها، منذ أن تزوجته وهي تجد فيه كل ما تتمنى وكل ما افتقدت، وجدت فيه الزوج واهتمامه والأب وحنانه والحبيب بمشاعر فياضة كأنه شاب في العشرين من عمره، منذ زواجهما كل يوم يصطحبها في سهرة جميلة في مكان جميل، أو يقضي معها ليلة رومانسية في عشهما الهادئ، كلمات حبه نهر متجدد لا ينفد أبدًا، إنه أستاذ في الحب امتلك مشاعرها ولم يمنحها فرصة تفكر في أي شكليات أو فروق، لم ترَ تجاعيد وجهه ولا شعره الأبيض ولا نظارة القراءة ولا وزنه الزائد، ولا سنوات كثيرة تفصل بينها وبينه، منذ أول مرة رأته في المحاضرة وهي تشعر بانجذاب رهيب نحوه ولا تدري كيف انجذب هو أيضًا لها وأصبح يتعمد أن يسألها ويناقشها ورغم أنها مناقشات في العلم لا تتعدى دقائق ولكن صوته كان يتردد في أذنيها ساعات ونظرة عينيه تظل تطوف حولها وتحاصرها بين سطور كتابها وتعانق ليل أفكارها، رأت قلبه الذي يحيطها بكل المشاعر الصادقة، رأت فقط حبه وهذا كل ما تحتاجه.

الجميع حذرها من فارق السن وكأن زواجها من شاب في نفس عمرها ضمان أكيد لنجاح الزواج، رغم أن من يتعمق في مراقبة حالات الطلاق سيجدها بين أزواج وزوجات في أعمار متقاربة وربما شكليًا زواجهم متكافئ، ولكن الزواج كي ينجح لا يحتاج فقط إلى أعمار متقاربة وشهادات علمية متقاربة بل يحتاج إلى تفاهم وتجانس في الأفكار، يحتاج إلى قلوب تعرف كيف تحب وكيف تهتم بالطرف الآخر، الجميع يراها تسرعت في القرار ولا يعلمون أن علاقتها بكمال استمرت آخر عامين من أعوام دراستها الجامعية، قرارها هو قرار متأنٍ، وليت كل فتاة تبحث عن زوج يحبها ويفهمها مهما كان عمره، العمر مجرد رقم، كم من شاب بقلب عجوز، شاخت مشاعره وتبلدت عواطفه وماتت أحاسيسه فأصبح عمر قلبه الحقيقي يتجاوز السبعين.

بينما كمال تجاوز الخمسين لكنه بقلب شاب، عنفوان مشاعره يبهرها ويأخدها إليه بقوة، فأصبح يسكن قلبها وروحها ويملئ أيامها بحبه الذي لا يوصف ولا ينكر، كل شيء جميل منذ زواجها ولا يؤرقها إلا سليم وعناده، هذا هو ما ينتقص سعادتها وينغص عليها أيامها، مضى عامان على خصام سليم لها، خصام قاسٍ وما اعتادت منه القسوة، إنه الأخ الحنون الطيب، الذي يخاف عليها أكثر من نفسه لدرجة أنها كانت تشعر أنه والدها، ورغم كل هذا الحنان رفض زواجها من كمال بقسوة ورفض أن يحضر حفل زفافها، وجدت شخصًا آخر غير الذي تعرفه حينما أصرت على الزواج من كمال، على قدر حنانه كانت قسوته

وعناده، حاولت كثيرا أن تطيع أوامره وأن تخضع لقراره ولكن حبها لكمال كان تملك كيانها وسيطر على عقلها ولم يعد بيدها القرار، كيف تتخلى عن حب عمرها لمجرد أنه سبقها إلى العالم بأعوام، هذا ليس ذنبها ولا ذنبه، هل لنا اختيار في موعد مجيئنا هذا العالم أو رحيلنا؟ هل لنا سلطان على قلوبنا إن أحبت؟

كان سليم يريد أن يبعدها عن حبها وهو لا يدرك أن بعدها عن كمال قرار انتحاري ليست بعده حياة.

حققت ما أرادت ولكن ينقصها قطعة من قلبها وروحها، ينقصها سليم، فأمسكت هاتفها وطلبت سلمى، بدأت المكالمة بالسؤال عن أحوالها وأحوال الجميع ثم سألتها عن سليم وطلبت منها أن تساعدها في أن يسامحها، وعدتها سلمى أن تحاول إقناع سليم بالعفو والمصالحة، وأخبرتها أنهم جميعًا يضغطون عليه في اتجاه المصالحة وأنه بدأ فعلًا يضعف أمام هذا الضغط ولكن ما زال عناده يقاوم ولكن قريبًا جدًا سيستسلم وسيصفح.

ليست هذه أول مكالمة من زينة لسلمى في هذا الموضوع ولن تكون الأخيرة، ستظل تسعى دومًا لاستعادة هذا الجزء المنقوص من روحها وحياتها إلى أن تسترده لتتذوق السعادة الكاملة.

أنهت زينة حديثها مع ابنة عمها بعد أن أخذت منها قسمًا غليظًا ألا تكف عن الإلحاح على سليم، وأن تبلغه أنها تحتاج وجوده في حياتها حتى تستشعر الاستقرار والسعادة.

ثم جلست سارحة تفكر في الماضي، وعادت بالذاكرة إلى يوم لا يغيب عن مخيلتها مهما مرت الأيام، تذكرت يوم أن تركتها والدتها مع أخيها على باب شقة عمها لتتزوج، لم ترها منذ ذاك اليوم، دفنت أمها أمومتها ونسيت طفليها، أخرجتهما من حياتها وكذلك هما ما عادا يعترفان بها أمًا، صارت زوجة عمهما هي أمهما التي احتضنتهما كأنهما طفلاها.

وبدأت حياتهما في بيت العم وزوجته ومحمود الذي يكبر سليم، وسلمى أصغر من في البيت ومدللة الأسرة، مرت الأعوام تهرول بالعمر سريعًا هادئة ومستقرة، أحيطت هي وأخيها بعناية بالغة وحب واهتمام ولكن كل هذا لم يمحُ من ذاكرتها ولا ذاكرة أخيها بشاعة أمٍ بلا قلب.

ومر في خيالها سؤال: ترى هل ما زالت أمها حية؟ وترى كيف صار شكلها وكيف بدلت الأيام ملامحها؟ هل عادت إلى مصر أم ما زالت في الخليج مع زوجها كما سمعت من عمها منذ سنوات؟

وسألت نفسها سؤالًا غريبًا لم تسأله سابقًا: هل تحبين رؤيتها؟ فقفزت من مقعدها وردت: لا لا لا، أكرهها.

ثم انتبهت أن حوارها مع نفسها احتد واحتدم لدرجة أنها تكلم نفسها بصوت مسموع، فنبهت نفسها أن يجب عليها أن تتوقف عن هذه الأفكار تمامًا، لن تجني منها إلا الألم.

نظرت في الساعة وانتبهت إلى أن موعد عودة زوجها اقترب، فدخلت إلى غرفة نومها وبدأت تتزين وتثقل مكياجها وتتأمل في جمال عيونها السوداء وشعرها الأسود القصير وقوامها الرشيق ولون بشرتها الخمري الجميل، وقفت تتغزل في جمالها وتتباهى به دقائق ثم تطيبت بعطرها، وجلست في فراشها في انتظار كمال.

وجاء كمال في الرابعة عصرًا، رجل متوسط القامة ممتلئ الجسم، أسمر البشرة، تتهدل جفونه ولا تخفي حنان عينيه، وشعره الأبيض الخفيف مبعثر فوق رأسه كأنه سنوات عمره المبعثرة بلا هدف ولا إحساس قبل أن يقابلها. بمجرد أن فتح باب المنزل وهو ينادي عليها بلهفة كأنها غابت عنه شهورًا، ثم توجه فورًا إلى غرفة النوم حيث كانت تجلس سارحة في فراشها، فقبَّلها بحنان وأمسك يدها يدعوها للخروج معه إلى غرفة استقبال الضيوف، حيث هناك مفاجأة كبرى، نهضت معه وهي تضحك وتستفسر عن المفاجأة وتكرر الاستفسار إلى أن خرجا سويًا حيث المفاجأة، وتعلقت عيونها وابتساماتها ودموعها في لحظة واحدة بهذا الشاب الذي ينتظرها، وعيونها تحضن عيونه السوداء وابتسامته الحانية في دهشة، ولم تطل دهشتها أكثر من ثوانٍ حيث هرولت إليه وتعلقت بذراعيها في عنقه وهي ترفع قدميها عن الأرض لتتغلب على قصر قامتها بالنسبة إليه، احتضنته بقوة وهي تبكي بشدة، وهو يضمها إليه في حنان ويقول بصوت خافت: وحشتيني.

فقالت بصوت متقطع وعيونها تطوف بوجه الذي اغتربت عنه سنوات وتاهت طويلًا واليوم رؤيته تعيدها إلى كل ما تاهت عنه في غربتها.

- أخيرًا يا سليم.

، أنا مش قادرة أصدق إنك سامحتني.

فنظر إلى زوجها وقال:

- الحقيقة أستاذ كمال هو السبب، ربنا يسعدكم يا زينة، في النهاية سعادتك هي أهم حاجة بالنسبالي.

جلسا سويًا وحكى لها سليم كيف أن زوجها جاء إليه خصيصًا في المطعم الذي يمتلكه. وتحمل انفعاله وغضبه ووعده بأن زينة لن تندم يومًا على هذا الزواج، تحدث إليه بلباقة وكياسة وهدوء امتص كل غضبه وأجبره على تقبل الوضع الراهن.

تناول سليم مع أخته وزوجها الغداء ثم انصرف وقلبه مرتاح، لقد كان الخصام مجهدًا ومرهقًا له أكثر بكثير مما يتخيل أي أحد، مهما أنكر ومهما لبس ثوب التناسي أو ادَّعى النسيان لكنه أبدًا لا ينسى أنه يقاطع زينة وهي له كل أهله. ارتاح قلبه لهذا الصلح، فهو سندها ولابد أن يظل كذلك، وإن كان ما زال يثق أن زواجها خطيئة ولكن لم يعد هناك مفر من قبول هذا القرار والأيام هي من تجيب إن كان قرار زواجها من كمال صائبًا أم خاطئًا؟

عاد إلى مكتبه في المطعم الكبير الذي يملكه مناصفة مع صديقه زياد، إنه صديقه طوال رحلة الدراسة إلى أن تفرقت بهما سبل العلم في الجامعة، حيث التحق سليم بكلية الصيدلة، أما زياد التحق بكلية التجارة، ولكن صداقتهما لم تنقطع أبدًا واتفقا على هذا المشروع وكبر على أيديهما وأصبحا يجنيان منه أرباحًا جيدة بل شرعا في إنشاء فرع جديد.

وصل سليم إلى مكتبه، حيث كان ينتظره زياد، شاب أسمر البشرة قصير القامة معتدل القوام، ذو شعر أسود كثيف وشارب كثيف أيضًا، ولحية خفيفة، ألقى عليه سليم التحية وقال:

- إزيك يا زياد؟
- فينك؟
- كنت عند زينة.

صمت زياد قليلًا وبدا عليه الارتباك، ثم قال:

- كويس أوي إنك صالحت أختك، عين العقل يا سليم، إزيها؟
- الحمد لله، ربنا يسعدها.
- طيب أنا عندي مشوار كدة كويس إنك جيت، سلام.

خرج زياد وهو شارد، وتذكرها، كم هي جميلة، كم هي ملهمة كأنها ملكة الجمال التي يحكون عنها في الأساطير القديمة وهربت من أساطير الماضي لتصبح أسطورة

أيامه، عيونها السوداء امتلكت قلبه دون أن تمنحه فرصة التفكير في مشاعرها نحوه، إنها فاتنة امتلكت قلبه وعقله بجمالها وروحها. لكن هي للأسف لم تره ولم تمنحه أي فرصة كي يقترب، كثيرًا ما كان يسأل نفسه ماذا أحبت في كمال هذا؟ شعره الأبيض أم تجاعيد وجهه أم صوته الأجش المزعج، كلما تذكره يحزن، هذا العجوز امتلك قلب الإنسانة الوحيدة التي أحبها، دائمًا يحقد عليه ويراه سارقًا، سرق شبابها وشبابه، أحيانًا يغضب منها وأحيانًا يحزن عليها، هي حتى الآن لا تدرك ما أقدمت عليه، يومًا ما ستعلم ولكن بعد فوات الأوان.

الفصل الثاني

اجتمعت أسرة عبد العزيز على مائدة الغداء، جلس عبد العزيز على رأس المائدة وإلى جواره على اليمين زوجته بثينة ثم إلى جوار الأم بثينة ابنتها سلمى، بينما سليم يجلس إلى جوار عمه على اليسار، الجميع منهمكون في الطعام وإن كان سليم يختلس النظر بين الحين والآخر إلى سلمى التي تجلس أمامه، الصمت سائد إلى أن قطعته الأم قائلة:

- لازم تتصل بمحمود يا عبد العزيز وتعقله، كل يوم والتاني يزعَّل مراته، داليا المرة دي راسها وألف سيف تتطلق، مش عارفة الولد دا طالع لمين.

فنظر عبد العزيز إلى سليم وقال له:

– إيه رأيك يا سليم، ما تكلمه إنت، إنتم شباب زي بعض، وأنا تعبت من الكلام معاه.

– حضرتك عارف يا عمي إن محمود مش بيقبل مني نصيحة، ابعدني أنا عن الموضوع ده.

فقال الأب في أسى:

– طب وبعدين هنسيب المشكلة كده، داليا بنت أصول وابني ممكن يخسرها.

فقالت سلمى وهي تلتهم الطعام وعلى وجهها ابتسامة باردة:

– ماحدش عايز مني أي خدمة في الموضوع ده؟

فقالت الأم:

– والله لو كلمتي مرات أخوكي وأقنعتيها تسامحه يبقى ليكي عندي هدية كبيرة.

– لا يا ماما، أنا لا أقبل الرشوة، أنا لو كلمت داليا هاقنعها تتطلق دلوقتي قبل بكرة.

فقالت الأم باستياء:

– ليه كده يا سلمى، ويهون عليكي محمود.

– يعني عشان أخويا أسقفله، البيه فاكر نفسه محمود عبد العزيز بجد، كل يوم جو جديد، جنن مراته، حتى الخلفة مصمم إنها تأجل الحمل رغم أنهم متجوزين من سنين، بصي يا ماما، محمود مالوش في الجواز والاستقرار، هو له في الحب التخاطيف.

– تخاطيف، طب بس بس، دا محمود ابني طيب وحنين بس شقي شوية، لما نشوف عريسك هيبقى إزاي؟

– والله لو زي محمود، يبقا تحيا العزوبية.

انتهى وقت الطعام ودخل الأب إلى غرفته في وقت القيلولة، بينما دخلت الأم إلى المطبخ، وجلس سليم يتابع أحد البرامج التلفزيونية بينما جلست سلمى مشغولة بهاتفها وعلى وجهها تركيز شديد، فسألها سليم عما تتابعه فأخبرته أنها تتابع صفحة فساتين وأزياء وتتخير بعضها للشراء ثم جلست إلى جواره وفي يدها الهاتف وبدأت تشاركه الرأي فيما تختار، وبدأ يناقشها فيما هو معروض يستحسن هذا ويبدي استياءه من ذاك إلى أن فوجئ برسالة لها من شخص اسمه فارس، استحوذت الرسالة على كامل تركيزه وانتباهه، فقرأ الرسالة في لحظات، وتحول وجهه فجأة إلى بركان غضب على وشك الانفجار، بينما هي تجلس إلى جواره مرتبكة منكمشة تترقب رد فعله في خوف وقلق، خوف أخرسها تمامًا، بينما هو ما زال يؤلمها بنظرات حارقة من بركان غضبه الثائر، ولكنه لم ينطق فقالت بصوت متقطع:

– دا أخو نجلاء، مش عارفة إيه اللي بيقوله ده، دا اتجنن تقريبا.

فهب إلى غرفته في صمت، وهي تخفض بصرها في ارتباك، فعادت قرأت كلمات فارس:

– أنا بصراحة ومن الآخر، معجب بيكي جدًا جدًا جدًا.

قرأت الرسالة مرة أخرى وقذفت الهاتف إلى جوارها وهي تلعن فارس بكلماتها بصوت خفيض جدًا، ثم استجمعت كل قوتها وأمسكت هاتفها وتوجهت إلى غرفة سليم وحاولت أن تكون أقوى من ثورته، فتحت باب غرفته، فوجدته جالسًا أمام مكتبه يطرق عليه بأصابعه بعصبية مفرطة، فقالت:

- إنت فهمت إيه؟ بقولك دا أخو نجلاء.
- ليه بتكلميه؟ ليه رقمه معاكي؟
- اللي حصل إن مرة تليفون نجلاء فصل شحن وكانت عايزة تكلمه ضروري، كلمته من تليفوني، وجه كام مرة المستشفى عندنا وتكرر مجيئه، إنت عارف شغل الأسنان.
- إنتي مالك بيجي ولا يروح.
- والله يا سليم عمري ما كلمته أكتر من صباح الخير، أنا ماعرفش إزاي جاتله الجرأة يكتب كلام زي ده، طب إنت عارف، الرسالة دي لو جات وأنا لوحدي كان زماني اتصلت بيه هزأته، والله يا سليم.

ما زال صامتًا وعيونه تفتش بنظرات ثاقبة في عينيها عن أسرارها وتتغلغل إلى أعماقها لتصل إلى الحقيقة وعقله في نفس اللحظة يجتهد بكل ذكائه وكل فلسفته في الأمور المعقدة كي يقيم حجتها ويحدد مدى صدقها، دقائق ثقيلة مرت عليها وعليه ساعات، وصمت يخيم على كليهما هو من أنهاه قائلًا:

- طيب اعتبريني مش موجود وسمعيني كنتي هتعملي إيه.

فطلبت فارس وعينيها في عيني سليم وفتحت صوت الهاتف لتسمعه المحادثة وأطلقت كلمات غضبها كالطلق الناري في أذني فارس، أربكته بثورتها وزلزلت كيانه، وفي أثناء الحوار سألته إن كان هناك أي كلام بينهما حتى يتجرأ لإرسال رسالة كهذه؟ فاعتذر على جرأته وتحدثه بهذه الطريقة دون أن يمهد لذلك أو أن يعلم إن كانت تتقبل منه هذه الطريقة أم لا، بينما سليم يستمع بتركيز وبدأ يبتسم، ربما أعجب بما قالته سلمى، فقد كانت حادة إلى درجة مؤلمة، صارمة إلى درجة قاطعة، قوية إلى درجة أن تصدر الهزيمة إلى الطرف الآخر من أول جملة، أحس بصدقها بكل قلبه وما كان قلبه كذوبًا قط، لقد ارتاح كثيرًا واطمأن قلبه وهدأت روحه بعدما تأكد أن فارس هذا لا يعني لها شيئًا، أنهت سلمى المكالمة ثم قالت:

- صدقتني يا سليم.

- مش تديله بلوك.

- آه صحيح.

نفذت ما طلب ثم ابتسمت وقالت:

- والله إنت عليك أفكار!

خرجت من غرفته وهي سعيدة، ولا تدري ما الذي يسعدها، هل أنها اقتصت بكلماتها من فارس؟ هل جرأتها في صد جرأة فارس التي تظنها وصلت إلى حد

الوقاحة؟ لا، ليس هذا فقط، ليست هذه أول مرة تتصدى بحزم أمام جريء وقح، ربما جمالها جلب عليها كثيرًا من المضايقات مثل هذا النوع ولكنها دائما تعرف كيف توقف كل هذا، شيء آخر يسعدها، شيء آخر أطل في عيني سليم أسعدها قدر ما أزعجها غضبه وثورته المكبوتة، إنها الغيرة، تلك الغيرة التي رأتها في عيني سليم هي التي تسعدها، هي نظرة لم ترها من قبل بهذا الوضوح وهذه الصراحة، أهي نظرة أم زلزال هز كل كيانها؟ لم تكن مجرد نظرة لقد قرأت في عينيه الكثير والكثير، إنه يغار عليها كما لم يغَر من قبل، ثم راودها سؤال سخيف أهي غيرة عليها؟ أم حرص على التقاليد والأصول؟ هل هي غيرة عاشق أم خوف ابن العم عليها أن تقع فريسة نزوة شاب؟ دخلت غرفتها وهي مستفزة من هذه الأسئلة الغريبة وفي نفس الوقت تفكر في إجابات تلك الأسئلة، إنها تريدها غيرة، أن يغار عليها فهو يحبها، نعم، إنها تريد حبه، ما عادت تلك الصغيرة التي تعتمد عليه وتكتفي باهتمامه المفرط عن كل اهتمام ولكنها صارت شابة، يشتاق شبابها إلى الحب وأيامه التي تزهر ورودها وتلون أيامها بألوان الحياة المشرقة. ولكن إن كان يحبها لماذا لم يصرح لها بحبه؟ لماذا لم يطلب الزواج منها وهو يعلم جيدًا أن عمه يحبه وبالتأكيد سيقبل؟ غريب أمره.

إنها تثق أن لها في قلبه مكانًا غير أي حد في الدنيا، لا يمكن أن يكون كل هذا الاهتمام بكل تفصيله صغرت أو كبرت في حياتها مجرد اهتمام بابنة عمه وفقط، لا يمكن أن يراها كأخته زينة، هي تثق أن لها في قلبه مكانًا خاصًا لا يشاركها

فيه أحد ولكن هو لا يبوح أبدا بإحساسه وهذا ما يؤرقها، لماذا هو عاشق صامت؟

*****

منذ أسبوعين وهي مصممة على قرارها ولن تتراجع عنه، ما بينها وبين محمود انقطع، كل أوراق الحب ذبلت بين يديه وماتت على كفيه وسقطت تحت قدميه، ذابت مشاعرها في عذابها حتى ظنت أن العذاب كتب على اسمها وحدها.

بالرغم من أنها تزوجت محمود بعد قصة حب امتدت أعوامًا منذ أيام الجامعة إلا أنها قررت أن تتخلى عن هذا الحب الكبير، أن تتخلى عن هذا الهوى الذي ذابت فيه سابقًا، ويا له من هوى.

لقد التقته في أول عام لها في الجامعة في كلية التجارة، التقت ذاك الشاب الأسمر الوسيم الأنيق، ذا القامة التي لا تصل إلى الطول الملفت للانتباه ولا تجعله كذلك من القصار، إنه بين بين في طول قامته ولون بشرته، ممشوق القوام يمشي بين الطلاب مختالًا بنفسه واثقًا في رجولته وجاذبيته، عيونه السوداء تشع ذكاءً، ونظراته ما تلاقي عين أنثى إلا وتجذبها إليه كأنها مغناطيس، ويعلق على شفتيه ابتسامة ساحرة تسكن قلب من تصوب نحوه سهام ابتسامته، وقد لفت انتباهها منذ أول نظرة، واخترقت سهام نظرته الأولى ضلوعها واستقرت بين دقات قلبها، وكانت تلك الشرارة الأولى التي بدأ بها الحريق، فاحترقت من أجله كل مشاعرها وأيامها بعد الزواج.

لقد حاولت أن تقاوم نظراته واهتمامه منذ بداية قصتهما، فكانت تشعر أنه يوزعها على جميع طالبات الجامعة، إنه كريم جدًا لا يبخل بنظراته ولا ابتسامته على أي فتاة يراها كبرت أو صغرت، كانت ملكة جمال أو ضئيلة الجمال، إنه لا يضن بابتسامة على كل أنثى وأي أنثى، لهذا قاومت، ولكنه بذكائه أدرك أنها تقاومه ويبدو أنه ما اعتاد على ذلك، فظل يلح ويحاصرها بابتساماته ونظراته واهتمامه، واختلاق المواقف لمحادثتها، إلى أن اقترب من أيامها، ولم تعد تقاوم بل صارت تبادل اهتمامه اهتماما وتساعده في اختلاق المواقف لتحادثه، ثم لم يقتصر الحديث على الجامعة بل صارت بينهما أحاديث هاتفية ولقاءات خارج أسوار الجامعة، واستمر ما بينهما يكبر في قلبيهما إلى أن اعترف كل منهما بمشاعره وجمع بينهما الحب بكل عهوده الجميلة وتوج هذا الحب بالزواج بمجرد التخرج.

ولكن بعد العام الأول من الزواج بدأ نور الحب يخفت، إلى أن ساد الظلام في كل أيامهما، ظلام الصمت القاتل، إنه يعود إلى البيت منهكًا مرهقًا، لا يقدر على الكلام، ولا الاستماع، يعود وكأنه لم يعد إليها، وهي التي تنتظر عودته لتأنس بقربه، لتنعم بحبه، لتطرب بكلمات عشقه، تنتظر حبيبًا يتغزل في جمالها، ينتبه إلى كل صغيرة وكبيرة تخصها، يثني على لون شعرها وألوان زينتها وثوبها وعطرها، تنتظر أن ترى حبه لها وإعجابه بها بعدما بالغت في اهتمامها بنفسها كي تبدو متجددة ومتألقة في عينيه، ولكن عينه دائما مغمضة عن رؤيتها، يعود

كي يرتاح من عناء يومه ويزيد عناء قلبها بإهماله لها ولمشاعرها، أصبح يجمعهما بيت واحد لكن لا يجمعهما حوار وإن تحاورا لا يتفقان، الوحدة ملأت روحها حتى وهو جالس إلى جوارها، هو دائمًا مشغول عنها، في البداية كانت تظن أنه مشغول بعمله في الشركة ولكن الحقيقة التي أدركتها بكل حواسها فيما بعد أن لديه وقت فراغ كبير يدخره لكثيرات غيرها، يخرج معهن وهي تشتاق إلى أن تخرج معه كما كانا يخرجان سويًا أيام الجامعة، ويحادثهن بكل كلمات الحب التي تشتاق إليها ولم تعد تسمعها إلا في الأغنيات، بعد عام من زواجها اكتشفت أنه يلهث خلف النساء سواء يتعرف عليهن في عمله أو من مواقع التواصل الاجتماعي، كانت تثور وتفور، أما هو يعتذر ويعدها بألف وعد أنه لن يخون، وما يلبث إلا أن يعود إلى عادات قلبه المتقلب بعد أيام قليلة، ما استطاع أن يخلص لها إلا عامًا، ما استطاع أن يسعدها إلا عامًا، ثم مات كل شيء حتى صبرها عليه وأملها فيه وأصبحت ترى نفسها تحفة جميلة صارت ملكه ويحتفظ بها في بيته، بل ربما تحفة يحافظ عليها ويعتني ويتباهى بها لكن هي لا يتباهى بها ولا يعتني بها. أفقدها الثقة فيه وفي كل جنسه وفي نفسها وفي الحب كله.

هل هناك حب في العالم أم أنه وهم يسكن الأغنيات ولا مكان له على أرض الواقع؟ لكنها كانت تحبه وكان يحبها قبل الزواج، ما بينهما كان حبًا كبيرًا ظنه الناس بلا نهاية ولكن الحقيقة أن عمر حبهما مثل عمر الزهور، على قدر ما يبهج لكنه يموت سريعًا. وسألت نفسها طويلًا من منهما يتحمل ذنب هذا

الحب الذي مات سريعًا، لا شك لديها أن زوجها هو السبب، لقد سامحت كثيرًا وأغمضت عينيها عن الكثير على أمل أن يفيق من نزواته ويعود إليها كما عرفته وكما أحبته، ولكن الآن ما عادت لديها القدرة على تحمل هذا العذاب، ولم يعد أمامها إلا طريق واحد أن تنجو بقلبها من عذابه وربما عدم وجود أطفال بينهما ساعدها على حسم أمرها، وربما الآن تحمد له إصراره على تأجيل الإنجاب، إن هذا هو الشيء الجيد الوحيد الذي قدمه لها، قدر ما أوجعها بعدم رغبته في أن تكون بينهما ثمرة لهذا الزواج مثل كل زوج، على قدر ما أدركت أن هذا كان في صالحها. ليس أمامها إلا أن تسدل ستار النهاية على حكاية حب انقلبت بالإهمال والخيانة إلى حكاية عذاب طويلة، حكاية لعنة لا تعلم متى تزول عنها.

*****

جلس محمود في غرفته مستكينًا مستسلمًا لأفكاره المتداخلة، وذكريات حلوة كثيرة تجمع بينهما، لقد كانت حبه الأول ويبقى لدقة القلب الأولى مذاقًا خاصًا لا يقارن بأي إحساس بعدها وهل شعر بامرأة أخرى بعدها؟ هل أحب أخرى بعدها؟ لا، إنه يثق أنه لم يحب أي من الكثيرات اللاتي عرفهن، هن لسن أكثر من لحظات سعادة مسروقة وللسرقة لذة أخرى تختلف عما يشعر به مع زوجته، إنه لا يعيب على زوجته أي من خصالها، فهي جميلة بل جميلة جدًا، كل رفاقه يحسدونه على زوجته، هي تبدو في رشاقة عارضات الأزياء وفي جمال ملكات

الجمال، في عينيها السوداء سحر خاطف، هو ذاك السحر الذي اختطفه من نفسه منذ أول مرة رآها في الجامعة، وأصبح يطوف حولها ليتعرف عليها إلى أن تحقق أمله واقترب منها ثم أحبها وأحبته، هي الزوجة التي يتمناها أي رجل ولكن هو مثل أي رجل بعد وقت من الزواج يستولي عليه الملل وتهدأ مشاعره وتتجمد أشواقه، وكيف يشتاق إلى امرأة يراها كل يوم ويعرف كل تفاصيل يومها، الخطأ ليس خطأه وليس خطأها، إنما العيب في الزواج نفسه، الزواج ارتباط وإطار اجتماعي يخنق الحب، يفقده الأشواق المشتعلة والمشاعر الجياشة ويحول كل حالات الحب إلى حالة واحدة من الروتين اليومي، ولكي يهرب من هذا الروتين الملل، يصنع بنفسه الإثارة ويخلق الحدث الجديد، ليشعر بجديد في أيامه، فماذا يضير زوجته أن يختلس النظر إلى الجميلات، هو فقط يتأملهن وإن كان لا يدري عما يبحث فيهن وزوجته في عينيه كاملة الأوصاف، يحادثهن ويقابلهن وهو يراهن تافهات ربما ساقطات أحيانًا ولا يقبل أن يقارن بين زوجته وبين أي منهن، حقًا هو لم تمر في عقله أبدًا تلك المقارنة لأن داليا خارج المقارنة، إنها ملكة الجمال والأخلاق في عينيه، لا يليق بها أن تقارن بأي منهن، ولكنها لا تفكر كما يفكر، هي ترى كل ما يفعله خيانة لها ولحبهما الكبير، إنها أنانية في حبها، ربما هذا عيبها الكبير، أنانية وتريد أن تقيده بسلاسل عشقها، بل تطمع أن يعشق قيودها أيضًا بنفس درجة عشقه لها، هناك فرق بين الحب والامتلاك، وهي تريد أن تمتلكه، تعد تحركاته وتحسب أنفاسه، وتراقب لفتاته، وكلما ضيقت عليه الخناق، زاد عناده، وزادت لهفته إلى الأخريات وكأنه منطق الممنوع

مرغوب، هذه علاقتها وعلاقته الآن، كأنهما يسيران في خطين متوازيين ولا يمكن أن يلتقيا. هي لا تقدر أن تمنحه بعضًا من الحرية وتتجاهل تلك النزوات وهو غير قادر أن يكون أقوى من نزواته وإغراء الجميلات وتأثيرهن عليه.

ماذا يفعل؟ كيف سينتهي الأمر؟ إنه لن يطلقها، أبدًا لن يفعل ذلك، إنه يحبها ولا يقدر على الحياة بدونها. حقا ما زال يحبها ولكن يحب أن يلهو كمراهق ما زال يستنشق عبير الحب من كل زهرة في كل بستان ويرسمهن بريشة فنان، فنان في العشق، إنه جذاب تتعلق به القلوب سريعًا وهي لا تدرك ذلك، إنها منحة من الله تحاسبه عليها بمنتهى الأنانية. كم هي أنانية، مملة، عنيدة، ولكن مهما بلغ عنادها فهو أكثر عنادًا ولن يطلقها مهما فعلت. فهي حبيبته وزوجته ولن يتركها تبتعد عن حياته أبدًا.

*****

جلس كمال إلى جوارها وعينيه تحضنها بحنان بالغ وعلى شفتيه ابتسامة تزرع لها الوجود سعادة، كان يبدو عليه أنه سيخبرها بشيء مهم، جلست وعيونها تحتضن ملامحه وتنتظر بشغف كلماته، مسح بكفه على شعرها وقال لها:

– أنا محضرلِك مفاجأة حلوة.

– خير يا كمال.

– هنسافر كام يوم باريس.

– واو، بتتكلم بجد؟

– طبعًا. أنا عايز أَلِف معاكي الدنيا كلها، وأقول في كل مكان بحبك يا زينة.

– أنا اللي بموت فيك يا كمال.

لأول مرة ستسافر معه خارج مصر، بل لأول مرة في حياتها تسافر خارِج مصر، لا بد أن باريس مبهرة، وبدأت تفكر وتخطط كيف تستعد لهذه الرحلة وماذا تشتري من هنا قبل السفر وماذا تشتري من هناك؟

وفكرت في اللحظة ذاتها في سليم، تُرى أي هدية تأتي له بها من هناك؟ فأمسكت هاتفها واتصلت به سريعًا وأخبرته بسفرها بعد أسبوع وطلبت منه أن يكتب لها كل ما يريده من هناك، ولكنه أخبرها أنه لا يريد إلا أن تعتني بنفسها وتستمتع بوقتها ورحلتها. أنهت المكالمة وهي تفكر كيف تفاجئ أخاها بهدية غير متوقعة.

وفي اليوم ذاته الذي أبلغها فيه زوجها بالسفر، انطلقت تشتري قائمة طويلة من المتطلبات استعدادًا للسفر، وقضت وقتًا طويلًا تدور بين المحلات إلى أن أرهقتها الجولات وأتعبتها الساعات التي أمضتها في شراء ما تريد، فجلست في كافيه تستريح قليلًا لكي تنطلق من جديد، وبينما هي سارحة فيما تبقى من مشتريات، فإذا بها تنتبه إلى صوت هادئ يحييها، فالتفت باهتمام وابتسمت حينما رأت من يحييها، إنه مراد راجح، زميلها منذ أيام الجامعة، ومن في الدفعة لا يعرفه؟

إنه أشهر طالب في الدفعة حينها، الأول دائمًا طوال سنوات الدراسة، شاب معروف بذكائه، أهم ما يميزه هذا الذكاء الذي يطل من عينيه السوداء وملامحه السمراء، ونبرة صوته الهادئة الرزينة وأخلاقه العالية، هو نموذج للشاب المثالي: علم وذكاء وأخلاق، يخطو في مستقبله بخطوات ثابتة كأنه يعرف ما يريد من كل ثانية يعيشها ويدرك ما سيفعل في كل يوم من أيام عمره، كأنه خطط كل ما فيه وهو رضيع، إلى هذا الحد كان يراه الجميع جاد متزن كأنه نضج تفكيره منذ أن ولد.

حياها بلطف واحترام بالغ، وطلب منها أن تنقل تحياته إلى أستاذه وزوجها كمال، سلم بيده في تهذب واضح، ورمقها بنظرة خاطفة لا تخلو من الانبهار بجمالها مهما حاول أن يبدو متشبثًا بكل مظاهر الاحترام معها كأنه يحيي الدكتور كمال شخصيًا، لم يمتد هذا اللقاء أكثر من دقيقتين وغادرت هي لاستكمال ما تريد شراءه، بينما هو عاد يجلس كما كان وبقي على مقعده سارحًا، وعاد إلى الوراء بالذاكرة قليلًا منذ أن كان طالبًا في كلية الحقوق ورآها، وانبهر بها في صمت وخجل بالغين، وظل يحبها في صمت وما ظن أن من حق طالب مثله أن يفصح عن مشاعره قبل يتم دراسته ويحقق هدفه ويصبح معيدًا بالجامعة، هكذا كان يخطط لنفسه، وكان يرسم أحلامه بمسطرة مهندس بارع، وكانت هي أجمل تلك الأحلام، فقد قرر ألا يفاتحها في مشاعره نحوها إلا في عام التخرج وهو على أبواب المستقبل والحياة العملية ولكن أفلت الحلم من يديه واختطفها منه

الأستاذ، فكر أن يدافع عن حلمه الجميل، عن حبه المستكين ولكن عجزت أفكاره ومشاعره، وقيد لسانه الخجول، ولم يستطع أن يعبر عن مشاعره بعدما انتشر خبر علاقتها بالأستاذ بين كل طلاب الدفعة، وحاول أن يتأكد بنفسه، لعلها شائعة سخيفة، فكيف تعجب برجل في عمر والدها وهي تستحق أميرًا من أساطير ألف ليلة وليلة يليق بجمالها النادر وشبابها المتوهج، ولكن تأكد أن الأمر ليس شائعة، إنها حقيقة، فأغلق قلبه على جرحه الدامي فليس هناك شيء يشفيه إلا أن ينغمس في أوراقه ودراسته وينسى الحب، فليس له بين العشاق مكان. وانتهت سنوات الدراسة وتم تعينه بالجامعة وتزوجت هي من الأستاذ وظن أنها باتت في ركن مهجور من قلبه لا تدخله شمس ولا تدب فيه حياة، ولكن اليوم حينما رآها أشرقت شمسها في كل أركان قلبه، فدب النبض في عروقه وانتفض حبه الخامد كالبركان الذي صمت عقودًا، وآن له الأوان أن يثور، ولكنه سرعان ما كبت مشاعره من جديد بقوة عقله الراجح المتزن وقرر أن يتجاهلها، لابد أن يتجاهلها، ولكن عينه أصبحت لا ترى سواها في المكان بمجرد رؤيتها، وقلبه يريده أن يقفز إليها لتحيتها، حتى عقله المتزن سأله في بلاهة: وما العيب في السلام والتحية؟ ألم تكن زميلة؟

ودار في نفسه صراع حسم لصالحها، وكيف يتجاهلها وهي أمامه، الحياة أمامه، الحب أمامه، الوجود كله انسحب بكل روعته بين جفنيها، فهل كثير عليه أن يقدم لها تحية ويرمقها بنظرة خاطفة؟ إنها فرصة ربما لن تكرر، فسار نحوها

بخطوات متزنة ونظرات ثابتة وهو يوصي قلبه الكثير من الوصايا، إلى أن وصل إليها وحياها، وقلبه يدق باسمها ويقسم بعشقها، ابتسمت ابتسامة رقيقة كأنها جاءت بها من الجنة إلى هذا العالم البغيض لتلطف أيامه وتضفي عليها بعض البهجة، فمد يده وسلم عليها وسكب كل لهب مشاعره في كفه وقت السلام ولكنها لم تشعر بشيء، كفها مرتاح هادئ سرعان ما سحبته كأنها تتجاهل حرارة سلامة أو لم تشعر بها من الأساس، وعينيها زائغة في كل الاتجاهات، بينما عينيه تلهث لتقبل كل ملامحها سريعًا وفي نظرة واحدة، لقد سلم عليها وحياها بقلبه المشتاق، بكل سنوات عمره ولكن قلبها لا يشعر به، انصرفت سريعًا وتركته حائرًا يسأل نفسه:

هل ما زالت تحب الأستاذ؟ إنها تبدو مرحة سعيدة، إذن لا بد أنها ما زالت تحبه، ولكنه يعتقد أنها لم تحب كمال أبدًا، وكيف تحب رجلًا غادر سنوات الحب منذ زمن، رجلًا متصابيًا أراد أن يحيا زمنًا ليس زمنه، لصًا سرق حبيبته منه وسرق منها عمرها كله، إنها فقط انبهرت به، وربما لم تكن قادرة على التفرقة بين الانبهار والحب، ولكنها ما زالت سعيدة، إذن إنها ما زالت منبهرة، إنها لم تحب بعد، هكذا ما زال يفكر، ما زال يرى زواجها من الأستاذ بنظرة فلسفية عميقة وينتظر يومًا أن تدرك أنها لا تحب كمال ولن تحبه.

ما زال يجلس في مكانه بفكر شارد وراءها، وكأنها غادرت بكل مشاعره وتركته بلا نبض، بلا قلب، بلا حياة، مجرد جسد وفقط.

قضى ساعة وهو لا ينتبه لما يدور حوله، جالسًا في دنيا حبه القديم، ثم انتبه على صوت أحد أصدقائه يحييه، فانتبه أنه غاب في دنياها عن دنياه طويلًا وعليه أن يعود إلى عالمه سريعًا.

*****

الفصل الثالث

استيقظت سلمى في يوم إجازتها على اتصال هاتفي من صديقتها نجلاء، كانت الساعة الثامنة صباحًا، فأمسكت هاتفها بضيق وردت عليها وهي مغمضة العينين قائلة:

– في إيه؟ يعني يوم الإجازة تصحيني بدري، حراام عليكي. روحي نامي.

– قوليلي مبروك.

– مبروك، روحي نامي وسيبيني أنام.

– أنا اتخطبت يا سلمى.

ففتحت سلمى عينيها وأيقظت جسدها الخمول وقفزت من فراشها وقد استيقظت كل حواسها وشحنت كل تركيزها وسألت باهتمام:

- دا إمتى وإزاي؟ إحنا كنا مع بعض إمبارح.
- كنا مع بعض الصبح وأنا اتخطبت بالليل.
- من غير ما تقوليلي يا نجلاء، مين بقى العريس احكيلي؟
- لا، إنتي هتشوفيه النهارده، في حفلة صغيرة أوي وهنلبس الدِّبَل ولازم تكوني موجودة. هستناكي الساعة ٧، باااي عشان ورايا حاجات كتير أوي.

أنهت نجلاء المكالمة وجلست سلمى تفكر في صديقتها، ولماذا أخفت عنها هذا الخبر، وبدأت تفكر من يكون العريس، هل هو أحد الزملاء في المستشفى؟ ربما، نجلاء جميلة وتحيطها نظرات الإعجاب من الكثيرين في العمل، وربما جارها وربما أحد أقربائها، وقد يكون صديق أخيها، ولم لا، ربما يكون أي من هؤلاء؟

وبدأت تنعش ذاكرتها وتحاول أن تتذكر أي شيء قد أخبرتها به صديقتها سابقًا، عن المعجبين بها والعشاق حولها ولكنها لم تذكر شيئًا، أو بمعنى أدق هي لم تخبرها أبدًا عن مشاعرها وفتى أحلامها وحياتها الخاصة، تبدو جادة وكأنها لا تفكر في الزواج مطلقًا الآن ولا تتكلم معها إلا فيما تتكلم فيه مع الجميع وربما أخبرت كل الزملاء والزميلات بخطبتها اليوم كما أخبرتها ومن يدري ربما تكون هي آخر من يعلم؟

وتساءلت بينها وبين نفسها في شغف بالغ وبتفكير عميق كأنها ستحظى بالجائزة الكبرى إن عرفت سر العريس الغامض، ترى من هو خطيبها؟ كيف هيئته؟ أهو وسيم كنجوم السينما أم رومانسي كالمطربين أم جاد وقور كزملاء العمل؟ ثم انتبهت إلى أمر خطير، هل ستذهب إلى حفل الخطبة أم تتجاهل خطبتها كما تجاهلت هي اخبارها بالأمر؟ ولكن إن لم تذهب قد تفسر نجلاء ذلك أنها تغار منها ومن خطبتها. حقًا يمكن أن تفكر هذا التفكير، إذن لا بد أن تذهب ثم تعاتبها فيما بعد أنها أخفت عنها هذا الخبر المهم.

ولكن كيف ذلك؟ كيف تذهب وهي لم تستعد بعد؟ فقفزت إلى ثيابها تقلب أيها يصلح لهذه المناسبة، وقفت نصف ساعة تختار بينها ثم لم تختر شيئًا، وقررت أنها لا بد أن تشتري فستانًا جديدًا وحذاء وإكسسوارًا جديدًا لهذه المناسبة، ولا بد أن تمر على مصفف الشعر، ولا بد أن تتهيأ تمامًا للحضور وإلا لن تحضر.

فعادت تجلس في فراشها وهي مستاءة ومغتاظة وتشعر أنها في معضلة حقيقية، وصديقتها هي السبب، لماذا تخفي عنها هذا الخبر ولا تمنحها ولو يوم واحد تستعد فيه للحضور؟ يا لها من صديقة غريبة، ثم تذكرت رأي سليم فيها وما قاله عنها، وشعرت أن سليم دائمًا على حق.

انتبهت إلى صوت والدتها تنادي على أفراد العائلة لتناول طعام الإفطار، وجلس كلٌ على مقعده المعتاد، وتحدثت الأم مرة أخرى عن حيرتها وحزنها للخلاف القائم بين ابنها وزوجته واستمع الجميع في صمت وكأنهم جميعًا نفضوا أيديهم من حل المشكلة وتركوها لأصحابها يفعلون ما يشاءون، وتناول الأب القليل من الطعام ثم دخل حجرته ولم تكمل الأم طعامها ضيقًا من تجاهل زوجها لحديثها وقامت لترتب بيتها، وجلست سلمى سارحة في مشكلتها تمسك بالملعقة تارة والخبز تارة ولا تأكل شيئًا، وسليم يراقبها في صمت وهو يأكل بشهية، ثم ابتسم وقال:

– إنتي كمان زعلانة عشان محمود وداليا، إنتي مأكلتيش حاجة.

– أكيد زعلانة عشان علاقتهم اللي بتنهار بس أنا مضايقة من حاجة تاني.

فقال باهتمام:

- خير، إيه اللي مضايقك أو مين اللي مضايقك؟
- نجلاء هانم.
- مالها، إنتو زعلانين من بعض؟
- الهانم خطوبتها النهارده.
- كويس، مبروك، وإنتي مضايقة ليه؟
- بتقولي النهارده الصبح وعايزاني أحضر، مش عارفة بتخبي عليًّا ليه، هحسدها ولا أغير منها.
- جايز مش قصدها؟ على العموم طالما مضَّايقة ماتروحيش.
- ماينفعش ماروحش هتفتكر إني غيرانة، إنت مالكش في حوارات البنات يا سليم.
- خلاص، روحي.
- أروح إزاي وأنا ماحضَّرتش لِبس.
- كل لبسك جميل، أي حاجة هتلبسيها هتكوني أجمل بنت في الدنيا.
- بجد؟
- طبعًا.

صمتت قليلًا وعينها في عينه تفتش في أسراره التي لا يبوح بها، صمتت دقائق ثم قالت:

– خلاص أنزل أشتري طقم على السريع وأعمل شعري، وإنت استعد عشان تيجي معايا.

– ماعرفش حد هناك يا سلمى.

– هروح لوحدي يا سليم؟

– أوصلك وقبل ما تجي تمشي اتصلي بيًّا أرجعلك.

صمتت وفي عينيها الخضراء الواسعة بستان لوم وعتاب، كانت تريده إلى جوارها ولكن ما استطاعت أن تلح عليه، خجلت أن تحمله عبأ لا يطيقه، فقامت وجلست أمام التلفاز وبدأت تفكر كيف تشتري الأفضل في أقل وقت، وسرحت قليلًا في مظهرها وما ستشتريه وكيف تتألق وتبدو أجمل الحاضرات، وانتبهت على صوت سليم يقدم لها مبلغًا كبيرًا من النقود ويطلب منها أن تشتري أجمل وأغلى ما تراه عينها اليوم من مشتريات، فابتسمت وقلبت حديثه الجاد إلى تهريج كما اعتادت، ثم نبهته بجدية أنها تعمل ولديها ما يكفي لشراء ما تريد، فقال لها وهو محتفظا بابتسامته الرقيقة:

– وماله خليهم معاكي، أنا نازل الشغل ولو احتاجتي حاجة كلميني، أنا غالبًا هرجع لما تجهزي، ورايا حاجات كتير مش راجع على الغدا.

وانقضى يوم طويل واستعدت سلمى كما أرادت وجاءها سليم كما اتفق معها، وما إن رآها حتى وقف مبهورًا وبدا انبهاره بجمالها في شهقته ونظرته، حتى صمته كان يثني على جمالها الذي فاق كل الحدود، فقد بدت عروسًا في ليلة عرسها، لا ينقصها إلا فستان العرس الأبيض، ما أروع فستانها الأزرق كأنه موج البحر يغرق كل من يراها في بحر جمالها الساحر، شعرها الذهبي ينسدل على كتفيها وظهرها كأنه تاج ذهبي يتوجها على عرش الجمال، وعيونها الخضراء الواسعة بين الجفون المكحلة بالأسود كأنها بستان عشق يناديه بنظرة رقيقة كالنسيم، وتلجم الكلام على شفتيه ما تمنى إلا أن يقطف ورد شفتيها بقبلات تمتص كل رحيقها. وقف منبهرًا مندهشًا مبتسمًا، فقالت في دلال:

–إيه رأيك يا سليم، أنا اختارت كله على السريع، إيه رأيك؟

– قمر يا سلمى.

استعد سليم واصطحبها إلى بيت صديقتها، وفوجئت به يستعد أن يحضر معها عكس ما قاله صباحًا، فابتسمت وقالت في صوت فرح:

– سليم إنت هتحضر الخطوبة معايا؟

– متهيألي ماينفعش أسيبك لوحدك، يمكن حد يضايقك ولا حاجة، بس مش نتأخر.

– حاضر، زي ما تحب.

ودخلت حفل الخطبة يدها في يده وخطواتها ترافق خطواته، وهي تسير إلى جواره مشدودة القامة مرفوعة الرأس، كأنها تفتخر به وتفتخر بجمالها، وهو يقبض على يدها بقوة كأنه لن يقبل أن تبتعد عنه دقيقة، وكيف يترك هذا الجمال بين عيون الناظرين بلا حارس، وكيف يطمئن قلبه أن يتركها بين أناس لا يعرفهم، فهو إلى جوارها يحميها من الناس ومن الهواء إن غار من روعتها.

والتفت كل الحضور إليهما، أو بالأخص إليها وكأنها نجمة من السماء هبطت في تواضع لتسير بينهم، ورأى سليم الفتيات يتهامسن والرجال يتهامسون وظن أنهم جميعًا يتساءلون بينهم مَن تلك الفاتنة الشقراء؟ فقبض على يديها بقوة أكثر وكأنه يقول لهم جميعًا إنها حبيبتي، أبعدوا أعينكم عنها.

وتبادلت سلمى القبلات مع العروس وصافحت العريس وهمست في أذن نجلاء:

- مبروك يا خاينة، ما شاء الله بتقعي واقفة، اسمه إيه وبيشتغل إيه؟

فنظرت لها نجلاء بابتسامة ماكرة وقالت:

- خالد عزيز مهندس.

قالت سلمى: وسيم، ما شاء الله، طويل كده، الطول هيبة بردو.

فردت صديقتها:

- مش أحلى من سليم، لايقين على بعض أوي.

فقالت سلمى في خجل: مين اللي لايقين على بعض، إنتي غريبة أوي.

فقالت نجلاء هامسة: دا بيموت فيكي يا عبيطة.

فأشار لها سليم لتأتي إليه، فجاءت سلمى وجلست إلى جواره فطلب منها أن تترك العروس لعريسها وتؤجل هذه الأحاديث الجانبية بينهما لما بعد ذلك.

وأشارت إحدى زميلات سلمى في العمل إليها، فسارت سلمى نحوها ووقفت سلمى تحكي معها عن نجلاء وجمالها في هذه الليلة ولكن زميلتها سألتها عن سليم وهل هو خطيبها كما تقول نجلاء، فارتبكت سلمى وقالت إنه ابن عمها وفقط وعادت تجلس إلى جوار سليم، وسرحت قليلًا فيما قالت زميلتها ثم انتبهت إلى نجلاء تشير لها، فذهبت إليها وفوجئت بفارس يقترب منها ويعتذر عما بدر منه، فابتسمت وقالت إنها نسيت الموقف ولكن لن تسمح أن يتكرر، وألقت نظرة على سليم فوجدته يراقبها وعينيه تطلق رصاصات ضيق على فارس وشفتيه مزمومتين في صمت، فودعت صديقتها وهنأتها مرة أخرى، وذهبت إليه وهي تدرك أنه يريد الانصراف.

وانصرفا سويا، وهو يقود السيارة في صمت مريب، فتساءلت عما عكر مزاجه رغم أن الوقت مر لطيفًا.

فصاح لائمًا غاضبًا من حديثها مع الشاب السمج قبل انصرافهما فأخبرته أنه فارس وكان يعتذر عما بدر منه من مضايقات سابقًا، فثار أكثر وتساءل في

استياء كيف لم تعيد عليه كلمات التوبيخ من جديد، فردت بغضب أن الوقت ليس مناسبًا لذلك، كما أن الأمر انتهى في وقته ولا يجب الحديث فيه مرة أخرى.

فأوقف السيارة وصاح غاضبًا: لما أقول حاجة ماتجادليش كتير وتسمعي الكلام، وفارس ده لو كلمتيه تاني هاكسر رقبته.

فقالت بانفعال: لو سمحت ماتكلمنيش بالطريقة دي أنا مش عيِّلة صغيرة.

- لا صغيرة وقمر، وقمر أوي كمان، وأي حد هيقرب منك هاقطم رقبته.

فابتسمت وقالت: ليه؟

- عشان.. إنتي بنت عمي.

فقالت باستياء وعصبية: إنت واقف ليه، اتفضل نروح وإلا هاخد كلمتين من بابا كمان.

قاد السيارة وساد الصمت وكل منهما منشغل عن الآخر بأفكاره، لقد احتارت في أمره، ما الذي يمنعه أن يقول لها أحبك؟ هي تعرف أنه يحبها وكل من رآه اليوم قرأ حبه في عينيه، فلم تعد مشاعره سرًا إلا عليها، ولماذا يخفي عنها تلك الكلمة وهو يقولها كل دقيقة بعينيه واهتمامه وحنانه وخوفه وغيرته عليها، كل ما يفعله ليس له إلا معنى واحد أنه يحبها بل يعشقها، فلماذا لا يبوح بعشقه؟

بينما هو أيضًا سارح يفكر فيها، لقد رآها اليوم عروسًا تضج بالشباب والجمال، وآن الأوان أن يظهر فارسها ويختطفها من كل الدنيا إلى دنياه، إلى دنيا عشقه التي لا تتسع إلا لها، وما خُلق له قلب إلا كي يحبها.

وصلا إلى المنزل، ودخل سليم إلى غرفته ليستريح من أفكاره ولكنها ما تركت له فرصة الراحة، بل ظلت تتطاحن وعيونه مفتوحة تراقب صراع أفكاره كأنه في حلبة ملاكمة لا يدري من يفوز.

بينما حكت هي لوالدتها عن العروس وخطيبها في كلمات مقتضبة ودعت لها والدتها أن يرزقها الزوج الصالح، وقبلت سلمى والدتها ودخلت غرفتها تفكر في سليم، لماذا لا ينطق؟ ماذا ينتظر؟

لقد كانا سويًا اليوم في عيون الجميع خطيبين، بينما هو لم يقل لها شيئًا بل ليته يتمنى لها زوجًا صالحًا، فتفهم أنه لا يريدها، فتكذب حينها نفسها والناس وأحاديثهم، تكذب عقلها وقلبها وعينيها وتصدق كلماته الخائبة إن قال ذلك، لقد صارت لا تريد إلا أن تعرف ماذا ينوي لها وماذا يريد؟ لقد طال انتظارها إلى أن ملت وفاضت حيرتها إلى أن أعيتها وهي تخفي كل هذا عنه وهو أمامها ليلًا ونهارًا، ويا له من مجهود شاق، كبدها الكثير من الألم، ألا يدري بألمها وعذابها؟ وكيف يعذبها وهو الذي لا يطيق أن يراها تعيسة ولو لحظه، اقترب بها

من الجنون. ولا تدري كيف تفر من صمته وجموده المستفز؟ أو كيف تفر إليه وإلى حبه الصادق المختبئ خلف جدران صمته القاتل.

*****

وقفت داليا أمام مرآتها تتأمل فستانها الوردي القصير وتعدل تسريحة شعرها الناعم وتتطيب بعطرها الجميل، أثقلت مساحيق المكياج في عينيها السوداء لتزداد اتساعا وسحرًا، وأضفت على شفتيها حمرة مثيرة وبدت كأنها تستعد لسهرة صاخبة ولكنها لم تكن تستعد للخروج بل كانت تستعد لمقابلة زوجها محمود في بيتها، إنه يجلس مع والدتها في غرفة استقبال الضيوف ينتظرها، تركته ينتظرها نصف ساعة وأكثر ويتحدث مع والدتها في أحاديث متقطعة مملة، تركته ينتظرها وهي تعلم جيدًا أنه يكرهه الانتظار، وما اعتاد عليه أبدًا، إلى أن جاءت والدتها تستعجلها وتلومها على هذا التأخر، فخرجت إليه لترحمه من الانتظار الذي لا يطيقه، بينما تركتهما الأم يتحدثان سويًا لعل الحديث يثمر بالصلح المنتظر، كان جالسًا ملولًا، مستاءً، يبدو عليه الإرهاق، الهالات السوداء تظلل عينيه كأنها ليل أنينه ووحدته، حيته بسلام بارد، وجلست أمامه صامتة تنظر بعيدًا كأنها لا تهتم به أو لا تطيق النظر إليه، بينما هو يتأملها، يتأمل فستانها الأنيق ووجهها المشرق وملامحها الهادئة وابتسامتها الصافية كأنها سعيدة في البعد عنه، مما زاد ضيقه، وأثار ثورة في قلبه، إنها تبدو كزهرة نضرة على غصن يسمو إلى الشمس ويريد أن يعانق السماء، كيف هذا وهو يعاني بدونها، يكاد لا ينام،

غيابها عن البيت يرهقه ويؤرقه كأنها أخذت معها الراحة والنوم والسعادة وهي تغادر، ثار قلبه عليها بين ضلوعه فقال بغضب:

- إيه، مازهقتيش من اللعبة المملة دي، مش كفاية عِند.

فنظرت إليه وفي عينيها سخرية طاغية وعلى شفتيها ابتسامة باردة، وقالت في صوت هادئ منخفض: مش أنا اللي بعند، إنت اللي بتعند ومش عايز تشوف إحنا وصلنا لإيه؟ خلاص يا محمود حكايتنا خلصت، مابقاش في حلول إلا الطلاق.

- ليه، أنا عملت إيه، قصرت معاكي في إيه؟
- مش عايزة أتكلم تاني، لأن المناقشة مش بتوصلنا لحل، أنا اللي مقصرة، أنا ست مفترية وماستاهلكش، طلقني وربنا يوفقك وتلاقي اللي تستاهلك.

جلس ينظر إليها في دهشة بعينين مفتوحتين غاضبتين، جلس يستجمع كل قوته كي يرد على كلامها البارد، ولكن تاهت كلماته من جليد حديثها وانكمشت في صدره وشعر لدقائق أن لسانه لا يطاوعه، وشفتيه تاهتا منها كل الحروف، رغم أن الكلام موهبته وأهم ملكاته، فسأل نفسه في تعجب:

- إلى هذا الحد أصبحت لا تريدني زوجها؟ هل صارت تكرهني؟ أين حبها؟ أين مشاعرها؟ أين قلبها مما تقول؟ هل مات إحساسها وحبها؟

كيف ذلك وهو ما زال يحبها؟ ولكن سرعان ما أقنع نفسه أنها عنيدة وتريد أن تستفزه بهذا الكلام السخيف لكن قطعًا هي لا تريد الطلاق، كلهن يطلبن الطلاق وإذا ما حدث يسكبن الدموع انهيارًا ويتحسرن أطنانًا وكأنهن ما طلبنه وما سعين إليه، إنه مجرد هراء، فبدأت أعصابه تهدأ بهذا التحليل المنطقي لكلامها، فأفاق من دهشته وحاول أن يتصنع البرود مثلها وقال:

- داليا، أنا راجل من حقي أتجوز أربعة، إنما أنا مش عايز أتجوز، أوعدك إني مش هتجوز غيرك. وأعتقد دا اللي يهمك.
- لا يا محمود، أنا مبقاش يفرق معايا تتجوز ولا تحب ولا تصاحب، كل اللي يهمني سعادتي وراحتي، واللي متأكدة منه إن سعادتي وراحتي مش معاك.

قذفت كلماتها في محيط هدوئه المصطنع فأزاحت الستار عن غضبه المشتغل خلف ستارة الهدوء المهلهلة، فهب واقفًا وصاح ثائرًا كأنه يريد أن يحرق ما حوله بكلماته:

- إنتي إزاي بتكلميني كده، طب أنا مش هطلق عشان يهمني إنك تكوني تعيسة ومش مرتاحة، مش هطلق وهعيش حياتي بالطول والعرض إذا كان عاجبك.

وغادر غاضبًا، وعاد إلى شقته وكل ما فيه ثائر، قلبه ثائر ومشاعره ثائرة، وعقله يريد أن يعود إليها لينقض عليها ويحملها عنوة إلى هنا، هنا بيتها وحياتها، كيف تكره ما بينهما إلى هذا الحد؟

إنها قاسية عنيدة، لا تحاول أن تخطو نحوه خطوة واعية فاهمة، لا تحاول أن تحتوي المجنون المراهق المدلل الفاسق الذي بداخله، واقفة بعيدا تتلذذ بعذابه في بعدها وعنائه في غيابها وتشعل شوقه إليها، وشعر لبعض الوقت أنه أصبح أمام امرأة أخرى لا يعرفها، حقا إنها امرأة جديدة، ما كانت تطيق بُعده ساعات، كانت تحبه حبًا يغفر كل خطاياه، كثيرًا ما كانت تغضب وتثور وتغفر وتحنو ونهر حنانها وحبها يطهر كل خطاياه بالحب الصادق، هل جف نهر حبها؟ لا يمكن، ما بينهما كبير لا يفنى مهما بلغت خطاياه.

جلس على مقعده وأشعل سيجارته ليطفئ نار ضيقه، ولكن دخان السيجار زاد اختناقه وزاد ضربات قلبه وخلق في عقله فكرًا مجنونًا مكتظًا بالظنون، ومرت أمام عينيه صورتها وهي جالسة أمامه في كامل أناقتها وكأنها ستزف للحياة من جديد في البعد، مجرد قرار اتخذته وصممت عليه ولم يصبح واقعًا أزهر ورودها، وجعلها تهتم بنفسها، وتجلس أمامه بغرور واثقة هادئة مبتسمة باردة وهو يحترق بعنادها وعناده. إنها ليست داليا، إنها امرأة أخرى يريد أن يستكشفها، ماذا تبدل فيها، قلبها؟ تفكيرها؟ مشاعرها؟ هل خطاياه كافية لتبدلها بهذا الشكل، من امرأة تفيض رقة وإحساسًا وحنانًا إلى امرأة جامدة كالتمثال، ما الذي غيرها؟

ظل طويلًا يسأل نفسه ما الذي غيرها إلى أن طارده شيطان الظنون وأطبق على أنفاسه بيد حديدية، وتساؤلات مخيفة، هل هناك رجل آخر في حياتها؟ وصاح بكل صوته (كلا، لا يمكن) إنها إله الأخلاق في عينيه لا يمكن أن تخون أبدًا، وعاد شيطان الظنون يهمس في أذنيه بالإجابة المقنعة، لأنها لا تقبل الخيانة تريد الطلاق، كي تكون ملك من تحب بروحها وجسدها ومشاعرها.

هب واقفًا يتأمل نفسه في مرآته وربما يبحث عن هذا الشيطان الذي يحدثه ويملأ أذنيه بهمس مخيف مرعب، فقال بصوت مسموع: أستغفر الله العظيم.

وعاد يجلس ويحاول أن يهدأ ويرحم نفسه من هذه المخاوف والوساوس المجنونة، ثم تذكر أنه كان غبيًا طيلة الحوار، وأي امرأة أخرى لو سمعت ما قاله كانت ستصمم على الانفصال، لماذا لم يقل لها أحبك، لماذا لم يقل لها ما يعانيه في غيابها؟

ابتسم وكأنه وجد ضالته، نعم هذه الكلمة الساحرة هي الحل السحري لكل ما يعاني مع داليا، لو شعرت بحبه سينهار عنادها كأنه بيت من الرمال على شاطئ البحر. هي لا تحتاج إلا لكلمات الحب والهوى التي تطربها وتطرب كل بنات حواء، ضحك بصوت عالٍ وقال لنفسه:

- أما أنا مغفل، أنا اتكلمت معاها بغباء، إنما ملحوقة.

أمسك هاتفه واتصل بها ولكنها لم ترد وكرر الاتصال مرات ومرات ولكنها لم ترد فاستشاط غضبًا خاصة حينما انتبه أنها متصلة بالإنترنت، إنها تتجاهله، تتجاهله عن قصد، ربما هذا هو ردها على كلامه السخيف الذي اختتم به حوارهما، حقًا كان كلامًا سخيفًا ويستحق أن تتجاهله بعده، التمس لها العذر وعاود الاتصال بإلحاح إلى أن ردت على مكالمته فقال برقة بالغة:

– داليا أنا آسف، آسف على كل كلمة سخيفة قولتها النهارده.

– خلاص يا محمود، مفيش مشكلة، تصبح على خير.

– استني، إنتي للدرجة دي مش قادرة تسمعيني.

– بلاش نتكلم تاني وتجرحني تاني.

– بحبك، أنا عارف إني إنسان هوائي وفيًّا عيوب الدنيا، ومفيش واحدة تتحملني، لكن أنا بحبك، أي بنت بكلمها مجرد تسلية، عمري ما حبيت واحدة غيرك، صدقيني.

– محمود، الكلام ده كان بيريحني ويرضيني زمان لكن دلوقتي مابقاش ينفع.

– إنتي اتغيرتي، اتغيرتي أوي يا داليا.

– أنا ماتغيرتش إنما تعبت ومابقاش عندي طاقة أتوجع منك تاني.

– يعني إيه إنتي هتقدرى تعيشي من غيري، إزاي، إنتي بتكرهيني؟

- بالعكس أنا لسه بحبك، إنما لو كملنا مع بعض هكرهك وأنا مش عايزة أكرهك يا محمود، فكر بهدوء في كلامي، هتلاقي إن دا الحل الوحيد والنهاية المنطقية، تصبح على خير.

*****

انقضت أيام رحلة باريس سريعًا كأنها حلم خاطف، وعادت زينة مع زوجها. وفي اليوم الثاني لعودتها زارت عمها وأسرته وكانت محملة بالهدايا الرائعة للجميع، وقضت وقتًا ممتعًا مع عائلتها ثم ودعتهم للعودة إلى بيتها، وفي طريق العودة بينما الشمس تلملم خيوط أشعتها استعدادًا للرحيل في رحلة الغروب البعيدة، جذبها رونق النيل وهو ينساب هادئًا يودع قرص الشمس في رفق وعذوبة، فاستمعت إلى نداء الغروب، فوقفت تنظر إلى الماء المتدفق وفكرها شارد بين أيامها التي مضت وأيامها القادمة، وانتبهت عيناها إلى فتاة مراهقة على بعد أمتار قليلة منها، فتاة لا تتخطى العشرين من عمرها تهمس إلى شاب ربما في نفس عمرها وعلي شفتيها ابتسامة ممزوجة بخفقات قلب عاشق تكاد تسمعها وهي واقفة بعيدة عنها، سرحت قليلا فيها، في نظرة عينيها المشتاقة، نظرة تغني نغمات العشق وتلقيها سرًا دفينًا في النيل، وهي تثق أنه أمين على سرها البريء وحبها الجميل، ابتسمت وعادت تتأمل النيل والغروب، وفجأة انتبهت على صوت هادئ يحييها فالتفتت إليه، إنه مراد بابتسامته الرزينة وملامحه الهادئة،

ولا تدري أي صدفة تلك التي جمعته بها من جديد، ردت التحية، فسأل باهتمام:

- إيه أخبار رحلة فرنسا؟
- جميلة جدًا، انبسطت أوي بس الأيام الحلوة بتعدي أوام.
- فعلًا، بتعدي أوام، عارفة إن أيام الدراسة كانت أجمل أيام أتمنى لو ترجع تاني.
- معقول! لا أنا مش عايزة مذاكرة تاني ولا امتحانات تاني، وبعدين إنت حققت هدفك وبقيت معيد في الجامعة مش خايف لو رجعت الأيام تاني متبقاش الأول مثلا؟
- مش مهم، كان فيه اللي أهم من إني أبقى معيد وضاع، لو رجع بيا الزمن مش ممكن أسمح إن الغلطة دي تتكرر.
- غريبة أوي، إيه اللي ضاع؟

فصمت قليلًا وبين شفتيه كلمة خاف أن ينطقها، فاستجمع كل قوته وكل قدرته كي يسجنها ويربط الحروف برباط متين، فلا تفر وتنطلق كالسهم، فلا يدري ماذا سيصيب إن قفز سهم عشقه موتورًا. وهي واقفة صامتة تنظر إليه باستغراب، وانتبه إلى أن صمته طال فقال:

- إيه أخبار الأستاذ؟

– يومين وهينزل الجامعة، صدفة سعيدة يا مراد، أنا لازم أروح.

– أوصلك؟

– معايا العربية، سلام.

انطلقت تخطو كفراشة ترفرف بجناحيها بحثا عن السعادة، هكذا قرأ شرودها وهي تنظر إلى النيل، إنها ليست سعيدة هكذا يظن، هكذا يشعر، إنه يحبها ويرى ما في قلبها وإن كانت لا تراه، فوقف ينظر إلى النيل ويبحث في صفحته عما كتبت حبيبته الغافلة عنه، وظن أنها كتبت حيرتها وقلقها ورسمت متاهة كبيرة لا تعرف كيف تنقذ قلبها منها.

*****

الفصل الرابع

في أمسية هادئة جلست الأم بثينة وإلى جوارها ابنتها سلمى تتابعان فيلمًا كوميديًا على شاشة التلفاز، وضحكاتهما تتراقص على شفاههما، بينما كان سليم جالسًا على أريكة وحده أمام الشاشة أيضًا، ولكنه كان يتصفح الأخبار على هاتفه بتركيز ولا يتابع ما يتابعان، أما العم لم يكن في المنزل بل كان في جلسته الأسبوعية المعتادة مع رفاق العمر على المقهى. وبينما كل منهم منسجم فيما يتابع، انتبه الجميع إلى جرس الباب، فقام سليم لمعرفة من الزائر. إنه محمود، ألقى محمود التحية في صوت منخفض وبدا على وجهه الإرهاق، وما زالت الهالات السوداء تظلل عينيه وتبلغ الجميع بمعاناته وأرقه، استقبله سليم بوجه باسم وترحيب مرح.

انضم محمود إلى الجلسة العائلية، ورحبت به أمه وأخته، ونادت بثينة على خادمتها أم هَنا لتأتي لمحمود بمشروبه المفضل عصير التفاح ثم تعد لهم العشاء.

أقبلت أم هَنا السيدة الأربعينية السمراء سريعًا بالمشروب وانصرفت على عَجَل إلى المطبخ لتنفيذ أوامر سيدتها. بينما انخرط محمود في حديث متواصل مع سليم وسلمى يغلبه الدعابة والنكات.

وبدأت بثينة تدقق النظر في وجه ابنها، فقرأت حيرته وقلقه وشعرت بأنه يعاني رغم أنه لم يكف عن الضحك والدعابة منذ قدومه، ولكنها بقلب الأم الذي لا يخطأ أدركت أن ضحكه ما هو إلا ضحك مصطنع، ستار مهلهل يخفي خلفه اضطرابه وربما عذابه مما انتهت إليه علاقته بزوجته.

فقالت الأم: عملت إيه مع داليا؟

– ماعملتش

– وبعدين هتفضل سايبها كده، لازم توصلوا لحل.

– عايزاني أعمل إيه يا ماما، روحتلها اكتر من مرة، وكل مرة عنادها بيزيد، خلاص خليها كده.

فقالت سلمى: لازم تحاول مرة وعشرة، حتى ألف إيه يعني، داليا تستاهل.

فرد محمود ساخرا: لا، أنا ماعنديش طاقة أحاول ألف مرة.

فنهضت سلمى في انفعال عاصف ووقفت أمام أخيها في تحدٍ صارخة بحماس وكأنها تهتف خطبة عصماء في مظاهرة حاشدة عن حقوق المرأة المقهورة وقالت:

– لكن عندك طاقة تكلم وتحب وتصاحب ألف واحدة، حرام عليك، إيه الجبروت ده.

فهب محمود مفزوعًا ووقف أمامها مندهشًا، وصرخ غاضبا:

- إنتي إزاي تكلمي أخوكي الكبير كده؟

- أخويا الكبير بيتصرف تصرفات مراهقين.

فهمَّ أن يصفعها بلطمة ربما تدمي وجهها الجميل، إلا أن سليم قفز في لحظة ليمسك بيده قبل أن تبطش بها، فانسحبت سلمى من أمام أخيها، وانزوت في ركن بعيد وهي مذهولة من رد فعل أخيها الذي لم تتوقعه أبدًا، بينما محمود صب كل غضبه على سليم وصرخ فيه:

- إنت مالك بيَّا، أختي وأنا حر فيها أضربها ولا أقطع رقبتها.

- خلاص يا محمود، هي ماتقصدش اللي قالته، هي خايفة عليك، قصدها النصيحة مش أكتر.

- هو مين اللي ينصح مين، وإنت إيه اللي دخلك بينا، إنت قاعد معانا ليه وإحنا بنتكلم في مشكلة عائلية.

تفاجأ سليم من كلمات محمود، وتلميحه بأنه يتطفل على اجتماع عائلي، وكأنه ليس أحد أفراد تلك العائلة، فتراجع خطوات للوراء وقال:

- أنا آسف.

وانصرف سليم إلى غرفته سريعًا، وهرولت سلمى إلى غرفتها وأغلقت بابها قبل أن ينتبه إليها محمود، إنها خافت منه كثيرًا، وهو منفعل بشكل لم تره من قبل، هائج يريد أن يكسر ما حوله، خافت صوته المحشرج وعينيه التي تشع غضبًا عاصفًا وكلماته السامة التي يؤذي بها كل من ينصحه.

انفض مجلس العائلة ولم يبقَ إلا محمود ووالدته، والأم تشاهد ولا تتكلم، فنظر إليها محمود فوجدها تنظر إليه في أسى، فقال لها:

- عاجبك يا ماما كلام بنتك، وسليم بدل ما يقولها عيب، البيه بيدافع عنها.

فقالت بهدوء:

- تعالى يا حبيبي اقعد جمبي.

فأخذ نفسًا عميقًا كأنه كان مكتوم الأنفاس طوال فترة المشاجرة الكلامية، كأنه نسي أن يتنفس وهو منفعل ثائر، ثم جلس إلى جوار والدته وقال:

- أنا تعبان.

- سلامتك يا حبيبي.

- أنا مش عايز أطلقها.

- عارفة، عارفة إنك بتحبها وهي كمان بتحبك، بس الحب يقوي بالاهتمام.

– هي خلاص بتكرهني وعايزة تخلص من علاقتنا بأي شكل. اتغيرت أوي.

– سيبها تهدأ، بالحنية والكلمة الحلوة الحجر يلين، صدقني. والكلام لازم يبقى معاه فعل، ابعد عن اللي خلى علاقتكم توصل لكده، في حد يضيع حب عمره عشان كلام فاضي على النت يا حبيبي.

قالت الأم نصائحها واستمع الابن في صمت، واشتعل في نفسه صراع لا يهدأ، إنه يريد أن يحتفظ بزوجته ولكن يريد حريته، يريد أن تظل كلمته ورغبته هي النافذة، يريد امرأة تقبله بكل جنونه، بكل عيوبه، تتركه يحلق أينما يشاء وتسعد بأن يعود إلى عشه مهما حلق بعيدًا، لكن داليا ليست تلك المرأة، وربما تلك المرأة التي يريدها ليس لها وجود على الأرض فكيف يرضيها ويرضي نفسه؟

يبقى الأمر معلقًا بين عناده وعنادها، وتبقى حياته وحياتها تتأرجح بين المقبول واللامقبول، بين المعقول واللامعقول، تبقى الأزمة قائمة بلا حلول.

*****

بقيت سلمى في غرفتها تدور حول نفسها، تقترب من باب الغرفة لتسمع ما يحدث خارجها، الدقائق تمر عليها ثقيلة، وخوفها صوَّر لها أن محمود من الممكن أن يأتي إلى حجرتها ليضربها أو يعنفها بالقول، إنه في حالة غضب هستيرية، ثم سمعت والدتها وهي تودع محمود ثم سمعتها وهي تنادي على سليم وأدركت أن أمها لن تنام قبل أن تطيب خاطر سليم بكلماتها الحانية بعد الكلام السخيف

الذي قاله محمود، وبعد دقائق سمعت خطوات والدتها نحو غرفتها وهي تقول بصوت خفيض:

- أستغفر الله العظيم، يا رب اصلح الأحوال.

سكن كل في غرفته، وبدأت سلمى تفكر وتراجع ما قالته لأخيها وتمنت لو اعتذرت له على انفعالها ووبخت نفسها على اندفاعها وتسببها فيما حدث.

فأمسكت هاتفها وفكرت أن تتصل بأخيها لتعتذر له ولكن سرعان ما تراجعت، محمود عصبي جدًا وربما بالغ في توبيخها وربما انفعلت عليه فتزداد الأمور تعقيدًا فأرسلت له رسالة اعتذار صوتية.

أرسلت الرسالة وشعرت أنها ألقت حملًا ثقيلًا من على كتفها ولكن يبقى عليها التحدث مع سليم.

لابد أنه تأثر بكلام محمود الحاد وهي أيضًا السبب في هذا الصدام، عليها أن تعتذر له، يبدو أنها ليلة الاعتذار الكبير، ولكن كيف ذلك وهو لا يحب أن يجلس معها منفردًا، إنه خجول جدا ولو طلبت أن تحدثه دقائق سيؤجل أي حديث إلى الغد طالما كل من في البيت نيام، وهي لن تتحمل إلى الغد، فأمسكت هاتفها واتصلت به، فرد عليها سريعًا، فقالت.

-كنت خايفة تكون نمت.

- في حاجة

- في حاجات مش حاجة واحدة

أولًا أنا آسفة إني عملت مشكلة وخليت محمود يقول كلام سخيف، بس هو مايقصدش أبدًا، إنت عارف إنه لما يتعصب بيقول أي حاجة ويعمل أي حاجة بس هو بيحبك أوي.

- أنا مش زعلان منه، أنا تقريبًا نسيت اللي قاله.

ثانيًا لازم أقولك شكرًا، أنا كنت هاخد حتة قلم، تاريخي يا سليم.

- عايزة الحق؟
- إيه؟
- بصراحة تستاهلي.
- يا سلام، يعني أنا أستاهل الضرب يا سليم؟
- ماكنش يصح تكلميه كده، هو تعبان مش ناقص.
- ما هو اللي استفزني، مش عايز يعترف أبدًا إنه غلطان يا سليم، يعني هو يقبل داليا تعمل اللي بيعمله.
- دي محاضرة المساواة بين الرجل والمرأة ولا إيه، أنا كنت سيبتك منك ليه.
- أهون عليك بردو؟
- أبدًا، ولا حد يلمس شعرة منك طول ما أنا عايش حتى لو كان محمود.

صمتت وعلي شفتيها ابتسامة تتمنى لو يراها وفي عينيها بريق تتمنى لو رآه ربما انحلت عقدة لسانه ونطق بما في قلبه، وسرحت قليلًا ثم انتبهت على صوته يطلب منها أن تعتذر لأخيها، فأبلغته أنها فعلت ذلك، وتبادلا سويًا الأمنيات بنوم هادئ وانتهت المكالمة بينهما.

*****

الليل والهدوء يشعلان المشاعر في القلوب، فاختارت نجلاء أغنية حالمة واستمعت بإنصات وأغمضت عينيها وسرحت في عالم رومانسي، وفي لحظة تمنت لو خطيبها يقول لها كلمات العشق المغناة، ولكنه لا يقول، محادثاته معها هادئة باردة كأنها نقاش بين زملاء، وراجعت في عقلها كل مكالماتهما سويا منذ يوم الخطبة أو حتى لقاءتهما، لم يقل لها أبدًا أحبك. فاتسعت عيناها في دهشة وكأنها اكتشفت سرًا خطيرًا، هو ربما فعلًا لا يحبها. ويا لها من حقيقة سخيفة وهي كذلك لم تتعلق به تعلقًا يسعدها ويؤرقها ويجعلها تصاحب الليل والنجوم كما يغنون عن الحب. ثم انطلق عقلها بذكائه المعهود ونبهها أن حتى الحب قد يحتاج إلى وقت، وهما لم يعرفا بعضهما أبدًا قبل الخطبة. ارتباطهما ارتباطًا عقلانيًا تمامًا، كلاهما رأى في الآخر مواصفات شريك العمر من حيث الأصل والنسب والأخلاق والمكانة العلمية والاجتماعية، تقريبًا كأننا نحضر منتجًا مميزًا، فنختار المكونات بعناية فائقة لنحصل على منتج عالي الجودة. لم يكن للقلب أي دور

فيما حدث، ولكنها ما زالت تتمنى أن يدق القلب بخفقات العشق الجميل. ربما يحتاج ذلك إلى وقت. وربما يحتاج إلى سنوات. ارتسمت على ملامحها تعبيرات إحباط وأسي كأن ضاعت كل حظوظها في دنيا الحب وكتب عليها زواج مجرد من المشاعر، مجرد من الحياة، أليس لها حق في الحياة؟

ومر على خاطرها سؤال: لماذا لم تحب أو تُحب رغم أنها جميلة ومتعلمة ومن أصل كريم، كم كانت تتمنى أن تحيا الحب ولهفته وجنونه وروعته، ولكن ما زارها الحب وما طاف حولها حبيب.

وفي هذه اللحظة تذكرت سليم، وتذكرت كيف كانت نظراته تتبع سلمى طوال حفل الخطبة، هذا هو الحب، لا يمكن أن يخفيه العاشق، ستفضحه نظرات عينيه وهمسات شفتيه، حتى أنفاسه تبدو أنها تطوف حول حبيبته لتنعشها وتداعبها بلطف، ربما ظنت أنها سمعت دقات قلب سليم تنادي سلمى كلما ابتعدت ثواني، كم محظوظة سلمى بهذا العشق! وكم محظوظة بسليم، وبدأت تتذكر ملامحه وهيئته، تذكرت وسامته وأناقته ووقاره وشخصيته المتزنة الرزينة. رجل بكل معنى الكلمة، حينما ربطت بين مواقفه التي حكتها لها سلمى وهي مواقف عديدة والشخصية التي رأتها شعرت أنها أمام رجل مختلف يبدو من عالم آخر وزمن آخر، إنه كفارس الأحلام الذي يطل علينا في الأساطير، يختطف أميرته على جواد أبيض ويفعل المستحيل من أجلها، يعبر الوديان ويحارب الإنس والجان ليظفر بها، حقا إنه هذا الفارس، إنه أمير ألف ليلة وليلة، وسلمى أميرته.

ولكن ماذا عنها هي وخالد؟ عادت ملامح الأسى تحفر في وجهها من جديد، إنهما مجرد اثنين اتفقا على حياة مشتركة ورحلة مشتركة، مجرد خطيبين ثم مجرد زوجين مثل آلاف الأزواج الذين تزوجوا بنفس الأسلوب.

وبينما هي شاردة في أفكارها، إذا بخالد يتصل بها هاتفيًا، أمسكت هاتفها وعلي شفتيها ابتسامة كبيرة، وراودتها فكرة متفائلة أن ربما خالد يبحث عما تبحث عنه، عن الحب، فردت عليه بصوت فرح متفائل، وعرض عليها أن يخرجا غدًا سويًا في أي مكان تختاره، أخبرها أنه في حاجة أن يعرفها أكثر ويكتشف عالمها وتكتشف عالمه.

اتفقا على المكان والموعد واسترخت في فراشها وهي سعيدة، ونامت وقلبها وعقلها مشغول باللقاء.

واستيقظت مبتهجة مرحة تعد الساعات المتبقية على لقائهما.

وجاء الموعد وذهبت إليه في كامل أناقتها وعلى وجهها ابتسامة رقيقة مشتاقة لاستقبال نسائم العشق، واستقبلها بابتسامة أرق، وجلسا سويًا يتحدثان، ويبتسمان ويحكي كل منهما للآخر عن أيامه الماضية واكتشف كلاهما أنهما يعيشان نمط الحياة نفسه، كلاهما كان يصب كل وقته وعقله وجهده في دراسته وبناء مستقبله، وسألته باهتمام عن تجارب الحب السابقة فأجابها أنه لم تكن له أي تجارب سابقة، لا حب ولا حتى إعجاب، لم يعجب إلا بكتابه ومستقبله وانشغل بأحلامه عن كل شيء فسألته لماذا أنا من اخترتها للزواج؟ فأجابها إنه

يبحث عن زوجة ذات شخصية جادة طموحة، قوية، أخبرها أن هذا العصر من الصعب أن يصادف فتاة بلا تجارب وهو يثق أنه أول رجل في حياتها.

شعرت أنها أمام شخصية قوية جدًا جادة لأبعد حد، عقلانية، وربما لا يؤمن بالحب. فسألته بوضوح:

– هو أنا ينفع أسألك سؤال وتجاوبني بصراحة، إيه رأيك في الحب؟

– يعني إيه الحب؟ تفتكري الحب هو السهر للصبح والكلام الحلو؟ الحب هو إني أوفر للإنسانة اللي بحبها حياة هادية راقية، حتى اللي بيقولوا إنهم اتجوزوا عن حب بيحصل بينهم نفس مشاكل الناس اللي اتجوزت جواز صالونات زينا، تفتكري دا معناه إيه؟

– إيه؟

– إن كل اللي بيعيشوه قبل الجواز وهم، مجرد حالة اشتياق بتختفي لما يعيشوا في بيت واحد، الحب الحقيقي حب أهم وأقوى من حب الآهات والأغاني، الحب الحقيقي هو حب العشرة.

صمتت نجلاء وتجمدت ملامحها في نظرة مندهشة وحاجبين مرفوعين وشفاه معلق عليها كلمات بائسة تخشى أن تسقط منها فتنصهر كتلة الجليد التي تتباهى ببرودها وانعدام مشاعرها، فأدارت وجهها بعيدًا بينما هو ما زال يتحدث كأنه يثبت نظرية هندسية جديدة في مؤتمر علمي.

إلى أن انتبه أنها سرحت عنه بفكرها وعينيها وربما لم تعد تسمع كلامه فقال:

- هو كلامي ضايقك؟
- كنت متخيلة لما كلمتني إمبارح إنك عايز تقرب مني، عايز تعرفني، عايز تحبني وتخليني أحبك.
- أنا فعلا عايز أعرفك أكتر وأقرب لعقلك وتفكيرك، أنا معجب بيكي جدًا، ومتأكد إنك فهمتي كلامي، ومقتنعة بيه، جايز اتفاجئتي، لكن لما تفكري في كلامي، هتعرفي إن دا الحب مش الآهات وكلام الأغاني.
- إيه اللي يمنع إننا نحاول نعيش الحالة دي، أنا زي أي بنت عايزة أحب وأتحب.
- طبعًا مفيش أي مانع إننا نعيش حالة الحب، إنما أنا مش شاطر أوي في الكلام، صدقيني هتحسي حبي ليكي في اهتمامي ومعاملتي، إنما الكلام ده مش مقياس للحب لأنه أسهل منه مفيش.
- عندك حق.

*****

استيقظت زينة في موعدها المعتاد وأعدت طعام الإفطار لزوجها قبل نزوله إلى الجامعة ودخلت إليه لتوقظه، وهمست في أذنه بصوت رقيق كما اعتادت ولكنه مستغرق في نومه، فبدأت تناديه بصوت أعلى وتداعب شعره بيدها برفق ولكنه ما زال مستغرقًا في نومه، فارتابت من سكونه وهذا النوم العميق، فبدأت تهز

جسده وتناديه بصوت مرتفع وما زال كما هو بلا حراك، فارتعشت يدها وانحبس صوتها وخيل إليها أنه لا يتنفس، فوضعت رأسها على صدره تسمع نبضات قلبه، فسمعت دقات خافتة غير منتظمة، إنه ما زال حيًا ولكنه غير واعٍ، فاقد الوعي، إنه في غيبوبة، وأصيبت هي أيضًا بحالة من البكاء والفزع والاضطراب، ولثوانٍ معدودة شل تفكيرها ولكن سرعان ما استعادت خيوط تفكيرها المبعثرة، فطلبت الإسعاف فورًا واتصلت بسليم ليكون معها وهي ما زالت تحاول أن ترد كمال إلى وعيه ولكنه لا يستجيب.

نُقل كمال إلى المستشفى، وزينة منهارة من الخوف والفزع والبكاء وبداخلها شعور مقبض بأنه ربما لا ينجو، وإلى جوارها سليم يحاول تهدئتها.

والوقت يمر ثقيل والمريض في العناية المركزة والأطباء يحاولون إنقاذه من جلطة في المخ وكل المضاعفات واردة، تواصلت زينة مع ابنه وأخبرته بحالة والده ولكن الابن لا يستطيع الحضور فورًا، ظروف عمله تمنعه من العودة إلى القاهرة في الوقت الراهن. وبقيت زينة مع أخيها في دوامة من القلق والرجاء وليس أمامهما إلا الصبر والدعاء.

ومر أسبوع وما زال كمال في الغيبوبة. الأطباء يتابعون ويترقبون حالته وما زال الخطر قائمًا. وجاء مراد لزيارة أستاذه بالمستشفى وأدرك أن الحالة خطيرة. وكان هذا سببًا كافيًا ليكرر زيارته يوميًا للاطمئنان على أستاذه، وزينة أرهقها السهر

والقلق وشعرت أنها كبرت في هذه الأيام عمرًا فوق عمرها ولا تدري لو أن سليم ليس إلى جوارها كيف كانت ستصمد في هذا الاختبار العسير.

وتتوالى الأيام، والزائرون يوميًا يترددون، يأتون ويرحلون ويعودون ولا جديد، كانت سلمى تذهب مع ووالدتها إلى المستشفى يوميًا، أما محمود كان يتردد أيضًا يوميًا في زيارة قصيرة، حتى داليا كانت تزور زينة بانتظام، ولكنها كانت تتأكد من سلمى أن محمود ليس هناك، ولم يتخلف زياد عن أداء الواجب، زار زينة مرتين على استحياء مجاملة لسليم ورغم أنه في الحقيقة يريد أن يرى زينة، يريد أن يكون إلى جوارها إلا أنه لم يكثر من تردده على المستشفى، إنه لا يريد أن يشعل مشاعره نحوها من جديد بعد أن أطفأ ضياءها، كما أن متابعة المطعم القديم والجديد وبعض الأعمال الأخرى المشتركة بينه وبين سليم صارت كلها عليه بعدما تفرغ سليم للبقاء مع زينة في أزمتها.

الجميع يترقب ويدعو الله أن تمر الأزمة على خير. الأمل في عيون وقلوب الجميع. وزينة ترجو الله كل ثانية أن ينقذ زوجها، ما يحدث يمر عليها كأنه كابوس مزعج طويل لا تعرف كيف تفيق منه، لكن ليس أمامها إلا الدعاء.

وبعد خمسة عشر يوما من اللاوعي، استرد كمال وعيه ولكن لم يسترد صحته، أصيب بشلل نصفي وأصبح قعيدًا، حبيس كرسي متحرك.

ورغم أن الأطباء أخبروا زينة بأنه ربما يكون هناك مضاعفات بعد أن يفيق وذكروا لها بعضها، إلا أنها لما وجدت المضاعفات حقيقة وحياة عليها أن تعيشها معه، شل تفكيرها وانتابتها حالة من الصدمة والبكاء، لا تصدق أن كمال الذي تشعر أنه أكثر منها شبابًا وحيوية أصبح سجينًا قعيدًا على كرسي متحرك. إنها حقيقة مريرة عليها أن تتقبلها وتتعايش معها بل عليها أن تضع للأزمة بعض المقبلات كي يلتهم زوجها المصيبة دون استياء. احتضنها سليم بحنان وكأنه يريد أن يحمل عنها مصيبتها وارتاحت في حضنه كأنها تحتمي به من كل القادم. غمرها بدقائق حانية وجلس يحدثها حديثًا طويلًا وقادها دون أن تدري إلى طريق الرضا بقضاء الله وقدره فهدأت، تركت كل مصيرها ومصير زوجها بين يدي الله واثقة في كرمه ورحمته. خبأت دموعها ولملمت أوجاعها ودخلت إلى زوجها وعلى وجهها ابتسامة راضية، وفي عينيها نظرة حانية، فهو يحتاج الآن إلى حنانها وابتسامتها أكثر من أي وقت مضى.

*****

الفصل الخامس

انطلقت داليا في حياتها بحرية وكأنها أغلقت صفحتها مع محمود بلا رجعة، التحقت بالعمل في إحدى الشركات وساعدها في ذلك خالها الذي أراد أن يمنحها حياة مختلفة لتهدأ وتستقر نفسيًا وتخرج من أزمتها لعل ذلك يمنحها الفرصة لإعادة التفكير في مشكلتها مع محمود من منظور مختلف ويجعلها تخرج بقرارات جديدة، لقد كان خالها يعتبر نفسه مسئولًا عنها مع والدتها، خاصة أن والدها متوفى منذ أن كانت طالبة في الثانوية العامة، ولقد سعدت داليا كثيرًا بهذا الحل الذي وفره لها خالها، أرادت أن تنشغل عن مشكلتها العائلية بحياة عملية، ربما تجد سعادتها الضائعة وفي ذات الوقت تناست محمود وتناست أنه زوجها، لم تبلغه بنزولها للعمل، لم ترد على أي اتصال منه منذ آخر مكالمة بينهما يوم زيارته لها في منزل عائلتها. لم تحاول حتى أن تضغط عليه في قرار الطلاق، رأت أن الضغط سيدفعه إلى عناد أكبر، إنما عليها أن تتجاهله إلى أن يمل ويثور لكرامته فيطلقها. ربما يطول الوقت، ولكنه سيستجيب حتما لقرارها ويخضع للنهاية المحتومة (الطلاق) إن طال تجاهلها له، إنها تعرفه جيدًا، ستجعله يطلقها وهو يظن أنه ينتقم منها بهذا القرار ولكن في الحقيقة هي تنتظر تلك اللحظة. لحظة عظيمة ستعود فيها للحياة وتتحرر من وهم حب أرهقها سنوات وأسعدها أيام.

عادت من عملها سعيدة ودخلت المنزل وهي تنادي والدتها بحماس وتطالبها بالغداء، إنها حقًا جائعة وتشعر أنها تشتهي الطعام والخروج والضحك كأنها تعانق الأيام بعد شوق فائض وحرمان طويل.

أيام بائسة ضاعت منها وهي تحرق عمرها في غيرتها على رجل لا يرحمها، إنها ترى كل الحياة بنظرة أخرى، وفي غمرة هذا المزاج المرح تفاجأت بزوجها جالس أمامها وأمها جالسة معه في غرفة استقبال الضيوف، انقلبت ملامحها وعبس وجهها كأنها رأت ما لا تطيق، ما زاد ضيق زوجها فسألها باستياء وضيق وهو جالس في غرور:

- إنتي إزاي تشتغلي من غير ما أعرف؟

- وتعرف ليه؟

- أعرف ليه؟ هو إنتي نسيتي إنك مراتي؟

- لا مانسيتش، إنما اتفقنا على الطلاق، وأنا سيبتك لما تستوعب إحنا وصلنا لإيه وتطلقني.

- أنا ماتفقتش على حاجة يا هانم، اتفضلي هاتي حاجتك عشان ترجعي بيتك.

- هنا بيتي، اللي بينا خلص.

- أنا مش هطلقك واتفضلي نرجع بيتنا نتكلم ونتناقش.

– لا يا محمود، انتهينا.

فقام من مقعده ووقف أمامها وفي عينيه نظره تكاد تحرقها وقال بصوت منفعل:

– أنا صبري نفد، اسمعي الكلام.

فقالت بانفعال أشد وكل ما فيها منفعل، عيناها، شفتاها، صوتها، جسدها كله في حالة من الانفعال أقرب إلى التشنج، قالت بصوت أقرب إلى الصراخ:

– هو إيه هتعيش معايا بالعافية، قولت مش عايزاك، ولو مش هتطلقني هخلعك.

فلطمها بعنف على خديها وانصرف قاذفًا خلفه الباب، وجلست هي تبكي بانهيار، لأول مرة يفعلها وهي آخر مرة كذلك، لأنه لم يصفعها هي فقط لقد صفع كل ما بينهما، ولطماته هوت على مشاعر سنوات فسقطت صريعة بين أصابع يده الباطشة، انتهى كل شيء، لقد سعت إلى النهاية، وأرادت النهاية وما زال في قلبها اسمه وحبه ولكن كرامتها وكبرياءها أصبحا أقوى من مشاعرها، اهتز بنيان المشاعر في أعماق القلب وانهار الهوى وما بقى إلا حطام بيت عشقها، لا بد أن هذا الدمار سيؤلمها فترة ولكن يومًا ما ستهجر الآلام قلبها، انهمرت في البكاء فلا بد أن تطلق كل ما بداخلها من سموم بعد معركة الحب والكرامة المشتعلة في قلبها وروحها وعقلها على مدى سنوات، إنها ليست كأي دموع سابقة إنها دموع تحتاجها كي تتنفس، إنها نزيف عينيها كنزيف قلبها الذي

لا يراه أحد، وبكت بحرقة، بكت طويلًا ساعات بلا توقف، أهي تبكي على وجهها المكفهر من الضرب أم على حياتها معه أم حزنًا على نفسها أم حزنًا عليه؟

لا تعرف، كل ما تعرفه أن في قلبها ألم لا يوصف بكلمات ولا تكفيه أدمع، ولكنها تحتاج لهذا البكاء، إنه جزء أصيل في خطتها لعلاج جراحها، تلك الدموع من لهيب جراحها وخيبة أملها في حب ظنت أنه منتهى السعادة ومنتهى الأمل، فكان منتهى العذاب ومنتهى اليأس، ستبكي إلى أن تجف دموعها، إلى أن تملها، إلى أن تشفق على عينيها وروحها من البكاء، عندها ستعلم أن الجرح عرف طريقه إلى الشفاء.

*****

فاجأ عبد العزيز ابنته بالهدية التي طالما انتظرتها، اليوم حقق حلمها وأهدى لها سيارة، ولم تصدق سلمى عينيها وانطلقت بالسيارة تجوب الشوارع وتحتفل بهذه الهدية الرائعة، مضت ساعات وهي تتجول بسيارتها ثم عادت إلى البيت وهي في حالة مزاجية رائعة، ولكن استقبلت اتصالًا هاتفيًا من صديقتها نجلاء يبدو أنها ليست على ما يرام، طلبت نجلاء من صديقتها أن تقابلها ولكن سلمى أكدت لها أنها لا تستطيع النزول الآن، وإن كانت تريد مقابلتها فعليها أن تزورها في المنزل، وبعد ساعة واحدة جاءت نجلاء شاحبة الوجه مرهقة، حزينة، فأخذتها سلمى إلى حجرتها لتتحدثا سويًا على انفراد.

بكت نجلاء وقالت:

– أنا مش قادرة أحب خالد ولا هحبه أبدًا، إنسان بارد، آلة بتتحرك وتتكلم، عملي بشكل بشع.

– يعني إيه هتفسخي الخطوبة.

– لا، مش عايزة أفسخ الخطوبة.

– أنا مش فاهمة حاجة خالص.

– مش يمكن لو سيبته أندم، هو نظريًا كويس ومستواه المادي كويس.

– طب هتعيشي إزاي مع إنسان مش بتحبيه ولا متقبلة طباعه.

– عادي، زي ما كل الناس عايشة.

– طب خلاص، طالما واخدة قرار إنك تكملي معاه، الدموع دي ليه؟

– كان نفسي أحب وأتحب، أنا صعبان عليًّا نفسي أوي، هو أنا وحشة يا سلمى؟

– ليه بتقولي كده، إنتي جميلة جدًا.

– ليه ماحدش بيحبني؟

– أكيد خالد بيحبك، إنما هو عملي، المهم أفعاله تكون كويسة، بيهتم بيكي بيراعي شعورك، مش لازم يقولك بحبك ٢٤ ساعة.

– هو تقليدي، عادي، بصراحة شخص ممل أوي بس هتجوزه، أهو أحسن من لقب عانس.

– أنا رأيي لو مش قادرة تحبيه وتقبلي شخصيته يبقى إنهي الخطوبة، وإن شاء الله تقابلي الإنسان المناسب.

– لو ملاقيتش هندم.

– إنتي ناقصك إيه، إنتي ليه مش شايفة نفسك ولا حاسة بقيمتك.

– بالعكس أنا شايفة نفسي وشايفة المجتمع كله، مش كل يوم هلاقي شاب محترم ومتعلم وفي مكانة اجتماعية كويسة زي خالد.

– طيب خلاص حبيه طالما إنتي شايف إنه عريس لُقطة.

– بحاول بس هو عملي، بارد، جاف، مش مقتنع إن في حاجة اسمها حب أصلًا.

– جننتيني معاكي.

– أنا همشي بقا، أنا كنت مخنوقة ومحتاجة أتكلم مش أكتر، إنما أنا كمان مقتنعة إن صوت العقل لازم يبقى أعلى عشان الحياة تمشي صح، وعقلي بيقولي أكمل مع خالد.

وغادرت نجلاء وفي عقلها ضوضاء كثيرة وأصوات مزعجة وأفكار متضاربة وأمام عينيها ضباب كثيف يحجب عنها رؤية مستقبلها، وقادت سيارتها وهي لا ترى طريقها بل ترى ذاك الضباب الكثيف الذي يشوه أيامها ويكتم أنفاسها، قادت بفكر شارد مشتت وانتبهت على صراخ مزعج، فتوقفت وبدأت تستجمع كل تركيزها، ونزلت من سيارتها وهي مرتبكة وأمامها شاب شديد السمرة، نحيل الجسد، منفعل، يصرخ في وجهها بعنف وفي عينيه نظرات تكاد تحرقها، فسألته متلعثمة:

– مش حضرتك بخير، ليه كل الانفعال ده؟

– أنا بخير، لكن اللوحتين اللي برسم فيهم من شهور ادَّاسوا، راحوا، يا ريتني أنا اللي انداست.

– أنا آسفة، أهم حاجة إنك كويس.

– تاني بتقولي كويس، ما هو اللي زيك مايفهمش الحاجات دي. تعرفي إيه إنتي عن معاناة الفنان وإنتي ماشية تدوسي الخلق بعربيتك.

فنظرت إليه باستفزاز، وقالت في نفور:

- إنت زودتها خالص، ميصحش كده، بقولك إيه، هات من الآخر وقولي عايز كام تعويض عن فنك العظيم.

فنظر إليها بسخط واشمئزاز وابتسم بسخرية وقال:

- فلوس؟

ثم أدار ظهره لها وسار مبتعدًا تاركًا فنه على الطريق تتقاذفه السيارات، بينما عادت نجلاء تقود سيارتها وهي تفكر في هذا الشاب ووجدت نفسها تبحث عنه بين السائرين، فرأته يسير شاردًا كأنما فقد كنزًا ثمينًا، ثم غاب عنها في الزحام، واستكملت طريق عودتها إلى المنزل وصورته عالقة في زحام أفكارها، ووجهه يشق الضباب الكثيف الذي يحاصرها، لا تعرف لماذا، ولكن هذه الملامح لا تمر مرور الكرام، رغم أنه ليس وسيمًا ولكن في عيونه السوداء وبشرته شديدة السمرة وأنفه الذي يملأ نصف وجهه شيء من الغموض، شيء من العذاب، ربما شيء من الجاذبية، فكل ما هو غامض جذاب.

عادت إلى منزلها مرهقة، منهكة، فاستلقت على فراشها، فليس أمامها إلا النوم، إنه المهرب الآمن من كل معاناتها.

*****

اختلفت حياة زينة مع كمال اختلافًا تامًا وكأنها عادت من المستشفى مع رجل غريب عنها، غابت صحته وانقلبت شخصيته إلى شخص جديد، لا تعرف له توصيفًا ولا تعرف كيف تتعامل معه؟ لا يرضيه حنانها ولا يرضيه كلامها ولا صمتها، كل ما تفعل يثير انفعاله، أحيانًا تشعر أنه يثور لمجرد رؤيتها أمامه، إن

بالغت في اهتمامها به يغضب ويذكرها أنه ليس طفلًا صغيرًا لكل هذا التدليل، وإن لمح في عينيها حزنًا يغضب ويطالبها بتأجيل الحزن إلى يوم وفاته، وإن ابتسمت يغضب أكثر وأكثر ولا تدري كيف يفسر ابتسامتها؟ وهي في الحقيقة ليست إلا ابتسامة باهتة، ابتسامة من قلب اليأس والألم بلا روح بلا معنى، ربما تبتسم فقط لمجرد أن وجهها يريد أن يجرب الابتسامة خشية أن تنطبع علامات الحزن عليه فلا ترحل وتبقى بصمات وتجاعيد مزمنة وهي في عمر الزهور، ربما تداري بها حزنها، ربما تطبطب على نفسها بابتسامتها وتواسي شبابها ولكنها لا تفهم لماذا تغضبه ابتسامتها الميتة وتثير أسئلته واهتمامه وهي نفسها ليس عندها إجابة لأسئلته، أما الهاتف صار عدوه اللدود، إن تصفحت عليه شيئا ثار أو تكلمت مع أحد ثار أكثر، هو ثائر دائمًا حتى في نومه يفيق منه على كابوس مزعج، إنه لا يهدأ، يثور عليها ثم يختلي بنفسه ساعات، يتحدث مع ابنه يوميًا حديثًا سريًا للغاية، لا ينطق أمامها كلمة وهي لا تسأله عما يتحدثان، أصبح يعتمد على خادمه في كل احتياجاته وكأنه يخجل أن يطلب منها شيئًا، وبعد أقل من شهر بعد خروجه من المستشفى طلب منها أن تنام في غرفة منفصلة بحجة أن نومه أصبح مزعجًا ممتلئًا بالأحلام الرهيبة التي توقظه في حالة سيئة، حاولت أن تتمسك بأن تكون إلى جواره ولكن ذلك أثار غضبه وانفعاله واتهمها أنها لم تعد تهتم برغبته ولا تطيع أوامره، فاضطرت أن تنفي عن نفسها التهمة واستجابت لطلبه، وأصبحت غريبة في بيتها وحيدة وهو معها وإلى جوارها، إنهما في بيت واحد ولكن لكل منهما عالم خاص، هو يزحف وحيدًا على رمال

أحزانه في صحراء يأسه القاحلة ويواسي نفسه بصوت ابنه، بينما هي تحيا بين أطلال ذكرياتها معه.

إن كمال يبعدها عنه ويسجنها في محيط أحزانه، فلا هي قريبة منه ولا بعيدة عنه، إنها معلقة في نار عذابه ومرضه بحبل متين، فلا هي راضية ولا مرضي عنها. ما عادت تدري أين تحيا؟

كان سليم يتواصل معها يوميا ويطالبها بالصبر ويؤكد لها أن كمال بعدما يستوعب صدمته سيعود إلى طبيعته الحانية، كان يواسيها بكلماته الرقيقة المتفائلة ويرسم على ملامحها ابتسامة هادئة، مجرد أن تسمع صوته كان هذا سببًا كافيًا أن تبتسم، هكذا دائمًا سليم يردها إلى الحياة بحنان قلبه الطيب واهتمامه المفرط.

كان مراد يحادثها هاتفيًا بين الحين والآخر للاطمئنان على صحة أستاذه ومع تكرار المكالمات بدأت تتساءل لماذا لا يتواصل مع كمال مباشرة؟ وبدأت تشك في اهتمامه ومكالماته رغم أنه لا يتحدث فيها إلا عن الأستاذ ولكن في قلب زينة شعور قلق من محادثاته رغم قصرها، ورغم أنها دائمًا في إطار رسمي بدون أي تجاوز، وزاد شكها حينما رأت في عيني كمال ضيقًا لا يعبر عنه إلا بنظرات عينيه كلما أبلغته بسؤال مراد عنه، ضيق لا يعقبه كلمات ولا ثناء ولا اعتراض، فقط نظرات منزعجة مبتورة تلمح خلفها كلمات مكتومة لا يريد أن ينطقها وأدركت أن زوجها يغار من مراد، ولكن كمال صار يغار من كل شيء، يغار

من هاتفها، يغار من مرآتها، إنه لا يريدها أن تكلم أحدًا ولا أن ترى أحدًا ولا أن تهتم بأحد ولا حتى نفسها، اهتمامها العادي بشكلها يغضبه ويثير غيرته، وهو في كل هذا ليس على صواب، فلماذا يكون على صواب في غيرته من مراد؟ واحتارت في أمر زوجها واحتارت في أمر مراد، وهي ليست لديها أي طاقة لأي قلق أو توتر أو حيرة جديدة، يكفيها ما فيها.

فبدأت تتجاهل مكالماته لعله يكف عن السؤال أو يتواصل مع أستاذه بشكل مباشر، إن هذا هو أسلم الحلول وأفضلها، فهي لا يجب أن تثير غيرة زوجها ولا أن تضع نفسها في مواضع الشك أبدًا، إنها زوجة في ظروف خاصة جدا ليس أمامها إلا أن تراعيها.

*****

أتم سليم تشطيبات شقة والده، أعاد لها الحياة، قام بطلاء الجدران وتجديد بعض الأثاث، وأصلح التلفيات وأضفى عليها العديد من الجماليات، وزين جدران الغرف بلوحات فنية راقية، وجعل لصور والده بروازًا مميزًا في كل غرفة، وفي ذات الوقت تخلص من كل شيء يخص أمه في هذه الشقة، لم يبقَ لها على أي شيء، إنه يمحوها من المكان بكل إرادته، وكم يتمنى لو يمحو اسمها من شهادة ميلاده، فهي الجانب المظلم في روحه، والجزء البائس في أيامه، وأصبحت الشقة جاهزة للسكن في أي وقت، لا يدري لماذا فعل ذلك ولكن بداخله رغبة

قوية أن تدب الحياة في هذه الشقة المهجورة ومنح أخته نسخة من مفتاح الشقة، وفي ذات الوقت اشترى شقة أخرى مميزة باسمه لتكون عش الزوجية مع حبيبته.

وكذلك استكمل استعداداته لافتتاح صيدلية كبرى تحمل اسمه حتى يحافظ على صلة بينه وبين دراسته، ربما لم تكن دراسة الصيدلة حلمه أو رغبته ولكنها كانت قراره، كان لا بد أن يدرس دراسة علمية كي يرضى عنه عمه، لقد كان عمه يحب كليات الطب وكان يتمنى أن يدخل محمود كلية الطب، ولكن محمود خذله والتحق بالكاد بكلية التجارة، فوضع عمه كل طموحه في سلمى وأصبح إلزامًا عليها أن تحقق أمل والدها وتلتحق بكلية من كليات القمة، وهو يعلم ذلك منذ صغره، لهذا أصر أن يحقق حلم عمه وأن يسلك نفس الطريق الذي رسمه عمه عبد العزيز لسلمى.

التحق بكلية الصيدلة وهو يعلم جيدًا أن سلمى يوما ما ستلتحق بكلية عملية، ربما طب ربما صيدلة ربما أسنان، وتحقق توقعه فهي متفوقة ومجتهدة منذ صغرها على عكس محمود.

وقرر سليم أن يفاتح عمه فيما فاتحه فيه سابقًا مرارًا وتكرارًا، ولكن بقي الأمر مؤجلًا بأعذار يراها سليم غير مقنعة ويراها العم أعذارًا قوية، إنه حلم العمر، حلم زواجه من سلمى.

لقد طلب سليم من عمه أن يعلن خطبته على سلمى منذ نجاحها في الثانوية العامة بتفوق ولكن العم طلب منه يؤجل هذا لحين انتهاء دراستها بالجامعة حتى لا تنشغل به عن دراستها، وطلب منه ألا يفصح عن اتفاقهما لأي مخلوق حتى سلمى ولا الأم بثينة، وكما هي عادة سليم يطيع أوامر عمه بلا نقاش، وفي العام النهائي من الكلية طلب سليم من عمه أن يعلن خطبته على سلمى وقد أوشكت على إنهاء الدراسة ولا يتبقى إلا شهور قليلة، ولكن العم أصر على التأجيل إلى أن تتخرج سلمى وتتسلم عملها، وألزمه العم أن يبقى ما بينهما من اتفاق سرًا على الجميع، أخذ العم منه وعدًا غليظًا منذ أول مرة صرح فيها له بحبه الكبير لسلمى ألا يعامل سلمى إلا كأخت وأن يخفي مشاعره نحوها عن الجميع، أخبره أنه يثق به ثقة عمياء وعليه ألا يخذله، وبالفعل التزم سليم نصيًا بكل كلمة وكل حرف طلبه عمه، رغم عدم اقتناعه، ولكن هو يحب عمه إلى درجة التعلق الشديد به، ربما يلغي عقله أمامه، فهو الأب والمعلم والقدوة والمثل الأعلى، هو له كل شيء.

وكيف لا يراه كذلك بعد كل ما قدمه له ولأخته من حب وتضحية وحنان، لم يشعر أبدًا أنه يتيم في حضن عمه عبد العزيز، لقد كان أبًا حقيقيًا، يخاف عليه ويحمل همه ويتألم معه إذا مرض ويتوجع معه إذا تعب ولا ينام يوم نتيجة امتحاناته، إنه أب بمعنى الكلمة، وكذلك كان عمه عبد العزيز شديد الإخلاص لذكرى أخيه الراحل صبري، كان لا يكف دائمًا عن وصف صبري بأجمل

الأوصاف لسليم، حتى رسم في ذهن سليم وعقله صورة عن والده أنه أقرب إلى الملائكة منه إلى البشر، لهذا رحل سريعًا، الملائكة ليس مكانهم الأرض بل مكانهم السماء، كان عبد العزيز لا يكف عن وصف أخلاق صبري وصفاته الحسنة والتزامه بالعبادات ومواقفه التي يبدو فيها فارسًا شجاعًا، ويستفيض في وصف رقته في التعامل مع الفقراء، وعطفه على البسطاء.

وكان عبد العزيز يسرح كثيرًا ويحكي لسليم عما كان سيفعل صبري له ولأخته لو من الله عليه بعمر أطول.

وعلم عبد العزيز ابن أخيه سليم أهمية الزيارة المقدسة، زيارة قبر والده، فكان يصطحبه كثيرًا في زيارات منتظمة لقبر صبري، حتى أصبحت هذه عادة سليم التي إن لم يفعلها يشعر أنه قصر وأذنب ذنبًا كبيرًا، حتى لما كبر عبد العزيز في السن وأصبح يتخلف عن زيارة قبر أخيه، كان سليم يذهب بانتظام لتلك الزيارة المقدسة، زيارة قبر والده. ولا يتذكر أبدًا سليم مرة واحدة زار فيها عمه عبد العزيز قبر أخيه الأصغر صبري إلا وبكاه بحرقه، بدموع كثيرة كأنه مات منذ ساعات، يبكي وكل كيانه يبكي ويحكي له ما يفعل في أيامه كأن صبري واقف أمامه ثم يسأله في نهاية الزيارة باستجداء ورجاء وحزن عميق:

- يا ترى راضي عني وعن اللي بأعمله.

هكذا كان يحب عبد العزيز أخاه الأصغر صبري، وهكذا أحب سليم وزينة حبًا لا يضاهيه حب، ولا يظن سليم أن يوجد على الأرض كلها من هو في إخلاص عمه ووفائه لأخيه الراحل.

والآن انتهت كل أسباب عمه لتأجيل زواجه من سلمى، فقرر أن يفاتحه، خاصة وأنه على وشك افتتاح الصيدلية، حتى لا يضع عدم عمله بتخصصه عائقًا جديدًا يستلزم انتظارًا جديدًا، فما عاد يطيق انتظارًا آخر، إنه يريد أن يقول للعالم كله إنها حبيبته. ومن غيرها حبيبته؟ إنها أحلى أحلامه وكل آماله، وعشقه الذي يزداد يومًا بعد يوم. إنها الحب كله والسعادة كلها، وهل يعقل أن يؤجل الحب؟ أو أن يبخل عليه عمه بالسعادة؟

*****

الفصل السادس

لم يبقَ أمام محمود إلا طريق واحد، طريق الخيانة، سيخونها بكل مشاعره، بكل عواطفه، بكل أحاسيسه، سيفتح قلبه لغيرها، سيهب حنانه وحبه ومشاعره وحياته لغيرها، إنها خانته قبل أن يخونها، حينما تخلت عنه وتركت حبيبها للهوه وعبثه يضيع بين الفاتنات العابثات الضائعات، خانته حينما لم تستوعب المجنون الطائش الذي بداخله وتركته لطيشه، وقررت أن تنسحب من حياته وتحيا بدونه، اليوم قرر أن يحيا بدونها، لن يحيا فقط بل سيسعد، سيعرف كيف يغزل ثوب السعادة بدونها ويلونه بلون الحب، فالقلب يعرف كيف يحب مرات ومرات ويعرف كيف يستبدل دماء عشقه القديمة بدماء جديدة تملأ الروح حيوية وسعادة، إن كانت تظن أنها احتكرت سعادته وابتسامته ومشاعره للأبد فهي واهمة.

كانت تغضبها محادثات تافهة وكلمات ساذجة يكتبها بأطراف أصابعه لا تنبع من قلبه، وعلى شفتيه ابتسامة تستخف بتلك البلهاء الساذجة التي تصدق ما يكتب، وابتسامة ناقمة تحتقر تلك الزوجة الخائنة التي تبحث عنده عما ينقصها في حياتها، كان يغضبها مجرد عبث ولهو ومزاح ليس له قيمة بالنسبة له إلا أنه يرضي غرور الرجل بداخله، لعب وتسلية يلعبها كل الرجال ولكنها لا تفهم وترفض أن تفهم، تملأ رأسها بشعارات بلهاء عن المرأة وحقوق المرأة ونسيت

أن أول حقوق المرأة أن تحافظ على بيتها وحياتها، استجابت لشعارات تافهة ومبادئ فارغة ترفعها مجموعة من الفاشلات الحاقدات على كل زوجة مستقرة واعية مستوعبة عيوب زوجها، فلتسمع لهن وتسير خلفهن إلى الهاوية، إن يغضبها العبث، اليوم سيتحول العبث إلى جد، لقد قرر أن يرتبط بأخرى. أي أخرى، المهم أن ينتقم لكبريائه الجريح بتجاهلها وعنادها، لابد أن تعلم أن ما تفعله يذبحها هي أولًا. ولكن كيف يرتبط بأي أخرى، لابد أن تكون الأخرى في جمال داليا وأخلاقها حتى تحترق ندمًا وتشتعل ألمًا وتدرك أنها أهدت كنزها الثمين إلى أخرى بسذاجة وغباء. قالها لنفسه وفي قلبه ثورة لا تقبل التأجيل:

- لقد آن وقت العقاب، زوجتي العزيزة.

ولم يطل التفكير، في اليوم التالي فاتح نورهان زميلته في العمل بأنه يرغب في الزواج منها، إنها أجمل محاسبة في الشركة خريجة حديثًا، تتعلق بها كل العيون حينما تدخل الشركة، رشيقة القوام معتدلة القامة شعرها البني الناعم يتناغم مع عيونها العسلية وشفتيها الممتلئتين وأنفها الدقيق يتم لوحة الجمال الربانية في أحلى صورها، تبدو آية في الجمال والأخلاق، ومن عائلة طيبة، شديدة الانضباط في تعاملها مع كل الزملاء، فلن يقترب منها إلا من يريد الزواج، فاتحها وهو واثق من نفسه، طلب يدها وهو مزهو بوسامته، متباهٍ بنفسه، بينما هي استقبلت طلبه باندهاش مفرط وأخبرته أنها تعلم أنه متزوج، فأكد لها أن موضوع زواجه الأول فشل، وسيبدأ في إجراءات الطلاق، كان يحملق في وجهها

الجميل وهو متلهف لاستماع رأيها وكأنه يريد أن يتمم كل شيء الآن، ولكنها قالت ببرود:

- أنا ماحبش أتجوز راجل سبق له الجواز، أفضل أرتبط بإنسان أكون أول حب في حياته.

-

فقال بغرور:

- تفتكري إنه اللي متجوزش قبل كده، معناها إنه ماحبش قبل كده؟

اندهشت من سؤاله وصمتت دقائق ثم قالت:

- حتى لو كان حب قبل كده، الحب حاجة والجواز حاجة.

- ساعات بيبقى الإنسان مرتبط عاطفيًا بحبيبته أكثر من مراته، هعتبر إني لسه ماسمعتش رأيك، فكري بهدوء.

تركها وعلى شفتيه ابتسامة هادئة واثقة مرحة، كأنه متأكد أنها ستقبل الزواج منه، بل بدأت أفكار تراوده أنها لن تنام الليلة من التفكير، ستقضي ليلتها في فراشها تتقلب على جنبيها تعيد كلماته وتفتش فيها وتتذكر نظراته وتتأمل فيها وستأتي له قريبًا بكلام مختلف، كان يثق في قدرته على التأثير على بنات حواء، إنها موهبته التي لا ينافسه فيها أحد، إنها موهبة خاصة يمتلكها قليل من الرجال المميزين. هكذا كان يرى نفسه، ويثق في جاذبيته ثقة عمياء.

وبعد ثلاثة أيام سألها وعلى وجهه ابتسامة هادئة:

- عايز نزوركم في البيت يا نورهان.

تزورنا إيه يا محمود أنا قولتلك إني مش هفكر في واحد متجوز.

- اتفقنا، يعني تمام لو مطلق؟
- معرفش، معرفش.
- نورهان، أنا بحبك، ومفيش حد ممكن يسعدك زيي.

تركها وهي تفكر في جرأته وثقته بنفسه، هل حقًا هو زوج مناسب وإن كان كذلك لماذا فشل في ارتباطه الأول، هل زوجته هي سبب هذا الفشل؟

ثم صرخ عقلها: كل الرجال يقولون هذا، ولكن شيئًا ما في قلبها يسألها التحري، يسألها أن تمنحه الفرصة، إنه شاب وسيم أنيق، ناجح في عمله من أسرة طيبة، لا يعيبه إلا أنه سبق له الزواج، فسألت نفسها بهدوء:

ما العيب؟ ألا ننتقد المجتمع الذي يقهر المرأة المطلقة ويحيطها بهالة من التحفظ والنقصان، فلماذا تعامل محمود بنفس هذا التحفظ والنقصان وكأنه ارتكب خطيئة كبرى رغم أنه تزوج وطلق في الحلال ولم يخالف الشرع في شيء.

عادت إلى المنزل لتجد باقة من الزهور مبهرة مهداة منه لها، وكأنه يعزف على أوتار الرومانسية في قلبها ويوقظها بالإجبار، ففاتحت والدتها ورأت في عينيها

انزعاجًا وذعرًا كأنها أخبرتها بمصيبة، ونصحتها أمها ألا ترتبط بمطلق أبدًا وراحت الأم تتغزل في جمال ابنتها الوحيدة، إنها لا ينقصها شيئًا كي تتزوج من رجل ذاق الزواج وعاش مع امرأة قبلها. استفاضت الأم في شرح خطورة هذه التجربة، إنه غالبًا سيقارن بينها وبين زوجته الأولى، وقد ينتقم من زوجته الأولى في شخصها، قد يكون ما زال عاشقًا لزوجته أو طليقته كما يقول، ولا يريد الزواج إلا كيدًا في مطلقته، استفاضت الأم وأجادت في توضيح وجهة نظرها، وما تركت ابنتها إلا وهي مقتنعة بكل حديثها، إن الأم حجتها قوية وأفكارها راجحة تختزل كل خبرات السنين في كلمات غاية في الدقة ومدهشة في الإقناع.

*****

جاءتها رسالة هاتفية منه، رسالة فارغة لا تحوي أي كلمات، مجرد سطور من علامات استفهام.

رأت زينة الرسالة وامتلأت رأسها بعلامات الاستفهام، ماذا يقصد؟ ماذا يريد؟ لقد انقطعت اتصالاته منذ أن تجاهلتها، لقد أدرك سريعًا أنها لا تريد أن ترد عليه، وكف عن الاتصال بها وعن السؤال عن أستاذه، ما الذي ذكره بها الآن، وعما يستفسر؟ وماذا يقصد بسطور من علامات الاستفهام، وسرحت قليلًا في حياتها، إن أيامها صارت أسئلة مجهولة الإجابة، حياتها صارت علامة استفهام كبيرة، من هي الآن؟ ماذا تبقى لها من كمال؟ وماذا تبقى لها من حبهما الكبير؟

تغير كمال كثيرًا، والعجز والشلل أصاب كل شيء في حياته، الشلل ليس في ساقيه فقط، إن كان الشلل أرغمه على التقيد بكرسي متحرك، ومنعه من الحركة، فهو منع نفسه بإرادته عن الكلام، عن الناس، عن الضحك، اعتزل في غرفته على كرسيه عن العالم، ربما اكتفى بنفسه وصوت ابنه القادم من بلاد الغرب عن الجميع، حاولت أن تمنحه كل الأعذار، ولكنه يقسو عليها بكل ما بقى فيه من طاقة وقوة، كأنه يعاقبها كما لو كانت مسئولة تمامًا عما أصابه وألَمَّ به.

بعدما كان يرفض خروجها، أصبح لا يعبأ بشيء، ربما لا يهمه أين هي؟ كلما دخلت إليه في غرفته لا ينظر إلى وجهها، لا يحدثها، لا يرد على حديثها، وكلما أخبرته بأنها ستخرج لشراء شيء أو زيارة أهلها، هز رأسه بإهمال وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، لا تدري يسخر منها أم منه؟ لقد أصبح رجلًا غريبًا عنها لا تعرف عنه شيئًا. هو بقايا رجل، بقايا زوج، بقايا إنسان.

وبينما هي سارحة في حالها وما انتهت إليه علاقتها بزوجها، انتبهت إلى رسالة أخرى من مراد.

- رسالة قصيرة: أنا عايز أطَّمن عليكي، يا رب تكوني بخير.

ولا تدري كيف هزمتها دموعها وبكت وكتبت له وحروفها تتألم معها:

- أنا تعبانة أوي، مفيش حاجة تريحني غير الموت.

فرد عليها:

- زينة إوعي تقولي كده، أنا جنبك وحاسس بيكي، أرجوكي أشوفك ولو دقايق.

فحددت معه موعد اللقاء ومكانه غدا في المساء، وأنهت الحوار ثم عادت تقرأ ما كتبت وما كتب، فبكت أكثر وأكثر، وعينها مندهشة مما كتبت كأن من كتب شخص آخر. كيف ترد عليه بهذه الكلمات، كيف تتألم وتبوح له بأوجاعها، من يكون لها كي تنزف أمامه بهذا الوضوح؟ وقرأت كلماته واندهشت أكثر وتساءلت: ماذا يقصد؟ ماذا يريد؟ كيف اتفقنا على اللقاء ولماذا؟

وطافت بين أسئلتها في حيرة مؤلمة، وكلما احتارت في أمرها بكت أكثر، ثم وقفت أمام مرآتها تتأمل ملامحها الباهتة وعيونها المتورمة، والماضي يمر أمام عينيها في صور متداخلة متتالية، أيام الهناء مع حبيبها كمال، ورفض أخيها لهذا الزواج، وأيام السعادة الأولى بعد الزواج وأيام الوحدة والعذاب بعد مرض زوجها، تذكرت صراخ أخيها وهو يحذرها من هذا الزواج وتحذير أمها بثينة، ثم تذكرت صراخها وهي تتحدى الجميع، الأصوات كلها تتداخل في أذنيها، تكاد تفجر رأسها. الآن تصرخ وحدها ولا تستطيع أن تلوم إلا نفسها.

وهنا انتبهت إلى الحقيقة التي باتت واضحة وضوح الشمس وتساءلت في تردد:

- هل ندمت على الزواج من كمال؟

وهمس الهوى في قلبها بعتاب قاسٍ موجع: لم تتحملي مرضه طويلًا أيتها القاسية، لقد خذلتِ كمال.

فقالت لنفسها وهي تدافع بكل حماس عن قلبها المتهم: أبدًا، هو من يبعدني عنه، هو من يقتل حبنا بقسوة.

فصاح الحب الجريح بينها وبينه: هو مريض، واقعه المؤلم يجعله قاسيًا في قسوة ظروفه ولكنه أبدًا لا يتعمد القسوة، إنه يحترق بعجزه فكيف لا تتحملين تأوهات شخص يحترق بالنار، أتريدينه يحترق في صمت أيتها القاسية.

فعادت دموعها تجري كأنها ماء إطفاء حريق عذابه وعذابها، أوجاعه وأوجاعها. وارتمت على فراشها ودموعها تجري من نهر ألم لا يجف إلى أن ضاقت أنفاسها وذبلت جفونها، وغرقت هي ودموعها في نوم قلق.

*****

تمر الأيام وما زالت داليا في رحلة الهروب من زواج تراه فشل فشلًا ذريعًا ووصل إلى النهاية المحتومة، أصبح عملها هو كل ما يهمها وأجمل همها، إنه الممر الآمن لعالم جديد بلا ذكريات مزعجة وأفضل مسكن بل قد يكون مخدرًا فعالًا لجراحها المؤلمة، إنه رفيقها في طريق النسيان، وما زالت على إهمالها لزوجها

محمود وهو أيضًا تعلم منها الإهمال، فما عاد يحاول أن يتواصل معها بأي شكل من الأشكال وباتت مقتنعة أن يوم الخلاص قريب وقد تصلها ورقة الحرية بين لحظة وأخرى.

وانضم إليهم في الشركة زميل جديد، مكتبه إلى جوار مكتبها في نفس الحجرة، وكانت مفاجأة غريبة أنه أحد أصدقاء زوجها محمود، علي المحمدي، صديق محمود المقرب الذي حضر حفل زفافهما، وزارهما في عش الزوجية، ثم سافر بعد ذلك فترة إلى الخارج وكان على تواصل مع محمود هاتفيا فترة ثم تاه كلاهما في زحام الأيام، وانقطع التواصل بينهما.

كانت صدفة غريبة، بمجرد أن رآها صافحها بمودة بالغة وسألها عن محمود وأحواله فارتبكت وسرعان ما ردت أنه بخير وأدارت الحديث بعيدًا عن زوجها سريعًا وسألته باهتمام عنه، متى عاد إلى مصر؟

فأجابها أنه عاد إلى مصر واستقر فيها بعدما مرضت والدته منذ عام وقرر أن يكون إلى جوارها ولا يفارقها في رحلة مرضها ضد السرطان اللعين، وبعد وفاة والدته، لم يفكر في السفر مرة أخرى. هزت رأسها في أسي ودعت لوالدته بالرحمة والمغفرة، وعاد علي يسأل من جديد عن محمود وأحواله، وأخبرها أنه يريد أن يتواصل معه ولكن ضاع منه رقم هاتف محمود.

فارتبكت مرة أخرى وصمتت وشردت بأفكارها بعيدًا فسأل علي باهتمام عن صديقه وعلي وجهه علامات القلق فلم تجيب داليا واكتست ملامح وجهها الجميل بالحزن، فتساءل علي في تردد وقلق هل أصاب محمود مكروه؟ هل حدث له شيء؟

فأخبرته بكل صراحة أن حياتها مع محمود انتهت وأنهما اتفقا على الطلاق ثم منحته رقم هاتف صديقه محمود كي يتواصل معه كما يريد وطلبت منه ألا يناقش معه موضوع الطلاق لأن الأمر محسوم ومنتهٍ.

صمت علي وكف عن الأسئلة وأدرك أن صديقه خسر زوجته أو ربما هي من خسرته، أو كليهما خاسر. الطلاق هو كتلة من الخسائر لا يدرك الأطراف حجمها إلا بعدما تقع، وتساءل بينه وبين نفسه هل بينهما أطفال؟ وربما تخيل في دقائق معدودة مصيرهم الباهت غير المحدد الملامح بعد هذا الطلاق، فقرر أن يتواصل مع صديقه ويقابله في أقرب وقت ربما اليوم،

لابد أن يمنع وقوع أبغض الحلال، هذه حقوق صديقه عليه.

وانقضى يوم العمل، وأثناء طريق العودة وهو يقود سيارته أجرى الاتصال الهاتفي المهم مع محمود، كانت مكالمة كلها مودة ودفء واتفقا على اللقاء مساء اليوم على مقهى اعتادا الجلوس عليه منذ أيام الجامعة، وفرح علي بشدة أن

خطته تمضي في نجاح، وشعر أن الله قاده في الوقت المناسب لمساعدة صديق عزيز.

التقى الصديقان بعد فراق سنوات، لقاء حار بالأحضان والسلامات الودودة، وكل منهما يتأمل الآخر، فقال محمود:

– كأني سايبك امبارح، إنت زي ما أنت، والله واحشني جدًا.

– وأنت بردو باين عليك لسه زي ما أنت، لسه شقي زي ما أنت ولا إيه.

– إيه يا عم إنت داخل فيَّا شمال من أولها، احكيلي بقى رجعت إمتى.

حكي علي لصديقه أيامه الماضية باختصار وأخبره أنه يعمل الآن في نفس الشركة التي تعمل بها داليا وعرف منها أنهما اتفقا على الطلاق.

فصمت محمود وتنهد تنهيدة طويلة، وكف عن المزاح وأدرك علي أن صديقه في معضلة حقيقية. فسأله علي باهتمام:

– أنا يا محمود لو ماعرفش الحب الكبير اللي بينك وبين داليا ماكنتش هستغرب، عادي أي جواز ممكن ماينجحش وينتهي بالطلاق، لكن إنت وداليا بينكم حب كبير، أنا أعرف الحب دا منك، يا أخي دا إنت سبب إني لسه ماتجوزتش لغاية دلوقتي، عايز أعيش حكاية حب وأدوب فيها زيك كده، إيه اللي حصل.

– اتجوز يا علي، كله محصل بعضه، هتتجوز عن حب ولا جواز صالونات، في الآخر إنت وهي في بيت واحد روتين وملل وخنقة، الجواز ده حاجة خنيقة.

– اسمع الموضوع ده لازم يتحل.

– حاولت ومافيش فايدة، خلاص داليا مصممة، أنا زهقت فعلًا ومش هضيع عمري متمسك بواحدة فجأة اكتشفت إني غلطة عمرها، دي كمان بتهددني ترفع قضية خلع.

– هي وصلت للدرجة دي.

– آه، أنا بقى هاتجوز تاني في أقرب وقت وأنا تقريبًا خطبت.

– وداليا؟ يعني هتطلقها خلاص؟

– هطلقها، هي متخيلة إن دنيتي من غيرها هتقف، هطلقها وأتجوز ونشوف مين اللي هيندم ومين اللي خسران.

– إنت هتطلق ولا هتتجوز، إيه الجنان ده؟

– مفيش وقت يا حبيبي، هو عمر واحد هعيشه زي ما أنا عايز.

أنهى الصديقان جلستهما على وعد بلقاءات أخرى مستمرة. ولكن علي كان بداخله ضيق بالغ، كان يظن أنه سيصلح ما فسد في علاقة صديقه مع زوجته، ولكنه اكتشف أن قصر حبهما على وشك الانهيار وربما انهار بالفعل، وما يجدي

الترميم. المشاعر كالزجاج الشفاف إن خدشت يظل الخدش يلوث شفافيتها، وإن كسرت لن تعود كما كانت أبدًا.

*****

فاجأ فارس أخته نجلاء بسفره للعمل بأوروبا، فاجأها أنه سيرحل خلال شهرين وطلب منها أن تتم كل شيء لزفافها سريعًا فلا يجب أن يسافر ويتركها وحدها، فقد توفي والداهما في سنة واحدة، ما فصل بين موت أبيهما وأمهما إلا سبعة أشهر فقط. ومنذ عام الرحيل هذا، منذ خمس سنوات ولم يصبح لها غيره ولم يصبح له غيرها. هو أخوها الكبير الذي يكبرها بست سنوات، هو الأخ والسند وكل الأهل، انتابتها حالة من الذعر والفزع، أسئلة مزعجة تفتك برأسها، متى اتخذ هذا القرار المصيري ولماذا لم يشاركها الرأي؟ كيف يقرر أن يتركها للأيام والسنين كالريشة في مهب الريح بلا سند ولا ظهر؟، فصرخت في وجهه باكية لائمة معاتبة، واتهمته أنه لا يحبها، بل يريد أن يتخلى عنها ويرميها لأي رجل يحمل مسئوليتها في إطار شرعي، متى اتخذ هذا القرار؟ كيف رتب كل أمور سفره وهجرته للخارج ولم يخبرها حتى ولو من قبيل أن تتهيأ نفسيًا لهذا الحكم القاسي الذي حكمه عليها بمنتهى الأنانية.

بكت كثيرًا ولامته كثيرًا دون أن تمنحه دقائق يشرح موقفه، فهي ليست في حاجة إلى شرح بائس وأسباب أكثر بؤسًا. إنه سيرحل ولا يعبأ بما ستعاني، بينما هو صامت يخفض بصره ويهز رأسه كأنه يقبل اتهامها ولا يجد ما يقوله، أما هي

قالت كل ما أرادت وهرولت تبكي بعيدًا عنه في حجرتها، وبعد دقائق قصيرة، دخل فارس إلى نجلاء في غرفتها وقال لها بحنان:

– إنتي هتتجوزي يا نجلاء ويبقى ليكي حياتك المستقلة. وأنا شايف إن الفرصة دي لو ضاعت مني مش تتكرر، أنا مسافر أنا وزميلي نشتغل. كل الحكاية إني اتفقت مع خطيبك نعجل بالجواز والراجل تفهم الموقف ووافق، دا فرحان جدًا، فين المشكلة؟

– بردو مش شايف مشكلة، إنت خططت حياتك وحياتي من غير ما ترجعلي، طب أنا مش عايزة أكمل مع خالد.

– معقول، عمرك ما قولتيلي الكلام ده.

– أديني قولت.

– يعني هتفسخي الخطوبة؟ طيب أعرف الأسباب؟ يعني بعد ما اتفقت معاه على الجواز أقوله مافيش نصيب؟

– ما هو إنت مش مهتم بيَّا، ومهتم بس بشغلك وعايش لنفسك.

– أنا آسف يا نجلاء، يعني أقوله إيه؟

صمتت وسرحت تسأل نفسها هل حقًا تريد إنهاء خطبتها؟ ثم هربت من السؤال الصعب بسؤال لأخيها

– لو فسخت الخطوبة هتلغي السفر؟

– لا هتسافري معايا.

– وأنا هعمل إيه هناك؟

– اعملي معادلة واشتغلي.

– سيبني لوحدي أفكر، مش عايزة كلام تاني، أنا تعبت.

انتهت المناقشة دون الوصول إلى حل، فارس متمسك بالسفر وهي متمسكة بوجوده إلى جوارها. ظلت حائرة في غرفتها تفكر في عالمها الذي ارتبك فجأة، إن أخاها يعمل في شركة جيدة في مصر، لماذا فجأة قرر الهجرة، وتركها بين خيارين؟

أما الهجرة معه أو الزواج سريعًا من رجل ما زالت لم تحسم أمرها منه ولم تدرك حتى الآن إن كانت تستطيع أن تكمل حياتها معه أم لا؟ هل هو أناني أم أنها هي الأنانية؟ لابد أن عمله في الخارج سيفتح له آفاقًا جديدة، ليس من حقها أن تقف عائقًا أمام طموحه، ولكن من حقها أن يكون لها أهل، أن يكون أخوها إلى جوارها، يا لها من حيرة، يا له من قرار.

*****

الفصل السابع

استيقظت الأم بثينة في الثامنة صباحًا وتلفتت على زوجها عبد العزيز، فوجدته جالسًا على مقعده المعتاد في مكانه الثابت أسفل النافذة، سارحًا مهمومًا شاردًا كأنه يحمل حملًا ثقيلًا في قلبه، وعيونه مرهقة حزينة، فنهضت من فراشها سريعًا وجلست على مقعد مجاور لمقعده وسألته باهتمام عطوف عن سبب وجومه؟ فهز رأسه وقال في صوت مختنق:

– الكابوس إياه.

– تاني، الكابوس اللي بقالك ٣ سنين بتحلم بيه وعمرك ما حكيتلي بتشوف إيه ولا عن إيه.

– قولتلك مليون مرة الكابوس لو اتحكى ممكن يتحقق.

– بس احكيلي وأنا هجيبلك تفسيره من تحت الأرض.

– لا يا ستي، شكرا اعمليلي فنجان قهوة مضبوط وبس، مش عايز حاجة تاني.

نظرت إليه بثينة في عطف وإشفاق، ثم قامت لتحضر له قهوته وهو ما زال شاردًا يفكر في حلمه المزعج الذي يلازمه منذ فترة ليست قصيرة، إنه كابوس مزعج بل مرعب، يفيق منه وهو يتذكره ويستطيع أن يحكيه بكل تفاصيله كأنه فيلم رعب شاهده على شاشة سينما، كابوس يرى نفسه فيه الضحية، أما البطل

هو سليم، ولكنه ليس سليم الذي رباه، ليس سليم الذي يعرفه، إنه سليم آخر، سليم مجرم، قاتل، يثأر منه ويذبحه ويمزقه بالسكين بمنتهى البشاعة، وليته يثأر منه وحده بل من سلمى أيضا، يذبح ابنته بنفس الطريقة، يا له من كابوس يقبض قلبه ويكتم أنفاسه ويظل عالقًا في ذهنه أيامًا طويلة وما يكاد أن يتناسى هذا الكابوس حتى يحاصره ويخنقه من جديد.

أحضرت زوجته القهوة وتركته لإعداد طعام الإفطار.

وبينما هو شارد في تفسير لهذا الكابوس، سمع طرقات خفيفة على بابه فسمح للطارق بالدخول، إنه سليم، ألقى تحية الصباح على عمه وعلى وجهه ابتسامة هادئة وطلب من عمه أن يتحدث معه في أمر مهم، أشار له عمه بالجلوس على مقعد أمامه، وبدا على كليهما شيء من الارتباك، ونظر سليم إلى عمه ثواني معدودة ثم قال:

- أنا يا عمي الحمد لله فتحت الصيدلية وبقيت بشتغل في تخصصي زي ما حضرتك كنت عايز، أنا دايمًا يهمني رضا حضرتك.
- دايمًا راضي عنك يا سليم، ربنا يكرمك يا حبيبي، إنت ابني يا سليم.
- عمي أنا بفكر حضرتك بوعدك ليَّا، أنا استنيت كتير أوي وبحلم باليوم اللي أخطب فيه سلمى واتجوزها.

فنظر إليه العم نظرة غامضة، حدق في ملامحه وأخذ نفسًا عميقًا في دقائق ثقيلة مرت طويلة على سليم الذي كان ينتظر من عمه أن يبارك حلمه ويحقق أمله

فورًا، وبعد دقائق من القلق والترقب قال العم وعينيه تطل بعيدًا عن سليم كأنه يتحدث إلى شخص آخر:

– اسمعني يا سليم يا ريت تفهم الكلام اللي هقوله كويس، إنت عندك شك في حبي ليك، عندك شك إنك إنت وزينة في غلاوة سلمى ومحمود عندي؟

– أبدًا يا عمي، حضرتك أبويا وأنا ياما كان نفسي أقولك بابا وحضرتك اللي رفضت وقولتلي لازم تفضل فاكر دايمًا إنك ابن صبري.

– فعلًا يا سليم، يبقى هتفهم اللي هقوله، جايز تستغربه لكن بعدين هتفهمه، اللي إنت حاسة ناحية سلمى مش حب، ارتباط نفسي بحكم إنكم اتربيتوا سوا لكن مش حب يا سليم، صدقني أنا أفهمك إنت وسلمى أكتر من نفسكم.

بدت الصاعقة على وجه سليم الذي اتسعت عينيه وانفتح فمه وحبست أنفاسه كأنه يسمع خبر وفاة، وقال بصوت متقطع:

– إزاي يعني، تقصد إيه حضرتك؟

– اللي سمعته، سلمى زي أختك إنما إنت مش فاهم مشاعرك وأنا بنقذك من نفسك، بحميك وأحميها.

فرد سليم بانفعال:

– أنا مش مراهق يا عمي عشان ماقدرش أفرق حقيقة مشاعري لسلمى، أنا مش بحب سلمى بس، أنا بعشق سلمى وكل حاجة عملتها في حياتي

عشان يوم ما أطلب منك إيدها أبقى جدير بيها، أنا من حقي أفهم حضرتك رافضني ليه، إيه السبب الحقيقي.

- يا ابني أنا قولت السبب؟ إنت اللي مش عايز تفهمني.
- أفهم ايه، وحضرتك ما قولتش ليه السبب دا من أول مرة طلبت فيها إيد سلمى. ليه فضلت تقولي أسباب وهمية وتعشمني إنك موافق.
- أنا خوفت عليك ماتفهمنيش وقتها وقولت جايز تحس لوحدك حقيقة مشاعرك، لكن دلوقتي لازم أواجهك بالحقيقة.
- لا يا عمي مش دي الحقيقة أبدًا، أنا متأكد من مشاعري ومتأكد من مشاعر سلمى ليَّا.
- يعني إيه، إنت خلفت وعدك ليَّا؟ إنت كلمتها عن حبك يا سليم؟
- لا يا عمي، إنما اللي بيني وبينها مش محتاج كلام، يكفيني أبص في عينها وأعرف إحساسها بيَّا، أنا ماخلفتش وعدي ليك، لكن حضرتك خلفت وعدك ليَّا.
- سليم، الموضوع دا مش نتكلم فيه تاني، أنا من حقي اختار لبنتي العريس المناسب.
- واضح إن في عريس تقيل أوي، طب قولي طلباتك يا عمي وأنا مستعد لأي طلبات.

انفعل العم وقام من مقعده وهم أن يصفع سليم صفعة موجعة ولكنه سرعان ما تراجع وأدار ظهره وقال: المناقشة خلصت على كده.

بينما سليم يكاد لا يصدق ما يسمع، إنه في حالة من الذهول، لأول مرة يرى عمه يعامله هذه المعاملة، لأول مرة يرى في عيني عمه هذه النظرة، كأنه يريد أن يبعده عن سلمى بكل الطرق ولو اضطر لضربه، نعم إنه فكر للحظات أن ينهال عليه بالصفعات الساخنة ولكنه تراجع، لم يفعلها معه وهو طفل صغير ولكنه فكر فيها الآن حينما أراد أن يقترب من سلمى، إلى هذا الحد يراه ضئيلًا لا يليق بها زوجًا وحبيبًا، لماذا؟ ماذا ينقصه؟

خرج سليم من غرفه عمه يجر قدميه وخيبة أمله وصدمته في أكثر إنسان أحبه في الوجود، دخل إلى غرفته وبدأ يبحث عن حقيبتي السفر ليجمع فيها كل ما يخصه، فلن يبقى هنا يومًا واحدًا بل لن يبقى ساعة واحدة، وربما في وقت وجيز، أنجز ما قرر، وسمع طرقات على باب غرفته من الأم بثينة تطلب منه أن يأتي لتناول طعام الإفطار، فتح الباب سريعًا، فلفت نظرها أنه يبدو مستعدًا للنزول فقالت له:

- إنت نازل بدري النهارده يا سليم؟
- ماما أنا عايزك في كلمتين.

فدخلت غرفته، وانتبهت إلى حقائب السفر المعبأة فسألته باهتمام: إيه الشنط دي، إنت مسافر؟ إنت رايح فين؟

– ماما أنا هعيش في شقة بابا، خلي بالك من نفسك وأنا هكلمك كل يوم أطمن عليكي.

– في إيه يا سليم، إنت هتسيب البيت ليه، محمود زعلك في حاجة؟ هنا بيتك يا سليم، اتفضل فضي الشنط دي، إنت إزاي تعمل كده؟

– محمود مالوش علاقة بالموضوع، أنا لازم أعيش في شقة بابا، مبقاش ينفع أكمل هنا.

– لا، أنا هنادي عمك يشوف حل.

– أعتقد إن عمي هيكون سعيد بقراري ده.

فوقفت الأم في حالة من الذهول لا تستوعب ما يقوله سليم، وفي عينيها دموع حائرة، فظلت تكرر تساؤلاتها عن سبب تركه لمنزل العائلة، فقبل رأسها ويدها وأخذ حقائبه وغادر سريعا وتركها في دهشتها وحيرتها وقلقها. لا تفهم ما يحدث، كل ما لمح له سليم أن خلافه مع عمه ولكنه لم يوضح سبب الخلاف، فذهبت إلى زوجها في غرفته وأخبرته أن سليم ترك المنزل غاضبًا وسألته عن السبب وهي في حالة بالغة من الغضب والحزن والاندهاش، فما زادها رد فعله إلا اندهاشًا على اندهاشها. أربكها صمته وهدوؤه وكأن ما سمع لا يضايقه كما قال سليم، وهي التي كانت تظن أنه سيهرول خلفه ليمنعه من مغادرة بيت العائلة، فزاد غضبها وانفعالها، هناك شيء ما لا تعرفه ولا بد أن تعرف ماذا

يحدث في بيتها وما أصاب أولادها، وظلت بثينة تسأل زوجها إلى أن عرفت ما دفع سليم إلى ترك المنزل، وكان السبب صادمًا لها، فقالت بغضب بالغ:

- ماله سليم؟ إيه عيبه؟ ما إنت عارف وكلنا عارفين إن روحه في سلمى من ساعة ما جه بيتنا، إنت هتلاقي لسلمى عريس أحسن من سليم، جرالك إيه وإيه اللي بتعمله في ولادي.
- أنا أدري بمصلحتهم أكتر منك ومنهم، هو هيزعل شوية وبكرة يهدأ ويشوف مستقبله.
- لا هيهدا ولا هينسى، ولا بنتك هتسامحك يا عبد العزيز، إنت مش عارف هتبقى حالتها إزاي لما تيجي من شغلها وتعرف إن سليم ساب البيت، قولي إنت بتعمل كده ليه؟
- سيبيني لوحدي يا بثينة لو سمحتي ولا أنزل أنا وأسيبلك البيت.
- أنا هسيبك دلوقتي إنما مش أسمحلك تهد اللي بنيته، وتعذب ولادي من غير سبب.

قالت تحذيراتها بحزم، وتركته وحيدًا، تركته في غرفته وهي لا تفهم ما الذي قلب حياتها الهادئة في دقائق، ما السر الذي يخفيه زوجها عنها، هل هناك ما يعيب سليم؟ إنها تعرف كل شيء عن سليم، إنه ابنها، هي لم تلده ولكنها هي من ربت وسهرت وصنعت منه رجلًا بمعنى الكلمة. إنها لا ترى غيره زوجًا لابنتها ولا تطمئن عليها إلا معه. لم يقل لها من قبل إنه يحب سلمى ولكن أبدًا لم تكن

في حاجة لسماع هذه الكلمة منه، هو يقولها في كل دقيقة اهتمام بسلمى وكل لحظة خوف عليها، في كل نظرة لها، في كل لفتة تتبعها على استحياء، كانت تعلم أنه سيطلب الزواج من سلمى بل كانت تتعجب من تأخره في طلب ذلك. شيء ما غامض في رفض عبد العزيز لزواج سلمى وسليم وستعرفه ولا تظن أن هناك شيئًا يفرق بين قلبين يربط بينهما حب صادق. ستدافع دائمًا عن حقهما في السعادة، فهذا واجبها الذي لم تقصر فيه أبدًا.

*****

ما زال محمود ينسج خيوطه حول نورهان، يحاصرها بكلماته ورسائله وإلحاحه المتواصل، وهو لا يعلم هل حقًا صار يحبها؟ شيء ما يشده إليها وكلما ابتعدت خطوة هرول خلفها أكثر، ما اعتاد أن ترده امرأة، ما اعتاد أن يفشل في سعيه خلف امرأة، ولكنه منذ البداية يعلم أنها غيرهن جميعا، إنها ليست امرأة للتسلية، وما أرادها إلا لأنها ليست تافهة أو ساقطة، وكان لا بد أن يختار زوجة جديدة بهذه المواصفات، إنها ستحمل اسمه، لا بد أن تكون هكذا، امرأة للزواج وليست للتسلية. ولكنها ما زالت عنيدة، تخاف قربه، وبدأ عنادها يستفزه أكثر وأكثر ويجعله أكثر إصرارًا على أن يعبر أسوار قلبها ويمتلك مشاعرها رغمًا عنها، وعندها تذكر زوجته، هذا هو العائق بينه وبين نورهان، تلك الزوجة التي تتجاهل وجوده وبنت لنفسها من العند قصرًا حصينًا احتمت فيه، فلينفعها عندها

ولتدفع ضريبة عنادها، سينتهي من تلك العلاقة المرهقة، ويبدأ حياة جديدة مع زوجة أجمل وأصغر ولا تقل شيئًا عن زوجته العنيدة التي بلغت جرأتها إلى درجة الوقاحة بتهديده برفع قضية خلع، إن كرامته لا تسمح له التمسك بزوجة لا تتمسك به، إنها أيام مرهقة لابد أن تمضي وتصبح ذكريات تمحوها السنوات المتتالية، طلاق داليا هو ورقة العبور إلى قلب نورهان، تلك الجميلة التي تريد أن تشرد عنه بعيدًا ولكنه أبدًا لن يسمح.

منح زوجته حريتها وذهب لزيارة والدته في موعد الغداء، كانت تبدو مرهقة حزينة، فانتابه قلق شديد عليها فأخبرته بما حدث بين سليم وزوجها، وابتسم ساخرًا وقال:

- أكيد بابا ليه وجهة نظر، وأكيد بابا عارف مصلحة سلمى.

فنظرت له الأم باستياء، إنه ما زال على أنانيته لا يهتم بأحد إلا نفسه، لم تتكلم ولم ترد ولكنها أدركت أنه لن يساعدها في حل الأزمة.

وسادت دقائق صامتة ثم أخبر محمود أمه بأنه طلق داليا ويريد أن يخطب نورهان زميلته في العمل في أسرع وقت، وسقطت كلماته على رأس أمه كحجر ضخم فر من جبل، فوضعت كفيها على رأسها لعلها تخفف ما أصاب رأسها من صداع وألم كبير، ثم قالت في أسى:

– أستغفر الله العظيم، امشي يا ابني، مش عايزة أشوف حد، تتجوز ولا تطلق، اعمل اللي يعجبك، حرام عليك، حرام عليك.

تركته الأم ودخلت إلى غرفتها حيث ما زال يجلس زوجها في صمت تام، وحكت له ما فعل محمود ومصيبته الجديدة، فخرج إليه والده ووبخه كثيرًا ثم قال له:

- روح اعمل اللي إنت عايزه، أنا مش هروح أخطبلك كل كام سنة. روح يا ابني ربنا يهديك.

خرج محمود من منزل العائلة وهو لا يعبأ كثيرًا بانفعال والديه ولا غضبهما، هو كان يتوقع ذلك وما أراد إلا أن يمهد لهما أمر زواجه الذي يخطط له، سيترك رياح الغضب تمر وعندما تهدأ الأحوال سيعود ليكمل ما بدأه، لقد اتخذ قراره ومن حقه أن يبحث عن السعادة مع زوجة جديدة.

*****

أوشكت الساعة على الثالثة عصرا، وما زال سليم في مكانه بثيابه على فراشه مستلقيًا في حزن بالغ، شاردًا فيما وصل إليه حاله، لقد أبلغ زياد أنه لن يأتي اليوم إلى المطعم ولن ينزل إلى الصيدلية وترك له إدارة الأمور كلها اليوم، وهو يعلم أن زياد يستطيع أن يدير كل الأمور بمهارة، كان يشعر أنه غير قادر على الحديث مع أحد، لا يحتاج إلا أن يختلي بنفسه ليعلم إلى أين وصل؟

انتبه إلى صورة والده المعلقة أمامه على الحائط، وسرح في ملامحه الهادئة وابتسامته الرقيقة وتأمل في ملامحه أكثر وأكثر، وربما لأول مرة ينتبه أنه يحمل بعضها، ولكن شعر بأن والده كان أكثر منه وسامة، وازداد تأملًا في الصورة وشعر أنه منجذب إليها بشكل غير طبيعي، فنهض من فراشه، ووقف أمام الصورة ومرر يده على ملامح الوجه الجميل، واعترف في صوت حزين أنه يحتاج إلى والده بشدة.

إنه حقًا يشعر اليوم أنه في حاجة ماسة إلى والده صبري، في حاجة إلى حنانه، إلى حضنه، إلى حكمته، إلى رجاحة عقله. ربما لو كان أبوه موجودًا ما كان عمه رفض زواجه من ابنته بهذه القسوة، أو ربما أشار له والده على عيبه وساعده على إكمال نقصه.

ما كان يتخيل أن يقسو عليه عمه بهذه الطريقة، لقد قدم له السعادة سنوات وسقاه الحنان أعوامًا وأحاطه بالأمان وأظله بأبوته، فاختبأ من وحش اليتم سنوات طويلة تحت مظلة حنان عمه الكبيرة، واليوم اختفى كل هذا ليجد سليم نفسه في صحراء جرداء وحيدًا بلا أهل، طوال طريقه من بيت عمه إلى بيت والده كان يتخيل الناس حوله يصرخون في أذنيه ويذكرونه أنه يتيم، يذكرونه بأنه وحيد، بل إنه ظن أن الشجر والرصيف والسيارات تصرخ أيضًا وتعيب فيه يتمه.

وقف سليم طويلًا أمام صورة والده يتأمله ويشكو له بعينيه الكثير والكثير، إلى أن كلَّت قدماه من الوقوف وأرهقته الشكوى، وتعبت عيناه من الحكايات التي تحكيها وضاق صدره بألمه الشديد، فعاد إلى فراشه واستلقى من جديد بكل همومه مرة أخرى، وانتبه أن سلمى طلبته هاتفيًا خمس مرات، إنه ضبط هاتفه صامتًا فهو غير مستعد للرد على أحد ولو حتى كانت سلمى، لا بد أنها عادت إلى البيت وعرفت أنه استقل عنهم، لا بد أنها تريد أن تعرف منه سبب ما وصل إليه أمرهما ولكن هو ليس عنده تفسير لكل ما يحدث، إنه يريد راحة قصيرة من الكلام، يريد أن يفكر منفردًا في مشكلته ويحاول أن يصل إلى حل. وراوده سؤال غريب:

- هل سلمى تحبه كما يحبها؟ ما اعترف لها بحبه وما اعترفت له بحبها، ولكن أبدًا ما رواده الشك أنها تبادله نفس الحب، ولكن اليوم كل الحقائق التي يؤمن بها تهتز وتتبدل، لابد أن يصارحها، وأن يسمع منها إجابة صريحة ووعدًا قاطعًا أن تتمسك به كما يتمسك بها، تمسك سلمى به هو أهم سبب يدفع عمه إلى التراجع عن قراره الظالم.

عمه يحب سلمى ولن يجبرها على الزواج رغمًا عنها من آخر، إذن حل المشكلة كلها قد يكون بين يدي سلمى. نعم سيبوح لها بكل شيء، ويعاهدها على حب لا يقبل الانهزام.

بينما هو يفكر ويستجمع خيوط خطته المحكمة ليثبت لعمه أن ما بينه وبين سلمى حب حقيقي صادق، انقطع تركيزه بإضاءة شاشة هاتفه باتصال من سلمى، أمسك هاتفه ورد في صوت حانٍ:

- ألو، إزيك يا حبيبتي.

صمتت ثواني، وانهمرت دموعها، واحتبست كلماتها بين أنين الحرمان وسعادتها بكلمة اشتاقت إليها سنوات طويلة، وردت بصوت باكٍ وقالت:

- أول مرة تقولها هو اليوم اللي تبعد فيه عني؟ ليه تسيب البيت يا سليم، أرجوك ارجع.

- أنا عمري ما أكون بعيد عنك ولو بيني وبينك بلاد.

- سليم، ماما حكتلي اللي حصل، أنا واجهت بابا، قولتله إني بحبك. وإني عمري ما شوفتك أخويا أبدًا.

ابتسم سليم وشعر أن هذه هي الحقيقة الثابتة حتى لو تبدلت كل الحقائق، فيكفيه حب سلمى لينتفض قلبه من السعادة ويبعث في روحه القوة بعد الضعف، فقال متسائلا:

- سلمى، يعني هترفضي أي عريس عمي يجيبه؟
- عريس مين يا سليم، بابا قالك كده؟

- عمي ما قالش غير إن أنا وإنتي مش فاهمين مشاعرنا، أنا اللي بخمن إن جايز في عريس لُقطة ما يترفضش.
- أنا مش ممكن أتجوز غيرك يا سليم. دا أنا مش متحملة أقعد في البيت وإنت مش فيه، لازم ترجع الليلة.
- ما ينفعش يا سلمى، أنا مرتاح هنا.
- أنا عايزة أشوفك لازم نتكلم.
- نتقابل بكرة.

انتهى الحديث وهو يمسك بخيوط الأمل مرة أخرى، تمسك سلمى بحبه يكفيه من كل هذا العالم.

*****

تجاهلت زينة موعدها مع مراد، تجاهلت الموعد وهي تتألم، شيء في أعماقها كان يدفعها بقوة أن تقابله، أن تراه، أن تتحدث إليه ولا تعلم ما هذا الشيء، ربما حديثه الحاني يفتح أمامها أبواب الفضفضة ويمنحها بعض من الراحة النفسية التي تشتاق إليها، ربما نظراته لها تأتي بقبس من دفء شمسها المستتر خلف ضباب يأسها، ربما اهتمامه بها يعزف على أوتار شبابها المهمل الجريح، هو شيء مجهول في أعماقها يشدها إليه دون تردد، دون تفسير، ولكن صوت ضميرها يجلد هذا الشيء ويبغضه كلما تنفس في أعماقها، ويذكرها أنها إن كانت تبحث

عن الحنان والارتياح فقلب أخيها وحنانه يكفيها، ضميرها قيد قدميها في وقت الموعد وأغلق عليها كل طريق لمقابلة مراد.

ضميرها أبقى عليها في سجنها الحصين ووحدتها القاتلة وتركها تحترق في صمت، حتى صوت الألم ممنوع، ألمها يؤلم من أقعدته الأيام حبيسًا فلا يجوز لها أن تتألم ولا يليق بها أن تتكلم عن مشاعرها المعذبة ووحدتها المتعبة وأنوثتها المقيدة خلف جدران الأصول والواجب وحقوق زوجها عليها.

لو كان كمال يفيض عليها ببعض الكلمات الحانية، بجلسة طيبة إلى جواره، لا تريد منه أكثر من هذا ولكنه يحرمها من كل شيء، سجن نفسه في حجرته وسجنها في غرفة مجاورة وترك الأيام تقتلهما سويًا بلا رحمة. وتتوالى رسائل مراد إليها بعدما تركته ينتظرها ولم تذهب إليه. لم تقرأ الرسائل ولم تكتب له اعتذارًا ولم تكف عن التفكير فيه. إنها مشتتة ضائعة في لحظات يأس ما مرت عليها من قبل، وما بداخلها تخجل أن تبوح به لأحد حتى سليم، ماذا تقول له؟ وهي من اختارت هذا الطريق وبماذا سينصحها سليم إلا بالصبر؟ وماذا يملك لها سليم من حلول ومصيرها أصبح بين تلك الجدران ولا فرار منها؟ لا أحد يملك لها الخلاص. وليس أمامها إلا أن تتحمل قدرها.

*****

الفصل الثامن

جلست سلمى وصديقتها نجلاء في مكان هادئ بعد موعد العمل تتشاوران في حالهما ومشكلاتهما، الحزن مرسوم على ملامح كلتيهما، والصمت ابتلع كلامهما وساد الصمت دقائق، ثم عادت سلمى تشكو حالها وعذابها في بعد سليم، وحيرتها وعجزها عن تفسير منطقي لرفض والدها زواجها من سليم، إنها تفكر ليلًا ونهارًا حتى اقتربت من الجنون ولم تصل لأي تفسير لما يحدث، وصديقتها تستمع في صمت ملول ثم ابتسمت ساخرة وبدأت تفسر لصديقتها ما عجز عقلها عن استكشافه وهي فخورة بذكائها ومتباهية برجاحة عقلها، إنها ترى أن المشكلة بسيطة، تكاد تكون تافهة، ولا تحتاج إلى تفكير عميق لأن سبب رفض والدها لسليم لن يخرج عن سببين. ورغم أن سلمى مستاءة من استهزاء صديقتها بمشكلتها وعذابها إلا أنها كانت تستمع لما تقوله صديقتها باهتمام لعل لديها تفسيرًا يريحها، وبدأت نجلاء تسرد تحليلها للمشكلة، إنها ترى أن سليم أغضب عمه في شيء أو عصاه في أمر ما، وهذا سبب كافٍ أن يعاقبه العم برفض زواجه من ابنته، أو السبب الآخر أن يكون العم عرف عن سليم شيئًا سيئًا في عمله، أو في أخلاقه. ومهما كان السبب، فالحل واحد، أن تتمسك سلمى بحبيبها وتهدد أنها لن تتزوج أبدًا إلا سليم.

استقبلت سلمى كل حديث صديقتها باستياء وبرود وأكدت لها أن الأمر غير ذلك، وأن والدها وسليم لا يمكن أن يختلفا، وسليم لا يمكن أن يعصي أوامر عمه أبدًا لأنه يحبه ويحترمه ويقدره، أما أخلاق سليم فوق مستوى الشبهات ولا يوجد ما يعيب أخلاقه فهو مثال الالتزام والاستقامة في كل شيء، رفضت سلمى تلك النظرية جملة وتفصيلًا وأكدت لنجلاء أن هناك سببًا آخر لا أحد يعرفه إلا والدها.

فهزت نجلاء رأسها ولوت شفتيها ولم ترد، إن كان تحليلها للمشكلة لا يعجب صديقتها فلن تفكر فيها مرة أخرى، وعادت نجلاء تفكر في مشكلتها وهي مشكلة معقدة وبالغة الصعوبة، إنها أمام خيارين كلاهما مر: هل تهاجر مع أخيها أم تتزوج سريعًا من رجل ما زالت غير مقتنعة بشخصيته؟ وبدأت سلمى تطرح الحلول لمشكلة صديقتها وهي أيضًا تقلل من مشكلة صديقتها، وأكدت أنها ليست صغيرة لتهاجر أو تتزوج رغم عنها، إنها صارت ناضجة وتستطيع أن تعتمد على نفسها وتحيا وحدها في مصر وتنشغل بعملها وتنغمس في حياتها العملية إلى أن تجد الزوج الذي تتزوجه وهي مقتنعة به ومقبلة على تجربة الزواج بفرح وسعادة، وظل النقاش والشد والجذب بينهما كثيرًا. كل واحدة تسفه من مشكلة الأخرى إلى أن ملت كلاهما الكلام، وعادت كل منهما إلى بيتها.

الغريب أن نجلاء اتخذت القرار سريعًا بعد جلستها مع صديقتها، وقررت أن تخرج من دوامة التردد المملة، فأبلغت نجلاء أخاها أنها وافقت على إتمام الزواج

سريعًا وتمنت له التوفيق في رحلة السفر والعمل. أما سلمى رسمت على ملامحها علامات الضيق والامتعاض فور دخولها المنزل واعتذرت عن تناول الغداء بحجة أنها ليست جائعة الآن، وأصبحت تقضي معظم وقتها في حجرتها، وافتقد المنزل روحها المرحة ونشاطها المستمر ومداعبتها المعتادة لوالدها وتدللها عليه، في رسالة واضحة أنها غاضبة مما حدث ومتمسكة بسليم.

كان عبد العزيز يدرك الرسالة، يدرك أن ابنته تتمسك بابن عمها ولكن هو لا يستطيع أن يتجاهل مخاوفه، مخاوف كبيرة تمتد جذورها لسنوات بعيدة وماضٍ لا يموت. ما زال عبد العزيز يراهن على أن سليم وسلمى لن يخالفا رأيه مهما حدث.

وبعد ساعتين طلبت سلمى من والدتها أن تخرج لشراء بعض الأغراض فناداها والدها، ورمقها بنظرة غضب كادت أن تحرقها، وسألها بحزم ونبرة صوت أرعبتها إن كانت تريد الخروج لمقابلة سليم؟

فارتبكت وتلعثمت كلماتها ثم تساءلت بصوت منخفض خائف هل ذلك ممنوع؟ فحذرها والدها في غضب من الكذب، فاعترفت أنها كانت ستقابل سليم، إنها تريد أن تراه، أن تسمعه، هذا حقه وحقها.

فاغتاظ والدها واعتبر أن ابنته تتحداه بوقاحة، فوجه إليها كلامًا عنيفًا ولومًا عظيمًا وذكرها بحقوقه عليها، وأولها الطاعة، حذرها من عدم تنفيذ أوامره، لأن رد فعله لن تتوقعه أبدًا، وشعرت سلمى أنها ترى والدها لأول مرة وتستمتع

إليه لأول مرة، أين حنانه عليها وتدليله لها واهتمامه بها؟ فهرولت إلى حجرتها باكية، وأدركت أن كل يوم تزداد الحواجز بينها وبين سليم وكأن والدها قرر فجأة أن يطرد ابن أخيه من كل حياتها، كيف يمحو سليم من أيامها كأنه لم يكن، وهو الذي نشأت معه وكبرت وهو أمامها، حتى اسمها أخبروها أن سليم هو من اختاره، هو لها ليس ابن عمها فقط ولا حتى حبيبها فقط، هو يكاد يكون عالمها بأكمله، لم تقول هذا لأحد وما ظنت أنها ستحتاج لأن تدافع عن وجوده في حياتها يومًا، فوجوده في حياتها حقيقة ثابتة كشروق الشمس وطلة القمر وليالي الصيف وأيام الشتاء، من يستطيع أن يمحو كل هذا من نظام الكون يمحو سليم من قلبها وأيامها.

بينما أمسك عبد العزيز هاتفه وطلب سليم وحذره تحذيرًا صارمًا من استغلال سذاجة ابنته واللعب بمشاعرها، حذره بكلمات صارمة مؤلمة تؤكد أن عبد العزيز لن يتراجع عن موقفه ولن يقبل بزواجهما مهما فعل سليم ومهما فعلت سلمى، قال كلماته السامة التي رشقت في قلب سليم قبل أذنه وأنهى المكالمة.

*****

لأول مرة يطلب منها أن تأتي إلى حجرته ليتحدث معها، هكذا أبلغها الخادم بذلك، دائما هي التي تسعى إليه وتحاول أن تدير حوارًا معه ويصدها هو بالتجاهل المستفز إلى أن تمل وتخرج حزينة يائسة، فابتسمت زينة من قلبها لأول

مرة منذ فترة طويلة، وشعرت بأن هناك باب أمل يفتح من جديد لتعود علاقتها بكمال إلى الحياة مرة أخرى، همت أن تهرول إلى حجرته وتجلس أسفل قدميه وتشكو منه إليه ولكن سرعان ما عادت إلى مرآتها ووقفت دقائق قليلة تتجمل بألوان زينتها وتصفف شعرها وتتطيب بعطرها لتبدو جميلة كما أحبها، وكما يحب أن يراها، بعد أن اطمأنت إلى أناقتها وارتاحت إلى جمالها، سارت مهرولة إلى حجرته ودخلت تحييه في كلمات عذبة رقيقة، فأشار لها أن تجلس على مقعد أمامه، جلست وعينيها تتأمله في صمت وترقب، ترى ماذا سيقول؟ هل سيعتذر لها عن بعده عنها؟ هل هو غاضب منها؟ ماذا سيقول؟ ولما ملت الأسئلة، كفت عن التفكير، فهي تشتاق لكلامه، تشتاق إلى أي كلام منه، إن كان غاضبًا ستحتضنه وتمتص غضبه بهدوء، وإن أراد أن يعتذر ستتصدى لهذا الاعتذار بقبلة حانية، ما تريد منه أسفًا ولا اعتذارًا، فقط تريد أن يفسح لها مكانًا إلى جواره تشاركه فيه كل ما يواجهه من مصاعب، لا تريد إلا أن تكون سنده في رحلة أيامه العسيرة.

كفت عن التفكير، وأبحرت في عينه الحزينة، أي حزن فيها؟ كأنه جمع أحزان الدنيا بين جفنيه ورغم هذا يحاول أن يتصدى لأحزانه بأن يكتمها عنها، ويخفيها خلف ملامح باهتة تخلو من التعبيرات المعتادة، لا تقرأ في ملامحه عبوسًا ولا ابتسامًا ولا فرحًا ولا ألمًا، فقط صمت في كل تفاصيل وجهه إلا عينيه تضج

بكل الألم والحزن الذي يخفيه، كل ما بداخله تقرأه الآن في عينيه كأنها مرآة تعكس كل أسراره الدفينة وأحزانه العميقة.

كانت تنتظر حديثه وهو يبدو أمامها يبحث عن بداية الحوار كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، إلى هذا الحد ما عاد قادرًا على الحديث، ولكنها ظلت تقرأ في عينيه في هدوء، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة تستحلفه أن يزيل كل ما بينهما من حواجز وهمية هو من أقامها بلا سبب.

وبعد دقائق الصمت الأليمة قال في صوت هادئ وعلى شفتيه ابتسامة باهتة ممزوجة بحزنه العميق:

– كل حاجة فيكي جميلة يا زينة، حتى الحزن اللي في عنيكي، حتى خوفك عليًّا وألمك عشاني. إنتي أجمل ما في حياتي.

فابتسمت وبكت في آن واحد وقالت في لهفة:

– إنت وحشتني أوي يا كمال.

– وإنتي كمان، بس أنا كنت بعيد عنك عشان بحبك، عشان بفكر فيكي وفي حياتك. ساعات لما بنحب بنبعد.

– إزاي يا كمال، أنا تعبت أوي في البعد ده.

– صدقيني في حالتنا، القرب هيتعبنا إحنا الاتنين أكثر.

– أنا مش فاهمة حاجة، بس أنا هحاول أفهم، اتكلم يا كمال، أنا عايزة أسمعك، أنا واحشني كل حاجة منك. أنا هعمل أي حاجة تسعدك، أنا بحبك يا كمال.

– بس أنا بحبك أكتر بكتير، والحب ده خلاني هتجنن طول الفترة اللي فاتت، القرار كان صعبًا جدًا بس خلاص مابقاش في وقت، ابني جاي ياخدني بعد يومين.

– ياخدك فين؟

– أوروبا.

– هتسافر تتعالج هناك، دا خبر حلو يا كمال، هسافر معاك.

– زينة، أنا حالتي ملهاش علاج، لا هنا ولا برة، أنا شبه ميت، لكن إنتي الحياة كلها قدامك، أنا الموت وإنتي الحياة وماينفعش الموت والحياة يعيشوا في بيت واحد، أنا هطلقك وأسافر أعيش أيامي الأخيرة مع ابني.

فوقفت منفعلة وانهمرت دموعها وقالت في صوت مجروح:

– إنت بتقول إيه؟ إنت قررت كل حاجة من غير ما تاخد رأيي، إيه القسوة دي، أنا مش عايزة أتطلق، أنا بحبك وعايزة أكمل حياتنا سوا.

وألقت رأسها على نصفه الراكد على كرسي الإعاقة وانهمرت دموعها، ومسح كمال بيديه على شعرها القصير وقال بصوت مهزوم:

– أنا بحبك، وبكرة هتعدي الأيام وتتأكدي إن كل اللي عملته عشان بحبك، أنا ماقدرش أسعدك يا زينة، صدقيني، لو كملنا مع بعض هتكرهيني وأنا عايز أحتفظ ليًّا في قلبك بشوية محبة.

فرفعت رأسها ولمست بشفتيها خديه وقالت في حنان:

– أنا عمري ما أكرهك أبدًا، أنا هسافر معاك ونعيش سوا هناك لو دا يريحك.

– صدقيني، ماينفعش، صدقيني.

– يعني إيه؟

– أنا كلمت سليم من نصف ساعة وهيجي وهنتفق على الطلاق وكل حاجة لازم تتم النهارده.

– كفاية، كفاية يا كمال.

هرولت إلى غرفتها وهي لا تتخيل أنها اليوم ستصبح مطلقة. ارتمت على فراشها تبكي لا تدري ماذا تفعل، كيف تقنعه أنها لا تريد الطلاق؟ كيف يقسو عليها بهذه الطريقة؟ يقول إنه يحبها ويفعل كل هذا من أجلها، وكيف يسهل عليه الفراق إن كان يحب؟ هل كان يجرب الفراق ويتعلمه الأيام الماضية؟ وأول ما اعتاد عليه اتخذ القرار، لماذا لم يمنحها فرصة هي الأخرى أن تتعلم مثله؟ كيف تحول حبه إلى جفاء؟ كيف تحول حنانه إلى قسوة طاغية؟ كيف تحول ضعفه إلى

قوة لا تبطش إلا بها وبمشاعرها؟ كيف؟ وكيف؟ أسئلة كثيرة تكاد تهشم رأسها وتطيح بعقلها الذي عجز أن يفهم ما انتهى إليه حالها. ما أصعب الأقدار!

وبعد أقل من ساعتين جاء سليم بناءً على طلب كمال ودار بينهما حوارٌ طويل، شرح كمال وجهة نظره، ربما انهمرت دموعه وتحرر من قيود كبريائه أمام سليم وبكى كطفل صغير فقد كل أهله. أكد لسليم أنه يحب زينة أكثر من نفسه وهذا الحب يلزمه أن يتجرد من أنانيته، وهل هناك أنانية أكبر من أن تفني زينة شبابها إلى جوار زوج عاجز مثله؟ التزم أمام سليم بمنح زينة كل حقوقها وأكثر، وطلب منه أن يعتني بها ويقف إلى جوارها إلى أن تمر من تلك الأزمة، وتفهم سليم موقفه بل شكره على هذا التفاني والتجرد والحب العظيم.

في الوقت ذاته كان كمال استدعى المأذون، حيث كان يريد أن ينهي كل شيء في هذا اليوم، فلن يموت كل يوم وهو ينفذ ما خطط، فليطعن نفسه طعنة واحدة لعلها الشافية.

وانتهى كل شيء وغادرت زينة بيت كمال وحياته بعدما ودعها بدموعه وودعته بدموعها، وعادت إلى بيت أبيها لتحيا مع أخيها، دون أن تفهم لماذا هدمت حياتها رغمًا عنها؟

*****

انتزعت داليا حريتها كما أرادت وكسرت قيود الماضي التي ملتها وأصبحت امرأة جديدة تملك حريتها وتملك حياتها، ولكنها ما زالت تبحث عن سعادتها، ما زال الماضي يلقي بظلال الألم على الحاضر، ليس من السهل أن تنسى محمود وأيامه، لم يكن مجرد زواج بل كان قصة حب جميلة ورحلة زواج مملة مؤلمة، رحلة زواج ظلت تردم مشاعرها يومًا بعد يوم إلى أن اختفي الحب من أمام عينيها ودفن في قبر قسوته وإهماله، لا تعلم هل تتألم على حبها الضائع أم على أيام عمرها الغارقة في وجع وظلم؟ هل تتألم منه أم تتألم عليه؟

ربما ما زال في حنايا القلب شيء يشفق عليه، لا بد أن ما في قلبها له شفقة وليس حبًا، إنها على يقين أنه سيفتقدها، يومًا ما سيعترف أنه خسرها وخسر أحلى ما فيه وهو حبها له. يومًا ما سيندم ولكن بماذا يفيد الندم؟

كانت تحيا صراعًا نفسيًا بين قلب يعاني جراح الماضي وفي الوقت ذاته يتطلع إلى حياة جديدة، صراع ارتسم على ملامحها وابتسامتها وصوتها، وكان هناك من يراقبها في صمت، يتأمل سكوتها ويتتبع حديثها، كان يراقبها بدقة، ولا يدري ما الذي يشده إليها، هل هذا الحزن الكامن في عينيها السوداء الممزوج بأمل متلهف للحياة؟ أم هذا الجمال الذي يأسر بلا مجهود؟ فهي لا تبذل أي مجهود كي تبدو جميلة في أعين الناس، إنها لا تزيد من زينتها ومكياجها بل كل شيء فيها هادئ. جمالها، صوتها، حديثها، حتى حزنها هادئ لا يشكو للآخرين ولا يلاحظه إلا من يبحث في عينيها طويلًا، ربما هذا الجمال الهادئ تسلل إلى

نفس علي دون أن يدري. ووجد نفسه يبحث عنها بعينيه بمجرد أن يدخل الشركة. يبحث عنها ويراقب الحزن في عينيها يومًا بعد يوم ليدرك كم تخطت من أحزانها! ولكن لماذا يهمه حزنها وألمها؟ لا يدري، ربما هو التعاطف مع زوجة كانت تبدو بالنسبة له زوجة مثالية ويرى أن صديقه ما قدر أبدًا نعمة الله عليه وما حفظ هذا الجمال والكمال الذي بين يديه.

كبر محمود ولكنه ما زال يعيش بقلب وعقل مراهق يلهث خلف الجمال كيفما كان، جمال مجنون أو رقيق أو بريء أو منحل، إنه يلهث خلف أي جمال يصادفه. لا يمل ولا يشعر أنه كبر على هذا الطيش أبدًا، إنه مجنون ويبدو أنه كلما كبر زاد جنونه وغروره وثقته بنفسه.

ورغم كل هذا لم يتجرأ علي أن يبدي شيئًا من اهتمامه، ما زال شديد الحرص على ألا يتعدى معها حدود الزمالة في العمل والمعرفة القديمة، ويكتفي أن يسأل عن حالها بشكل عام كما يسأل أي زميل أو زميلة. ولكن بداخله يتمنى لو تحدث معها حديثًا طويلًا، لو استمع إلى شكواها، لو سمحت لدموعها أن تجري أمامه لعله يخفف عنها شيئًا من عذابها المستتر خلف هدوئها ورقتها الناعسة.

وبات يفكر فيها حتى وهو في بيته، وجهها الرقيق يطل بين أوراق كتبه في وقت فراغه الطويل في المنزل، بل وجد نفسه يتابع صفحتها على الفيس بوك وينتظر أي جديد تنشره لعله يستكشف مزاجها ويستقرأ حالتها.

صارت تشغل أفكاره في ليله ونهاره ولا يدري كيف حفرت لنفسها مكانًا في أيامه دون كلمة، دون نظرة، دون أدنى اهتمام به. إنها النسيم الذي تتنفسه وتبتسم وتنتظر أن ينعشك مرة أخرى بين لفحات الشمس الحارقة، إنها غير أي امرأة رآها، إنها حالة خاصة أدخلته في حالة خاصة لا تفسير لها.

*****

الفصل التاسع

شيء في روحها ينزف، لم تكن تتخيل أنها ستفتقد كمال إلى هذا الحد، عذابها إلى جواره كان أهون بكثير من عذابها بعيدًا عنه، تنام وتصحو على صورته بل تتخيل طوال يومها كيف يقضي أيامه بدونها، هل يذكرها مثلما تذكره؟ لا بد أنه يذكرها ويتألم مثلها، لقد أقسم أنه يحبها، ولكن كيف يحبها ويجبرها على هذا الفراق؟ إنه يحب بعقله لا بقلبه، يفكر في يوم تسأم فيه مرضه وكبره، هذا هو صوت العقل ليس صوت القلب، القلب لا يعرف الحسابات المنطقية ولا يؤمن إلا بالمشاعر، لو استمع لقلبه كان تمسك بها، كان اهتز لدموعها ورجائها، كان رحم عذابها، لكنه تغير، خنق مشاعره منذ أن مرض ومنح عقله كل الصلاحيات، أين كان هذا العقل حينما تزوجها ولم يبالِ بفارق السن بينهما، بل كان يقنعها أن فارق السن سيجعل زواجهما أكثر نضجًا وأكثر توازنًا وأكثر نجاحًا، كان يرى أن نضجه سيقوم طيشها وعقله الراجح سيهدأ من جنون شبابها، وحنانه وحبه سيهدم كل الحواجز بينهما، هكذا كان يحبها، هكذا كان يعشقها، لكن بعد أن أصيب بالجلطة وشل نصف جسده، كأنما الجلطة أشلت مشاعره أيضا، فقد القدرة على الحب، وضاعت هي وأحلامها بين ثنايا عجزه ويأسه، ليتها ما عرفته، ليتها ما أحبته، لقد تركها مجروحة مشلولة الفكر والإرادة وهو يظن أنه برأ من ذنبها ومنحها حريتها

كاملة، أي حرية تلك وما زالت مشاعرها بين يديه وأشواقها تحرقها بحنينها إليه. إنها ما زالت تحب، ما زالت تعطف وتشتاق وتتمنى لو عاد إليها بحبه وحنانه ومرضه وعجزه، إنها تريده بكل عيوبه وهو زاهد فيها بكل شبابها وجمالها. إنه قتلها يوم أن أحبها وأقنعها أن السن مجرد رقم على الأوراق ولكن القلوب تحيا بكامل شبابها طالما تحب، وقتلها يوم أن فارقها متجاهلًا ألمها وعذابها. لقد قتلها مرة بحبه وحنانه ومرة ببعده وقسوته، هكذا ترى كمال ورغم كل هذا ما زالت تحبه، ما هذا الرجل وكيف امتلكها بهذه الصورة؟ لقد أهملها إهمالًا قاسيًا وأخرجها من حياته إخراجًا مذلًا.

ولكن رغم كل هذا ما زالت تحبه، ما زالت تذكر نظرة عينيه لها، نظرة فيها الكثير والكثير غير كل ما قال وغير كل ما فعل، نظرة تقسم بحبه لها وتئن وتشكو حاله بدونها، نظرة تخاف أيامه بعدها، تلك النظرة المعذبة الخائفة ما زالت تحاصرها وتعزف على أوتار قلبها الجريح لحنًا حانيًا رقيقًا يبرر كل أخطائه ويغفر كل خطاياه، تلك النظرة التي تشعل مشاعرها وتجعلها تقول من كل قلبها (غفرت لك يا حبيبي كل شيء)

ما أغرب مشاعرنا، قد نحب من عذبنا وقد نسامح من ظلمنا وقد نغفر ما لا يغفر لشخص نحبه حتى ولو لم يقدم كل أوراق الغفران، ولكنه دون أن ندري حبنا له قد يمحو كل ذنوبه ويعيده كطفل بريء في مهده بلا ذنوب ولا خطايا، الأكيد أن لا قواعد للعشق وليس كل شيء في الحب له تفسير، هو إحساس

أعمى يقود ولا يقاد، يأمر ولا يؤمر، متى تنفذ المشاعر يصحو العقل ويتسلم الراية فيقودنا بنضجه وتوازنه وموضوعيته، فكرت طويلًا ودعت الله أن ينفد حبه من قلبها كي تهدأ وترتاح وتشفى من الجراح.

*****

عز اللقاء بين سلمى وسليم وأصبح ما بينهما مجرد مكالمات هاتفية تطمئن على حاله ويطمئن على حالها، أيام صعبة مضت على كليهما، كل شيء باهت بلا لون وبلا طعم وبلا رائحة، كأن الشمس تشرق حزينة وترحل حزينة عليهما والقمر يحضن السماء بنور أقل سطوعًا وأقل بهجة، كأن النجوم نورها منكسر كما انكسر قلباهما، كل شيء مختلف في البعد، إنه أول بُعد بينهما ويا له من بُعد، كان سليم يعلم أنه يحبها ولكن ما كان يظن أنها أنفاسه ونبض قلبه، إنه يعاني من ألم قلبه وانكسار روحه منذ غادر منزل العائلة، لكن ما زال سليم لا يحب أن يخالف عمه، فالتزم بطلبه واحترم أمره.

قاده الحنين إلى بيت عمه في ليلة جمعة، إلى كل الذكريات والأيام الحلوة هناك، استقبلته الأم بثينة بالترحاب والدموع، وأصرت أن يتناول العشاء معهم وهرولت ومعها أم هنا إلى المطبخ لإعداد طعام شهي وبعض الأصناف التي يحبها سليم سريعًا واتصلت بزوجها الذي كان في جلسة مع رفاقه القدامى خارج البيت، وأخبرته أن سليم جاء لزيارتهم، ودعته أن يأتي ويكمل سهرته في هذا

الاجتماع العائلي الجميل، ولم تكن سلمى تعلم بهذه الزيارة، وما إن علمت بقدومه حتى هرولت إلى مرآتها لتخرج له في أجمل وأزهى صورة.

كان سليم يجلس يتابع شاشة التلفاز في صمت في انتظار أن يأتي عمه أو تفرغ أمه مما تعد، ولكن قلبه كان ينتظرها هي، وعينيه تطل على باب غرفتها وأذنه تترقب صوت الباب وهو ينفتح لتطل عليه بنورها، إلى أن رآها تخرج من غرفتها فوقف وعينيه تحرس خطواتها، بينما هي تخطو نحوه مسرعة في فستان أحمر طويل وشعرها حر يتطاير مع خطواتها، ومدت يدها تسلم عليه فقبض على كفها بكفيه وتاهت كلماتها في نظراته الحانية، وصمتت، فابتسم لها وسألها عن حالها فما تذكرت من آلامها إلا شوقها إليه، وجلسا إلى جوار بعضهما يرويان روحهما من حلاوة اللقاء، ودار بينهما حديث رقيق مغلف بكلمات الهوى والعشق، فما زادهما البعد إلا عشقًا على عشق وشوقًا على شوق ولكن الكلمات كلها لا تفي بوصف المشاعر والأشواق، فكف كلاهما عن الكلام. ومرت دقائق صامتة تحملت عيناهما عبء الكلام وثقله وفاضت بعذاب الحرمان وألمه، فلمعت عيناها بالدموع وباحت له بخوفها على حبهما من أن يضيع ويسقط أمام عناد والدها، فأكد لها سليم أنه لن يسمح أبدًا أن يضيع حبهما لأن روحه معلقة بهذا الحب، وعدها بأن يدافع عن حبهما بكل عمره ويتمسك بها طوال حياته.

وفجأة انتبه كلاهما إلى صوت باب الشقة يفتح، فوقفت سلمى في ارتباك وهرولت إلى المطبخ وجلس سليم مكانه في انتظار دخول عمه وهو سارح فيما انتهى إليه أمر علاقته بسلمى، إنها تخاف أن يراها والدها تجلس معه وتتحدث إليه. جلس حزينًا وفي عقله سؤال لماذا؟

دخل العم مبتسمًا ومرحبا بابن أخيه، حضنه وقبله وسأله عن حاله باهتمام وتطرق إلى أحواله في عمله سواء في الصيدلية أو في المطاعم التي يديرها مع صديقه، ثم تحدث معه عن زينة وعاتبه أنه لم يتركها تأتي إلى هنا، بل طلب منه أن يترك زينة تقيم هنا مع سلمى وزوجة عمها، للفتيات حديث آخر، وحديث بثينة معها قد يهون عليها الكثير، كرر العم طلبه بل أكد له أنه سيأتي بنفسه ليأخذها لتعيش في بيت عمها وبيتها، فأبدي سليم استحسانه للفكرة وأكد أنه لا يمانع أن تقيم زينة في بيت العائلة مع ماما بثينة إن كانت تلك رغبتها. ثم صمت سليم وصمت العم، وسليم يريد أن يفتح من جديد موضوع زواجه من سلمى فقال في تردد واضح:

– عمي، في موضوع بينا ماوصلناش فيه لحل، أنا لسه عندي أمل إن حضرتك توافق على جوازي أنا وسلمى، يا عمي أنا سليم ابنك تربية إيدك، قولي إيه اللي مزعلك مني وأنا هصلح أي عيب فيَّا عشان أكون عند حسن ظنك، أرجوك يا عمي.

– تاني يا سليم، إنت أحسن شاب في الدنيا، ماقدرش أقول إن فيك عيب يا ابني.

– طيب خلاص، يعني حضرتك وافقت، مش كده؟

– اعتبر العيب فيَّا، اعتبر العيب في بنتي، إنتم ولادي وغلاوتكم واحدة، بس بلاش جواز يا سليم، جوازكم ممكن يهد كل حاجة.

– أنا مش فاهم حاجة أبدًا، اللي بيتهد هو أنا، وأنا بتحرم من حب عمري من غير أي سبب، من غير أي ذنب، حضرتك لو قاصد تدمرني مش تعمل كده.

– أنا يا سليم بدمرك؟ دا أنا اللي عملتك.

– يا ريتك ما عملتني ولا ربتني في بيتك ولا خلتني أكبر كل يوم وحبها بيكبر جوايا وبعد كده عايز تحرمني من كل حاجة مرة واحدة.

قال كلماته بحزن طاغٍ وأسى ثم خرج في صمت وقذف باب الشقة خلفه، فخرجت الأم بثينة وابنتها من المطبخ على صوت الباب وكانت المفاجأة لهما أن سليم غادر، فصاحت بثينة في غضب:

– حصل إيه، مشي ليه، قولتله إيه يا عبد العزيز؟

فوقف الأب وشوح بيده غاضبًا ودخل غرفته وأدركت الأم أن سليم فتح نفس الموضوع وأن عبد العزيز خذله كما اعتاد فغادر سليم بقلب منكسر.

وقفت مكانها وكل شيء يدور حولها، وعقلها يكاد يفتت من التفكير وسؤال يعلو في أذنيها كطلقات الرصاص: ماذا يخفي زوجها؟ ولماذا يقف بكل قوته ضد زواج سليم وسلمى؟

أصبح هذا لغزًا يرهقها ويؤلمها ويشغل كل تفكيرها وما زال الجواب مختبئًا، سر دفين يخفيه عنها زوجها ورفيق عمرها الذي ما اعتاد أن يخفي عنها شيئًا، وكأنها أمام رجل لا تعرفه بأسرار لا تعرفها. بينما سلمى هرولت إلى غرفتها وأمسكت هاتفها واتصلت بسليم، وسألته لماذا غادر فجأة؟ حكى لها ما دار بينه وبين عمه، وأن عمه ما زال على موقفه الغامض ورفضه القاتل وبلا أي أسباب واضحة، كان يحكي وهو يقود سيارته منفعلًا غاضبًا، إلى أن سمعت سلمى صوت اصطدام وانقطع الاتصال، فأخذت تصرخ وتردد سليم سليم، وتكرر محاولات الاتصال به وهي تصرخ في البيت (ماما سليم عمل حادثة، بابا سليم عمل حادثة) ودموعها تنسكب بغزارة وتبدو في حالة انهيار.

فزع عبد العزيز وزوجته وهرول عبد العزيز يرتدي ثيابه لينزل إليه وما زالت سلمى تحاول أن تتواصل مع سليم، وبعد بضع دقائق، أنار هاتفها باتصال منه فردت سريعا وهي تبكي:

– سليم.

– اهدي، اهدي أنا تمام، ربنا ستر.

- إنت فين أنا لازم أشوفك، فاختطف والدها منها الهاتف وتحدث إلى سليم.
- إنت كويس؟ طمني يا ابني.

كان يسأل بلهفة أب يخاف على ابنه، يسأل بصوت ممزوج بالقلق بل يتمزق من القلق والخوف عليه.

فقال سليم:

- أنا كويس والله يا عمي.
- لا إنت مخبي عليا، أنا لازم أشوفك أنا هجيلك.

فضحك سليم وقال:

- هتشوفني وحضرتك في مكانك، أنا هبعتلك صورتي وصورة العربية.

أرسل سليم صورة له وهو يقف إلى جوار سيارته التي أصابها بعض العيوب بعد الاصطدام السابق.

فارتاح الجميع عندما رأوا صور سليم وتأكدوا أنه بخير فقال له عمه:

- فداك يا حبيبي العربية، أنا من بكرة أجيبلك عربية جديدة ولا تزعل نفسك.

فقال سليم:

- شكرا يا عمي، ماتقلقش العربية تتظبط عادي، أنا هكلم زياد وهو يعرف مين يرجعهالي تمام تاني.

أنهى العم الاتصال بعد ما اطمأن على سليم، وعاد إلى غرفته ومعه زوجته التي كانت تنظر له في استغراب ودهشة بالغة، أمعنت النظر إليه ثم قالت:

- اللي يشوف لهفتك على سليم ما يصدق إن إنت اللي قاهر الولد ومغلبه غلب السنين. ولما هو حبيبك وهتجيبله عربية، رافض تجوزه بنتك ليه؟

فنظر لها باندهاش أكثر وقال في استياء:

- سليم دا ابني، إزاي ماخافش عليه، دا أنا أفديه بروحي.

- هو مش عايز روحك يا عبد العزيز، هو عايز يتجوز سلمى، إنت رافض ليه؟

- يا ناس حرام عليكم، بنتي كبرتها وربتها ومن حقي أختار عريسها.

- ماله سليم، إنت هتجنني.

- سليم أحسن شاب وبنتي ست البنات بس ماينفعوش لبعض، نامي بقى، وكفاية كلام.

أنهي عبد العزيز الحوار مثلما ينهيه كل مرة بلا أي أسباب مقنعة، كلما تكلم استفز الجميع برفض بلا سبب ولا يصاحبه أي منطق. جدل يستمر قدر ما يستمر ولا ينتهي إلى نتيجة تريح أحدًا، حتى عبد العزيز نفسه غير مرتاح لأنه يعلم أن رفضه يؤلم الجميع، فهو يبدو أمامهم جميعًا معذبهم رغم أنه يتعذب لعذابهم، بل ربما يتعذب أكثر منهم لأنه لا يستطيع أن يبرز حجته ولا أن يبرئ

نفسه أمام أحد منهم من تهمة تعذيب من حوله. إنه ما زال يراهن على الوقت، يراهن على الزمن، أن يذل المشاعر ويرهقها إلى أن تموت تدريجيًا وتصبح حكاية حبهما في طي النسيان.

*****

ما زال محمود يلهث خلف نورهان العصية عليه، كلما زاد عنادها اشتد انجذابه لها، كيف ترفض حبه؟ كيف لا تذوب أمام اهتمامه ونظراته، لقد منحها ما لا تحلم به فتاة، لقد طلب منها الزواج، كثيرات يتمنين هذا العرض ويسعين بكل قواهن لأن ينطق يومًا ويطلب الزواج منهن ولكن هي وحدها من رآها تستحق أن تحمل اسمه وتكون زوجته المصون لأنها تستطيع أن تصون اسمه وشرفه وكرامته، إنها جميلة الملامح ورفيعة الأخلاق، إنها من النماذج القليلة التي قابلها ما زالت متمسكة بالعادات الشرقية الأصيلة، وهذا ما يزيد تمسكه بها ويطيل صبره عليها.

أما نورهان كانت تدرك أنه مشغول بها وجاد في سعيه لها ولكنها تخاف منه، وتضع نصائح والدتها نصب أعينها مما يزيد قلقها من رجل سبق له الزواج ولا تدري إن كان هو أو مطلقته السبب في فشل الزواج، هو يقول إن طليقته لم تفهمه ولم توفر له حياة زوجية هادئة مستقرة، هكذا يقول عن طليقته وربما كل رجل يرجع أسباب فشل زواجه السابق إلى الزوجة، وربما كل زوجة تعلق أسباب

فشل زواجها على طليقها، إنها الطبيعة البشرية التي ترفض أن ترى عيوبها أو تتحمل مسئولية الفشل وترتاح أن يكون هناك آخر هو سبب كل إخفاق.

وبدأ محمود يطلب مقابلتها بعد مواعيد العمل ويلح في الطلب إلى أن توافق، وكل مرة يبهرها في حديثه ويفيض عليها بكلامه المعسول وبنظراته المغناطيسية، ورغم قلة تلك المقابلات إلا أنه بدأ يضعها في صراع نفسي بين صوت يدفعها أن تحب من يحبها وصوت يحذرها من تجربة قد تخرج منها بجراح وندم.

واحتدم الصراع في نفسها، فعادت تبوح لوالدتها بكل ما في قلبها، استمعت الأم إلى ابنتها بإنصات ثم حددت له موعدًا لمقابلتها هنا في البيت، إنها تريد أن تراه وتتعرف عليه، ربما بعدما تقابله وتتحدث معه تستكشف شخصيته، ربما المقابلة تؤكد مخاوفها أو تزيلها، وجدت الأم أن هذا هو الحل الوحيد، لا بد أن تعرف من يحوم حول ابنتها ويحاصرها، لا بد أن تقابله لعلها تقيم شخصيته وتعطيه قدره الحقيقي.

جاء محمود في الموعد المحدد بالدقيقة في كامل أناقته، يحمل باقة رائعة من الزهور وهدية ذهبية راقية الذوق وعالية القيمة، وقابل محمود أم نورهان، ووجد نفسه أمام امرأة لبقة أنيقة رشيقة محتفظة بجمالها، ربما ورثت نورهان الجمال من والدتها، رحبت به السيدة سهير والدة نورهان وقدمت له القهوة والحلويات الشرقية الفاخرة ثم بدأت تسأله وطلبت منه إجابات واضحة عن أسباب طلاقه من زوجته، فقال لها في ثقة واعتزاز:

سبق وقولت لنورهان إن زوجتي الأولى ماقدرتش تفهمني ولا تريحني وانفصلنا في هدوء.

- بمعنى إيه؟
- أنا مش هقدر أجرح في إنسانة كانت مراتي سنين، هي ماقدرتش تفهمني وتريحني وبس. لكن دا مايمنعش إنها إنسانة محترمة جدًا.
- يبقى جايز إن انت اللي مافهمتهاش.
- جايز، المهم إننا ماعيشناش سعداء مع بعض، وانفصلنا بهدوء واحترام، أنا من حقي أبدأ حياة جديدة.
- وليه مع بنتي؟
- بنتك أجمل بنت وأرق بنت وحاسس إننا هنقدر نسعد بعض، الحب مالوش أسباب.

ثم ابتسم محمود بينما قلبت الأم شفتيها وأدركت أنها أمام رجل يجيد الكلام والحوار وعذرت ابنتها في تأثرها بكلامه، وجلست دقائق صامتة تفكر كيف تبعده عن ابنتها، في نظراته شيء يقبض قلبها، في حديثه شيء يخنقها، رأيها فيه لم يختلف بعد المقابلة. لكنها تأكدت أنه يتمسك بابنتها ولن يرتاح إلا إذا حقق ما يريد.

وعادت للحديث معه عن إمكانياته وعلمت منه أنه يعد شقة جديدة وستختار نورهان كل شيء فيها بنفسها ولن تتزوج أبدًا في شقة زواجه الأول. وتباهى

محمود بإمكانياته وأنه مستعد لكل طلباتها. ولكن الأم عادت لتؤكد أن جلستها معه اليوم فقط للتعارف وما زالت تقيم الموضوع، وتفكر في الأمر كله ولم تتخذ قرارًا بعد.

انتهت المقابلة وغادر محمود وهو سعيد مرتاح يشعر أنه اجتاز الكثير من عقبات زواجه من نورهان. غادر وهو على يقين أن المسألة مسألة وقت ستنتهي بالموافقة والمباركة والزواج كما يريد، وما اعتاد أن يريد شيئًا ويفقده أبدًا.

*****

الفصل العاشر

ما أغرب الأيام وتبدلها، شعر زياد أن هناك طاقة نور تفتح أمامه من جديد وبدأ يخفق قلبه بحب كان يخبئ نوره طويلًا بين أعباء الأيام المتواصلة، جلس يفكر في ليل وحدته الطويل كيف سينتهي أمر حبه الذي يؤرقه وحده؟ حب أخفاه عن الأعين كلها وما جاءته الفرصة أبدًا ليعبر عنه، والآن قد تكون فرصة العمر تناديه وتنتظر منه خطوة التقدم ومحاولة الاقتناص، لماذا لا يستغل صداقته بأخيها ويحاول أن يقتحم أيامها الحزينة ويعيدها إلى الدنيا الحلوة، دنيا حبه التي تنتظرها منذ سنوات وفرت منها إلى دنيا خريف باردة، اليوم خانها الماضي ذو الشعر الأبيض وعليه أن يهرول إلى أيامها قبل أن تضيع منه مرة أخرى، عليه أن يهرول إليها بكل حبه وحنانه وربيع شبابه، لا يصح أن يبقى يراقبها من بعيد، ويعشقها من بعيد ثم تتوه منه في أي دنيا أخرى من جديد ويبقى هو في نفس وجعه وفي نفس وحدته. لن يتركها تضيع منه مرة أخرى، سيبوح بحبه لسليم، ولا بد أن سليم سيساعده كي يقترب من حياتها شيئا فشيئا إلى أن تبادله الحب الصادق.

إن سليم سيفهمه، إنهما ليسا مجرد صديقين بل أكثر من ذلك بكثير، منذ أن تعرفا على بعضهما وهما لا يفترقان أبدًا، رغم أن كل منهما دخل كلية مختلفة لكن ظلت علاقتهما وطيدة وازدادت قوة بالمشروعات التي بدآها سويًا وكبرت

وهما معًا، كل منهما وجد ضالته في الآخر، ربما يشتركان في اليتم والحرمان، إذ إن زياد أيضًا توفي والداه في حادثة وتربى في حضن جدته، وبعدما توفت جدته وهو في آخر سنة دراسية في الجامعة، أصبح وحيدًا، فازداد تعلقه بسليم ورأى فيه الصديق والأخ والسند وأبدًا لم يخذله سليم في أي موقف، فهو دائمًا عند حسن ظنه، وكذلك رأي سليم في زياد الأخ والسند الذي لم يجده في محمود ابن عمه رغم أنهما في بيت واحد، لقد كان دائمًا هناك جدار فاصل ومسافة كبيرة بين محمود وسليم لم يحاول أي منهما أن يجتازها. فقد كان سليم يعلم جيدًا أن محمود يرفض وجوده في البيت منذ أول يوم، ربما يغار منه، ربما لا يحبه، ربما لأنهما شخصيتان مختلفتان في الطباع والقناعات والسلوك، لهذا ظل سليم وزياد رفيقين لا يفترقان يجمعهما تفاهم وانسجام وتقارب فكري.

قرر زياد أن يبوح لصديق عمره بسر حبه الكبير الذي لم يبُح به أبدًا، قرر أن يكفر عن خطأ قديم وصمت مميت سلب منه فرحة العمر.

وفي اليوم التالي وأثناء تواجدهما سويًا في مكتبهما في المطعم، كان سليم جالسًا سارحًا في مشكلته مع عمه واللغز الذي يخفيه عنه، لقد فكر طويلًا في موقف عمه وحاول كثيرًا أن يفسر هذا الموقف الظالم ولكن لم يصل أبدًا لتفسير ولم يقدم له عمه أي سبب منطقي، وتركه يدور في حلقة مفرغة من الهم والألم والحرمان.

كان سليم يدور بين ذكرياته الكثيرة في سكوته ويجوب بين سراديب إحباطه ويأسه وخوفه ولا يتكلم، بينما صديقه جالس أمامه يراقبه ولا يعرف كيف يبدأ الحديث عن حبه الكبير وراوده بعض التردد هل هذا وقت مناسب؟

إن سليم في حالة اكتئاب شديدة وضيق بالغ، ربما عليه أن يؤجل الإفصاح عما يريد لوقت أفضل ولكنه صوت حبه يلومه ويعنفه ويقول له موبخًا: ستظل صامتًا إلى أن تضيع منك حبيبتك مرة أخرى أيها الأبله الغبي.

فقطع زياد الصمت فورًا وسأله عن أحوال زينة بعد الطلاق، فرد سليم في حزن أنها ما زالت متأثرة بطلاقها وحزينة، ولكنه يثق أنها ستمر من هذه التجربة المؤلمة بخير ولكن الأمر يحتاج بعض الوقت، فصمت زياد من جديد وكأنه تراجع عن اعترافه بحب زينة ولكن قلبه لا يقبل، ويثور على تردده ويكاد يقفز من بين ضلوعه ليعترف بما فيه. فقال زياد في ارتباك بالغ واضطراب واضح:

- سليم، أنا في سر مخبيه عليك وكان لازم أقوله وخلاص مابقتش قادر أخبيه أكتر من كده.

فنظر إليه سليم بتركيز وقال في اندهاش:

- سر إيه يا زياد، من إمتى في بينا أسرار؟

- أنا بحب.

فضحك سليم وهو يضرب كفًا على كف ثم قال:

– بتحب؟ يا ابني وقعت قلبي، سر ومخبيه وكلام كبير، أنا قولت في مصيبة في الشغل وأنا مش عارف، على العموم دا سر عظيم وحاجة تفرح في وسط الضباب اللي أنا فيه، يا ترى مين المحظوظة دي؟

– تفتكر إنها سعيدة الحظ فعلًا؟

– يا خبر، إنت مش عارف قيمة نفسك ولا إيه يا زياد. اسمع أنا مش هسيبك غير لما أعرف مين العروسة؟

– إنت الوحيد اللي يهمني إنك تعرف؟

– هو ينفع حد يعرف قبلي يا زياد؟ دا أنا بحكيلك كل حاجة وإنت بتحب من ورايا، بس أنا مسامح، وبعدين بقى إحنا مش نستنى ونضيع وقت، إنت خلال كام يوم تكون خطبت وترتب فرحك كمان كام شهر.

– المهم العروسة ترضى وإنت ترضى.

فصمت سليم لثوانٍ ثم قال:

– زياد، أنا مش فاهم حاجة، وأنا مكتئب يا صاحبي، بجد مش فاهم منك حاجة.

– أنا بحب زينة، من زمان يا سليم، من قبل ما تتجوز كمال لكن اللي حصل بقا.

فنظر إليه سليم باندهاش ثم قال:

- زينة أختي، طب ليه ماقولتش، معقول؟ أنا عمري ما حسيت إنك بتفكر فيها أبدًا.
- أنا كنت هخطبها منك بعد ما تنجح على طول وللأسف قبل ما أتكلم عرفت منك إنها بتحب كمال وإنت كنت هتتجنن وأنا كمان ماكنتش مصدق إن كل حاجة بتخلص قبل ما تبتدي بس النصيب، وأنا حاسس إن ربنا بيقربها مني تاني.

ارتسمت السعادة والارتياح على ملامح سليم وقام من مقعده وحضن زياد وقال له:

- إنت صاحب عمري ومش هستأمن حد على حتة من روحي أدك، دا أجمل خبر سمعته يا زياد.

واتفقا سويًا على أن يختلق سليم الظروف والمناسبات التي تتيح لزياد الاقتراب من زينة ليطرق بعشقه على باب قلبها الموصد أمام الحياة كلها في هذه الأيام.

*****

جاء موعد زفاف نجلاء وخالد وتألقت العروس في ليلة العمر وكان كل شيء رائعا، والعروس مبتهجة متفائلة بحياتها الجديدة، تفتخر بجمالها كلما همست زميلاتها في أذنيها عن روعة فستانها أو جمال مكياجها أو لون شعرها، وقد نال

خالد نصيبًا كبيرًا من ثناء الصديقات، ما زاد سعادتها وارتياحها وإعجابها بنفسها وزوجها، إنهن يحسدنها على زوجها، على جمالها، على حفل عرسها الفخم، إنها ترى غيرتهن منها في أعينهن وفي ابتسامتهن، كل هذا أثبت لها أنها فعلت الأفضل واختارت الأفضل، لقد كان قرار زواجها من خالد قرارًا صائبًا، لم يكن قرارًا متعجلًا ولا قرارًا عقلانيًا، لقد كان قرارًا حكيمًا منطقيًا، أراح عقلها وقلبها أيضًا، لأن قلبها وعقلها اتفقا سويًا على شيء واحد، أنها ستكمل لخالد كل ما ينقصه بعد الزواج ستعالج كل عيوبه، ستعلمه كيف يحب وكيف يعشق وكيف يرسم مشاعره أمامها في لوحة هندسية بديعة تملأ أيامها سعادة وحبًا، إنه شاب ذكي وناجح وأكيد أنه قابل للتعلم، إن كان ينقصه بعض من الرومانسية أفضل بكثير من أن ينقصه أموال، إن الأموال مهمة وتجعلها تبدو بالمظهر اللائق أمام الناس. جلست متباهية بجمالها وذكائها وزوجها في ليلة العمر الرائعة.

كانت سلمى بين الحضور، تتخذ مكانها إلى جوار صديقتها أغلب الحفل، ولم يسمح لها والدها أن تذهب وحدها فجاءت في صحبة والدتها التي ظلت جالسة مكانها منذ بداية الحفل، أطلت سلمى بفستان أنيق هادئ في لونه ونقوشه وما يزينه من إكسسوارات، كانت طلتها هادئة رقيقة غير متكلفة في زينتها، فكانت كالسهل الممتنع، وزادتها جمالًا ورقيًا وإشراقًا.

سرحت سلمى بخيالها وشردت بعيدًا وتخيلت نفسها تحيا نفس اللحظة وتزف في ليلة بديعة إلى حبيبها سليم، وقفت تشاهد صديقتها وهي ترقص رقصة

هادئة مع زوجها وتخيلت نفسها تراقص سليم وابتسمت وهي تفعل في خيالها ما حرمه عليها الواقع المؤلم، واندمجت في الخيال دقائق تناست فيها كل الحضور وما رأت إلا نفسها في حضن سليم، ترتدي فستان زفاف بديعًا، وحبيبها يلفها بذراعيه ويعاهدها على سعادة لا تنتهي إلى آخر العمر.

وما أعادها إلى الحفل والواقع إلا صوته، إنه هو، واقف أمامها في كامل أناقته يهمس في أذنها:

- بحبك، عقبال ليلتنا.

فشهقت من المفاجأة وقالت في سعادة بالغة:

- مش معقول، ماقولتش إنك هتيجي.
- بصراحة هموت وأشوفك، وماينفعش أسيب القمر ده لوحده في فرح زي ده.

كانت بثينة تنظر لهما من مقعدها وهي سعيدة مبتسمة، وراحت بخيالها إلى نفس ما تخيلت سلمى، كم تنتظر هذا اليوم الذي تطمئن فيه على ابنتها مع زوج صالح يحافظ عليها، وهل هناك أفضل من سليم؟ فأقسمت بينها وبين نفسها أن سليم هو أفضل زوج لابنتها وما تمنت سواه لابنتها الحبيبة. وعندها طل في خيالها وجه عبد العزيز بعناده وقسوته، تذكرت كيف يرفض هذا الزواج بكل قوته، فذابت ابتسامتها في حيرة لا تنتهي.

انشغلت سلمى عن العروس بحديثها مع سليم، اتخذا سويًا جانبًا فيه بعض من الهدوء وأقل قدرًا من الصخب، وحكى كلٌ منهما للآخر عذابه في البعد ووعد كل منهما الآخر ألف وعد بأن حياته وأيامه مكتوبة ومرهونة بحروف اسم حبيبه فقط إلى آخر العمر.

وتلقت بثينة اتصالًا من زوجها يطلب منهما العودة وعدم التأخر أكثر من ذلك، فنادت ابنتها تنفيذًا لأوامر زوجها، وركبت سلمى سيارتها مع ووالدتها وتبعهما سليم في سيارته إلى أن وصلا المنزل، وأشارت سلمى ووالدتها لسليم مودعتين له وبادلهما سليم التحية وأكمل مشواره إلى بيته.

*****

تغيبت داليا عن عملها يومين واشتعل في قلب علي حريق من القلق عليها، قلق عنيف لم يحتمله أبدًا، فاتصل بها هاتفيًا للاطمئنان عليها وعلم منها أن والدتها مريضة في المستشفى ولا بد أن تكون إلى جوارها، فعرف منها في إيجاز مشكلة والدتها الصحية وفي أي مستشفى ترقد، وفور انتهاء العمل زارها ليكون إلى جوارها في هذه المحنة، وبالفعل كانت داليا هناك وحيدة، حيث غادر خالها إلى بيته ليرتاح قليلًا بعدما كان معها منذ احتجاز والدتها بالمستشفى.

تأمل علي ملامحها الرقيقة التي ما زالت تتصنع الهدوء ولكن القلق على والدتها كان بارزًا في نظرة عينيها ونبرة صوتها، كانت مرهقة إلى درجة الإعياء، عيونها الجميلة أرهقها السهر وأجهدتها الدموع، كل ما فيها يشكو ويئن ولكنها كعادتها

تئن في هدوء وصمت، فلا تحب أن تشكو إلا لنفسها، ربما لا تثق في أحد، ربما لا تحب أن تزعج أحدًا، تحافظ على روحها دائمًا رقيقة كالنسيم مهما فاض عذابها ومهما تضاعف خوفها. تترك أيامها تجري في هدوء النهر، وتدفن كل مشاكلها في الأعماق السحيقة فلا يصل أحد إلى أسرارها وأوجاعها أبدًا. ولكنه يرى بقلبه وروحه كل ما تخفى، يرى قلقها وحيرتها وخوفها وتمزقها، يرى ما تخفي من أوجاع عاصفة خلف هذا الهدوء المبالغ فيه.

جلس إلى جوارها ساعة وهي لا تتكلم كثيرًا، وكلما تكلمت شكرته على اهتمامه. وهو يشعر أن الدقائق تهرول ولا يرغب في المغادرة فقال لها:

– أنا هفضل معاكي لغاية ما خالك يرجع. جايز تحتاجي حاجة.

– يا خبر، كتير أوى يا على كده، ربنا يخليك أنا مش محتاجة حاجة.

– وأنا فاضي ومش ورايا أي حاجة إلا لو كان وجودي مضايقك.

– أبدًا، بس القعدة هنا متعبة جدًا.

– يا ريت كل التعب إني أكون قريب منك.

لا يدري ماذا قال ولا كيف قال هذا الكلام، قال ما في قلبه بعفوية بالغة ودون ترتيب ودون تفكير، فأثارت كلماته انتباهها وهزت هدوءها، وارتبك كلاهما وحاول علي تدارك الموقف فقال:

– إحنا زملاء وأصدقاء ومعرفة قديمة ولازم نكون سند لبعض.

،،أنا هجيب حاجة نشربها، إيه رأيك؟

هزت رأسها بالموافقة، وما زالت صامتة كأنها تفكر في كلماته في هدوء، لا تدري ماذا تقول؟ هي ليست بكامل تركيزها ولا صفاء ذهنها حتى تدرك ماذا يقصد من هذا الكلام، هل يحمل معنى الصداقة والزمالة كما قال، أم أن كلامه يحمل معنى آخر؟ لا تدري. الأهم الآن أن تقوم والدتها من مرضها وتعود إلى بيتها وستجيب الأيام غدًا عما لا تفهمه الآن، وستأتي الإجابة واضحة كالشمس دون أن تجهد نفسها في التفكير، فيكفيها ما هي فيه من إجهاد. فلتصدق ما قال إلى أن تأتي الأيام بجديد.

عاد علي بعد دقائق بمشروب القهوة التي تحبها وبقي معها ساعة أخرى، لم تتكلم فيها إلا عن حالة والدتها وارتفاع ضغط الدم وارتفاع السكر وخوفها عليها. بينما هو يستمع إلى صوتها العذب كأنه يستمع إلى سيمفونية موسيقية ملهمة، يستمع في استمتاع يضفي الارتياح على وجهه.

وجاء خالها وتعرف على علي ورحب به جدًا وشكره على اهتمامه، وبعدها انصرف علي وهو يشعر بالسعادة، أي سعادة تلك وهي قلقة حزينة خائفة؟

لا يدري ولكنه سعيد بهذا الوقت الذي قضاه إلى جوارها، رغم قلة الحديث، رغم توترها رغم قلقها ولكنه سعيد، مجرد رؤياها وسماع صوتها كافٍ أن يسعده، عندها تأكد أن في قلبه شيئًا لها عليه أن يعترف به لنفسه، ويقر به بمعناه الحقيقي. وفي اللحظة ذاتها في عقله صوت يقول له:

- تمهل، إنها كانت زوجة صديقك، قد تكون ما زالت تحبه؟ قد يكون ما زال محمود يحبها؟ قد يسعى محمود إليها من جديد؟

فرد عليه قلبه باستياء:

- ما هذا؟ ما الذي يقوله عقلك المزعج الكئيب؟ إنها أبدًا لن تعود، هي من أصرت على الطلاق، ولو كانت تريد محمود ما كانت تركته، ولقد أكد محمود أنه سيتزوج، نعم إن تزوج محمود فليس هناك خط رجعة بينهما.

إذن عليه أن يعرف أخبار صديقه. ليطمئن على راحة قلبه، وراحة قلبه في أن يختفي محمود من حياة داليا.

*****

لم تستطع نورهان أن تهرب من خيوط محمود التي تشدها إليه كلما فرت، حديثه الناعم ونظراته المغناطيسية الهائمة وعينه التي تحاصرها طوال اليوم جعلتها تعيد التفكير في أمره، ولكن هذه المرة كان صوت القلب أعلى بكثير من صوت العقل، لماذا تهرب من حب يناديها؟ لمجرد أنه تزوج قبلها، لم تحاسبه على ما أقره الشرع؟ أتحرم ما حلل الله؟

بدأت تتناقش مع والدتها وتطالبها أن توافق على فترة خطبة تقترب فيها منه وتتأكد من صدق مشاعره. كانت الأم ما زالت غير مرتاحة لمحمود، ما زالت

تشعر أنه يجيد الكلام المعسول ولكنه لا يجيد الحب الحقيقي. ولكن في نفس الوقت تأكدت أن ابنتها ترغب في التجربة فوافقت على الخطبة.

أبلغت نورهان محمود بموافقة والدتها فهرول محمود إلى والديه يطلب منهما أن يصطحبانه لطلب يد نورهان. واضطر عبد العزيز أن يوافق.

وبعدها بيومين فقط تمت الخطبة في جو عائلي هادئ، لم يحضر من أهل محمود إلا والده ووالدته وأخته، وكذلك لم يحضر من أهل نورهان إلا والدتها وعمها واثنتان من صديقاتها، كانت هذه هي طلبات والدة نورهان أن تتم قراءة الفاتحة في أضيق الحدود وخطبة لا تقل عن عام. ووافق محمود على كل ما أمرت به وفي عقله ترتيب آخر، ولكن لا بد أن يكسب رضاء حماته أولًا كي يتيسر كل شيء فيما بعد.

كانت بثينة تجلس في صمت تتأمل عروس ابنها الجديدة، وتتساءل بينها وبين نفسها أليست داليا أجمل؟ أليست داليا أرق؟ إنها تتذكر يوم خطبة داليا كانت سعيدة وكلما نظرت إليها انشرح قلبها وشعرت بالسعادة، وملامح والدة داليا كانت كلها طيبة وسماحة، اختلف الأمر تمامًا. كل شيء في هذا البيت يقبض قلبها، العروس وأمها وعمها، حتى صديقاتها. وجلست بثينة تراقب أم نورهان (السيدة سهير) التي تتخطى الخمسة وخمسين عامًا ولكنها تبدو أصغر من عمرها الحقيقي بكثير، وجهها صافٍ لم تزره التجاعيد، وشعرها مصبوغ بالبني الفاتح، ترتدي سهير بدلة أنيقة، لتبدو كأنها مذيعة جاهزة لتقديم حلقة تلفزيونية

مميزة، إنها متكلفة في مظهرها وزينتها وكلامها ونظراتها، كل شيء فيها مصطنع، حتى ابنتها رغم جمالها تفتقد الروح، إنها مظهر خلاب بلا روح تألفها وتأنس لرؤيتها، كأنها تمثال لنحات ماهر أو لوحة عظيمة لرسام بارع، تبهرك الصورة فقط ولا شيء أكثر.

أما سلمى جلست صامتة تراقب في صمت حذر، تتابع والدها في كل حركة وكل لفتة وتتساءل بينها وبين نفسها: لماذا يوافق والدها لمحمود على كل شيء، تركه يتزوج ويطلق ثم يخوض تجربة جديدة بمنتهى الحرية، بينما هي يحرمها من أبسط حقوقها ويقرر لها مصيرها دون أن تفهم لماذا يحدث كل هذا؟ بأي ذنب تعاقب وتحرم ممن تحب؟ هل لأنها فتاة؟ وفي مجتمعاتنا الشرقية تسلب المرأة من كل حقوقها، ويمنح الرجل أكثر من حقوقه، وتحت شعار أنه رجل يمكن أن يفعل كل شيء، الصح والخطأ والحلال والحرام دون لوم أو تأنيب، أما البنت تسلب أبسط حقوقها تحت شعار أنها بنت وأهلها يعرفون ما فيه صالحها وسعادتها. أي سعادة تلك وهي تمنع من اختيار شريك عمرها بلا سبب؟ لا يجهد والدها نفسه في ذكر سبب واحد مقنع ليرفض زواجها من سليم، كل ما يقوله إن من حقه أن يختار لابنته الزوج المناسب، لقد حكم عليها أن تبقى بلا زوج ولا حياة وتعيش بقلب مجروح عمر بأكمله وهو يظن أنه يفعل ما فيه خير لها.

جلست صامتة وانقضت الليلة وهي صامتة حتى عادت إلى بيتها وعادت لغرفتها في صمت وحزن، الكل يشق طريقه في الحياة ويذوق السعادة وهي واقفة مكانها تنتظر قطرة رحمة من عذابها وحيرتها. ويا له من عذاب مضني لا يحتمل.

*****

الفصل الحادي عشر

الليل الهادئ يؤلمها بهدوئه ويذكرها بحكاية حبها الضائع، يذكرها بكمال، الذي استطاع أن يتجاوز ما بينهما بسهولة، لم يحاول مرة واحدة أن يتواصل معها ليطمئن عليها، قرر أن ينساها واستطاع أن ينسى، بينما هي واقفة مكانها ما زالت تدور بين الذكريات ومقيدة بقيود ماضٍ لم يطلق سراحها بعد. أصبحت حياتها كلها بين أربعة جدران، تلقت مكالمات عديدة من سلمى وماما بثينة وعمها، الجميع حاول أن يقنعها بأن تعود لبيت العائلة تتحصن بدفء الأسرة وتخرج من عزلتها ولكنها رفضت تمامًا، حتى سليم ترك لها كامل الحرية في أن تبقى معه أو تقيم مع ماما بثينة في بيت العائلة، ولكنها لا تريد إلا عزلتها ووحدتها، لم تعد تملك القدرة على التكلم أو الاستماع، الاقتناع أو الإقناع، لا تشعر إلا بالضياع، وألم الحزن يحطمها يومًا بعد يوم. إنها حزينة لدرجة تعجزها عن شرح أحزانها وآلامها لأي حد.

كانت الساعة العاشرة مساءً، ما زال سليم في عمله في الصيدلية وهي وحيدة في الشقة، تقبع في غرفتها كعادتها، وكأن ما لها من هذا العالم إلا تلك الجدران وحياة الأحزان، وفجأة جاءتها رسالة من مراد الذي غاب طويلًا منذ أن تجاهلت رسائله لها، فمل هو أيضًا وكف عن محاولة الاقتراب منها، ما الذي ذكَّره بها وماذا يريد منها؟ قرأت الرسالة، كانت كلمات قليلة ولكنها مؤثرة للغاية:

- حاولت كثيرا أن أخفى حقيقة عشتها سنوات وسنوات، حاولت أن أخفيها عنك وحتى عن نفسي، لكن لا مفر من عينيك، لا مفر من حبك الذي يسكن قلبي وروحي منذ أيام الجامعة، أحبك يا زينة، فهل تسمحين لي أن أقترب من أيامك.

قرأت كلماته وتأكدت ظنونها، فقد كانت تشك في اهتمامه وكثرة سؤاله على أستاذه، كانت تشعر أنها المقصودة بكل هذا الاهتمام ولكنها خافت من هذا الشعور وهذا الظن، فهربت منه بكل ما أوتيت من قوة من أجل كمال، واليوم خرج كمال من حياتها فماذا تفعل؟ إنها ما زالت جريحة القلب مشتتة الفكر، غير قادرة على أن تفكر أو تميز بين الحقيقة والوهم، بين الصدق والكذب، كل المشاعر أمامها مختلطة، فكتبت له ردها عن قناعة:

- أنا الآن أعاني جراحًا قاسية، لا أعدك بشيء، فأنا لا أرى إلا اليأس يحاصرني، وبين الضلوعِ قلب ممزق.

فرد عليها فورًا:

- لا أريد منكِ أي وعد ولكني أعدك أني سأنتظرك عمري بأكمله.

قرأت ما كتب وما عرفت ماذا تكتب أو ماذا تقول؟ فأغلقت هاتفها وحاولت أن تنام، لا تريد أن تفكر في أي شيء، حتى ولو كان حبًا حقيقيًا، أيام الحب الحلوة قصيرة للغاية، هكذا علمتها الأيام، وكيف بعد هذا كله تسعى إلى الحب

مرة أخرى بكامل إرادتها. إن الحب جنون ولقد تعبت من جنونها ومشاعرها، فلتهدأ وترتاح بعيدًا عن دنيا الحب وتمنح قلبها إجازة مفتوحة.

*****

كان عبد العزيز يراقب ابنته في صمت، يراقب حيرتها ووحدتها وذبولها منذ أن غادر سليم البيت. إنها معه في البيت لكنه يفتقدها بشدة، يفتقد ابتسامتها وروحها المرحة ومداعبتها، تغيرت كثيرًا، كل شيء فيها ساكن، سكنت ابتسامتها وشقاوتها واختارت وحدتها، تقضي أغلب وقتها بين عملها وحجرتها، كل شيء فيها سكن إلا قلبها وروحها، يتعذبان في صمت، إنها لم تشكو له ولم تشكو منه واختارت عزلتها عن الجميع.

كل هذا كان يؤلمه، إنه يتألم مثلها تمامًا، فقاده حبه وعطفه إلى باب غرفتها، ودخل إليها وقبلها في حنان وجلس إلى جوارها متأملًا عينها المرهقة من السهر ووجهها المنطفئ من إجهاد التفكير، وقال لها وعلى شفتيه ابتسامة حانية:

- مابتقعديش معانا ليه يا سلمى، من ساعة ما بتيجي من الشغل بتفضلي في أوضتك.
- عادي يا بابا.
- لا، مش عادي، أنا عارف إنك زعلانة مني يا سلمى، وحاسة إني قاسي عليكي وعلى سليم. أنا هقولك شيء من المجهول بالنسبالك بس اللي هقوله إوعديني ماحدش يعرفه أبدًا حتى والدتك ولا سليم طبعًا.

- حاضر يا بابا.
- إنتي عارفة إني ربيت زينة وسليم وعاملتهم بما يرضي الله كأنهم ولادي وسلمتهم ميراث كامل لما كبروا ماصرفتش منه جنيه، طبعًا إنتي متخيلة إني عملت كده عشان هما ولاد أخويا بس، لكن في سبب تاني أهم.

فنظرت له سلمى في ترقب وتركيز بالغ وقالت:

- إيه يا بابا؟
- إني بكفر عن ذنب كبير أوي عملته في حق صبري أخويا. ذنب لغاية دلوقتي وبعد كل ده ماقدرتش أسامح نفسي عليه أبدًا.
- ذنب إيه؟
- مش مهم تعرفي أنا عملت إيه، بس لازم تعرفي إن لو سليم عرف ممكن أوي يحاول ينتقم مني.
- للدرجة دي، مش ممكن أبدًا، سليم بيحبك أوي يا بابا ومش ينسى حضرتك عملت عشانه إيه.
- للدرجة دي يا حبيبتي، ذنب كبير أكبر من إنه يسامحني، ولو إنتي مراته وقتها ممكن ينتقم مني فيكي، أنا بحميكي يا سلمى، صدقيني.
- مش معقول يا بابا، سليم مايقدرش يؤذيني أبدًا، مستحيل. حضرتك راسم في خيالك حكاية مش ممكن تحصل.
- لو عرف ممكن تحصل.

- هيعرف منين عمي مات وحضرتك مش هتقوله أبدًا.
- أمه عايشة يا سلمى وتعرف الماضي كله.
- أمه؟ فين أمه دي؟ معقول يوم ما تظهر تهدم حياتنا وهي كانت فين طول السنين اللي فاتت، مش ممكن سليم يصدقها مهما قالت، مش ممكن.
- فكري في كلامي يا سلمى وابعدي عن سليم، مش سهل عليَّا أهدم صورتي في عينك بإيدي، بس أنا عملت كده عشان أساعدك حتى ولو على حساب حبك واحترامك ليَّا. سامحيني يا سلمى.

خرج عبد العزيز من غرفة ابنته وهو يفكر هل ستفر من دوامة حب سليم أم ستظل تعذب قلبها وقلبه بهذا الحب؟

إنه قدم لها محاولة الخلاص وليت يكون فيها الخلاص من قصة محكوم عليها بالفشل والتعاسة. لقد باح بجزء من سره الدفين لعلها تهدأ وتستكين وتسلم بأن سليم ليس الزوج المناسب مهما أحبها وأحبته. عاد إلى حجرته وهو يدعو الله أن يهديها وينزع من قلبها حب سليم بلا رجعة.

بينما سلمى جلست في فراشها تبكي، ازدادت حيرتها وأظلمت الدنيا حولها، ما قاله والدها يؤكد لها أن الحواجز بينها وبين سليم لن تهدم بصبرها وصبره أو انتظارها وانتظاره، بل ستتضاعف الحواجز يومًا بعد يوم وتزداد المسافات.

واستعادت ذاكرتها كل حرف نطقه والدها وأجهدت عقلها تفكر في كل كلمة قالها والدها، وبدأت تتساءل: هل يمكن أن يكرهها سليم؟ هل يمكن أن يتحول حبه الكبير إلى ضغينة وكراهية ورغبة في الانتقام؟ هل يمكن أن يأتي يوم تخاف فيه من بطش سليم بعدما كانت لا تطمئن إلا إلى جواره ولا ترتاح إلا في قربه؟ هل يمكن أن يأتي هذا اليوم؟

إن الموت أهون عليها من ذلك، إن ضاع منها حب سليم فقد ضاع منها كل شيء فلن تأمن لقلب بعده ولن ترتاح في عالم هي ليست فيه حبيبته.

دوامة من الأفكار المتطاحنة السوداء تدور في رأسها تمزقها ألم وحيرة وخوف إلى أن قطع رنين هاتفها خيوط أفكارها الكئيبة، إنه سليم، ترددت ثواني في الرد عليه ثم ردت في صوت مختنق:

- أيوه يا سليم.
- إزيك يا حبيبتي، وحشتني، مابعتليش النهارده ولا رسالة، فينك؟
- في أوضتي.
- مالك يا سلمى، في حاجة؟

صمتت ثواني وفي قلبها سؤال مُلح تتمنى لو تسأله، صمتت وهو منتظر ردها وازداد يقينًا أن هناك شيئًا لا يعلمه، فقال:

- مالك يا سلمى، صوتك متغير، في حاجة؟ عمي كويس؟ ماما كويسة؟ ماتقلقينيش؟
- كلنا كويسين.

- بس إنتي مش كويسة.

– متوترة شوية، وتعبت، حكايتنا كل يوم بتتعقد، بقيت حاسة إن حبنا بقى حب مستحيل.

– سلمى، أنا مش هسيب عمي غير لما يوافق، المستحيل إني أعيش من غيرك.

– إيه اللي يخليك تكرهني يا سليم.

– أكرهك! إيه السؤال الغريب ده؟

– يعني مش ممكن تكرهني.

– أنا ممكن أكره نفسي على كل ثانية بتضيع مني وإنتي بعيد، سلمى، أنا لازم أشوفك بكرة، التليفون مش نافع.

– أشوف الظروف إيه بكرة وأكلمك. سلام.

أنهت المكالمة وحنانه وصوته يخنق أفكارها السوداء، وقلبها راح يصرخ ويواجه كل مخاوفها ويقول:

- كفى، كفى، من يحب لا يكره، وما ذنبنا أنا وهو في ماضٍ لم نعاصره ولم نعلمه؟ أبدًا لا يمكن أن يكرهني سليم، مهما كان الماضي، حبنا أقوى وأسمى.

*****

خرجت والدة داليا من المستشفى وانقضت الأيام الصعبة التي لم يتركها فيها علي أبدًا، كان يذهب يوميًا إلى المستشفى للاطمئنان على حالة والدتها ويتواصل معها بعدما يغادر هاتفيًا، كان اهتمامه طاغيًا، لم تستطع داليا أن ترفض هذا الاهتمام ولم تستطع أن تتجاهله، اهتمام جاءها في وقت احتاجت فيه السند والدعم، خاصة أن صحة خالها لم تعد تعينه على التواجد فترات طويلة في قاعات الانتظار بالمستشفيات.

عادت داليا إلى عملها وكان علي مبتهجا لعودتها، فقد كان يعاني أيام غيابها ويشعر أنه ينقصه شيء مهم كي يعمل بتركيز، ربما ينقصه ابتسامتها، ربما رقتها، ربما ذاك النسيم الذي ينعش روحه كلما رآها أمامه، إنه الحب الذي يسري في العروق في هدوء وبطء فيأسر دون أن تدري ودون أن تزلزل، ربما لو زلزلت لأخذت حذرك وابتعدت ولكن حبها يسري إلى أبعد نقطة في قلبك في هدوء وغفلة منك. ولا تفيق إلا وهي تسكن قلبك وروحك.

ولكن ما زال لا يعرف ما في قلبها، وكيف حاله؟ هل شفي من حب محمود؟ هل شفي من جرحه؟ هل قلبها يشعر به؟

كل هذه الأسئلة تدور في عقله وقلبه ولا يعرف إجابة، وكلما تذكر محمود شعر بالغيرة، إنه يريد قلبها له وحده، فألقى لها خبر خطبة محمود الذي علمه منه شخصيًا بين أطراف حديثهما وكل عينيه تترقب كل ملامح وجهها، فما رأى إلا ابتسامة هادئة، ربما ساخرة وقالت بلا مبالاة (ربنا يوفقه) ودار في نفسه

حوار، إنها تبدو غير مهتمة به، إنها لا تبالي إن كان ارتبط أو لا، ما لمح أي أسى على وجهها أو أي دمعة حزن في عينيها، إنها تلقت الخبر كما تتلقى أي أخبار عن أناس لا تعرفهم على مواقع التواصل الاجتماعي، ثم حدثه عقله حديثًا خبيثًا مملًا (ربما تغار وتخفي غيرتها، إنها امرأة قوية وذكية وتعلم أنك تهتم بها وتدرك جيدًا أنك تراقب تعبيرات وجهها ووقع الخبر عليها، فتحكمت في كل ما بداخلها وأخفت إحساسها. ليس كل ما نبدي هو الحقيقة، الكثيرون يجيدون إبداء عكس ما يخفون)

جلست هي تواصل عملها في تركيز بلا أي اضطراب أو قلق، وابتسامتها الرقيقة تضفي جمالًا ساحرًا وجاذبية مطلقة على وجهها الجميل، وجلس هو يعمل قليلًا ويسرح كثيرًا، مشتت الفكر، مشغول البال، يتقلب بين أفكاره المرهقة ومشاعره وأحلامه الجميلة. فهل يظل هكذا مذبذبًا بين الأمل واليأس؟ وإلى متى ينتظر؟ ربما طول الانتظار يخنق الأمل بدخان الصبر فما عاد قادرًا على احتمال حيرته، فأرسل لها رسالة هاتفية يطلب منها أن يقابلها بعد العمل اليوم. فقرأت الرسالة ونظرت له وما زالت محتفظة بابتسامتها الهادئة، وهو يترقب ردها في رسالة، ولكنها لم تكتب ردًا بل اكتفت بهز رأسها وابتسامتها.

التقيا بعد العمل في جلسة هادئة على النيل، كانت الشمس اقتربت من المغيب ونسائم الغروب المنعشة تطوف حولهما، تهدئ الأرواح الحائرة وتبعث السكينة

في القلوب، كانت داليا هادئة مبتسمة تطل في عينيه بنظراتها الرقيقة فتزيل ارتباكه وتختصر ما بينهما من مسافات في لحظات، فاستجمع كل جرأته وقال:

- داليا، أنا بحبك، مش عارف إزاي دا حصل بالسرعة دي بس أنا اتاخدت مني فجأة ومابقتش قادر أنكر حبي ليكي.

صمتت ثواني معدودة وقالت:

- طول فترة تعب ماما كنت بسأل نفسي، يا ترى اهتمامك بيا دا عادي ولا ممكن يكون شيء أكبر من مساعدة زملاء لبعض، النهارده إنت جاوبت على سؤال شغلني، ومنتظر مني إجابة، أنا مترددة وخايفة أبدأ أي تجربة جديدة.
- عشان لسه بتحبي محمود؟
- بالعكس، لو رجع بيَّا الزمن كنت اتطلقت من أول سنة جواز أو يمكن ماكونتش اتجوزته أصلًا، لكن أي فشل بيسيب وجع حتى لو مش أنا سبب الفشل ده، أنا مش عايزة أتسرع تاني وأفشل تاني، قول عليَّا بقيت معقدة، لكن دا تفكيري دلوقت.
- بالعكس يا داليا، أنا فاهم كل اللي جواكي ده لكن أنا عايز أعرف هل في قبول؟ ممكن لو هتفكري في حب جديد أكون أنا الحبيب ولا أنا بعيد أوي عن قلبك ومش شايفاني غير أخ؟

- أنا برتاح جدًا في الكلام معاك يا علي، الحب مالوش كتالوج عشان أقول دا صديق ودا حبيب، ممكن جدًا الصداقة تبقى حب بعد فترة، مش عايزة أوعدك بوعد ماكنش أده لكن إنت شاب تتمناك أي بنت وألف بنت أحسن مني.
- بس أنا بتمناكي إنتي بس.
- ليه أنا يا علي، إنت ماتجوزتش قبل كده، ليه مافكرتش في بنت تبقى أول حد في حياتها.
- ما أنا هكون أول حد في حياتك، اللي قبلي مايتحسبش.

ابتسمت وانتهت المقابلة وعادت بطيف الحب الجميل يداعب خيالها، هل من الممكن أن تحب علي؟ هل يعوضها عن سنوات مضت؟ أم أن تجربتها السابقة ستلقى بظلالها السوداء على تجربتها الجديدة؟

أخبرت والدتها بما باح به علي، فسعدت الأم كثيرًا بهذا الخبر، فهو شاب طيب وعلى خلق رفيع وقد يكون عوض الله عن كل ما سبق.

ولكن داليا ما زالت تائهة خائفة أن تتعجل وتذوب بلا تفكير في حلم جديد وتستيقظ على سراب.

*****

الفصل الثاني عشر

ألح عليها مراد كثيرًا بالاتصال، إلى أن ردت ففاض عليها بمشاعره وزاد في ولعه وحبه وكل رجائه أن تقابله دقائق معدودة، مجرد دقائق لن تكلفها شيئًا ولكنها تمثل له كل شيء، دقائق تعيده إلى الحياة عمرًا كاملًا، هكذا أربك عقلها واقتنص منها وعدًا ثمينًا بلقاء في اليوم التالي، لا تدري زينة لماذا وافقت؟ هل كان استعطافه أكبر من صمودها؟ أم حبه أقوى من صدها؟ شيء ما في قلبها رضي أن تقابل مراد، ربما هو ذات الشيء الذي كان في أعماقها سابقًا يرجوها أن تقابله قبل طلاقها من كمال، هذا الشيء الذي تحرر الآن من قبضة ضميرها، فأصبح صوته حرًا طليقًا مسموعًا مطاعًا بلا تأزم. وافقت رغم أنها ليس لها طاقة لكلمات الهوى ولا رغبة فيها ولكنها أرادت أن تقتلع نفسها من خندق الأحزان، من أربعة جدران صارت عالمها الخانق، فماذا تخسر إن استمعت إليه؟ إنها تريد أن تواجه الحياة بكل ما فيها، وتريد أن تثبت لنفسها أنها غادرت أرض الهوى بلا رجعة.

قابلته في مساء اليوم التالي، كانت جلسة هادئة في مكان عام راقٍ، ذهبت بفستان غامق اللون، طويل ولكنه أبرز قوامها الممشوق وقامتها متوسطة الطول، فبدت فاتنة بأقل مجهود وأقل قدر من الزينة، ربما جمالها الطبيعي لا يحتاج إلى ما يبرزه، وربما حزنها أضفى عليها شيئا من الجاذبية والغموض، فازدادت جمالًا

في عيني مراد الذي كان يعتني بهيئته وأناقته وتصفيف شعره وقوة عطره ليبدو شابًا جذابًا، استقبلها باهتمام بالغ وحفاوة كبيرة، وجلس مشدود القامة، منتشيًا بقربها منه يراقبها بعيونه ويثني على جمالها وطلتها ورقتها، وهي مذهولة من هذا الإعجاب والثناء، وبدأ يسألها عن أحوالها ووعدها أن يكون إلى جوارها إلى أن تعود إلى حياتها وشبابها وتغلق صفحة الماضي، وهي تستمع في صمت واستغراب، ما كل هذا الاهتمام؟ ما كل هذا الحب الذي يبديه؟ وأين كان كل هذا الحب مختبئًا؟ فسألته صراحة:

لماذا لم يصارحها بمشاعره أيام الدراسة؟ لماذا لم يجتهد ولو قليلًا أن يلفت نظرها ويثير مشاعرها ولو بأقل قدر من الاهتمام، فحكى لها كيف كان يخطط لحياته ويتخيل أن الدراسة لا بد أن تنتهي أولًا ليفكر في الحب والزواج وكأن كل شيء سيسير وفق تخطيطه هو فقط، حدثها بكل صراحة كيف أحبها وكيف كانت صدمته حينما اختطف قلبها الأستاذ، حكى لها ما أخفاه سنوات بين الخجل والسكوت، فتح صندوق الذكريات التي ما عادت ذكريات وبعثت من جديد إلى الوجود من عالم بعيد لتصبح حقيقة ملموسة تراها عيناها ويراها قلبه، إنها الآن أمامه تعلم ما في قلبه من حب واشتياق.

كانت تستمع باهتمام وليس لديها رد أو إجابة عن تساؤلاته وأمنياته بأن تحبه وتسمح له أن يشاركها رحلة الأيام، وليست لديها حتى لوم أو عتاب أنه أخفى

عنها كل هذا الحب، ليس لديها أي تعليق، هي فقط تستمع وتفكر ماذا بعد هذا الاعتراف العظيم؟

غادرت دون أن تعده بحبها أو اهتمامها، دون أن تعده حتى بموعد لقاء جديد ولكنها تركته سعيدًا أنه باح بسر عشقه الدفين، وما زال في قلبه أمل كبير أن تبادله العشق عشقًا.

اتجهت إلى مطعم أخيها وكانت مفاجأة سارة لسليم أنها خرجت أخيرًا من عزلتها، وأصر أن يتناولا العشاء سويًا وفي رفقة زياد.

جلسوا على الطاولة وأمامهم طعام شهي متنوع، وبدأ زياد يتحدث ويضفي جوًا من البهجة على الجلسة، نظرت إليه زينة وقالت لنفسها زياد كما هو لم يتغير أبدًا، البساطة وخفة الظل أسلوب حياته الدائم.

أثناء وقت العشاء، اندمج الثلاثة في أحاديث عامة ونكات بسيطة مرحة وانتبهت زينة أنها أكلت أكثر بكثير من المعتاد ولم تشعر بالوقت، فنظرت إلى زياد وعبرت عن قلقها من هذا العشاء الذي قد يتسبب في زيادة وزن لا يحمد عقباها واتهمت زياد أنه أنساها الانتباه إلى ما تتناول بحكاياته الشيقة المتنوعة.

ابتسم زياد ودعاها إلى العشاء هنا كل يوم، فالحياة قصيرة وعلينا أن نتمتع بكل شيء فيها ومن أهم متع الدنيا الطعام، لماذا تقيد نفسها بكميات محدودة من أشهى الوجبات خوفًا من بضعة جرامات أو حتى كيلوجرامات زائدة في الوزن،

فالجمال لا ينقصه زيادة الوزن ولا يزيده نحافة القوام، لأن الجمال الحقيقي هو جمال الروح. فالقوام الممشوق بلا روح جميلة هو تمثال بارد بلا حياة، وطمأنها أن روحها الجميلة تحتفظ لها بسحرها في كل أحوالها. ولكن زينة أصرت أن الرشاقة عنوان الجمال وضرورة وليست رفاهية، فقدم لها زياد الحل السحري من وجهة نظره، أن تأكل ما تريد وتمشى ساعة، وأبدى استعداده أن يشاركها السير على الأقدام يوميًا كل ليلة وهي تضحية كبيرة ولكنها تهون حتى لا تخسر رشاقتها.

تعالت ضحكات الجميع، وبدأ سليم يشترك في حل المشكلة واقترح أن يكون العشاء مجموعة من السلطات فقط، فاعترض زياد بشدة، أهذا طعام! إنه الحرمان الكبير والعذاب المرير، إما أكل يرتقي إلى طموحات المعدة أو استغناء تام، فعادت الجلسة إلى المزاح والضحكات من جديد. وانقضى الوقت لطيفًا مرحًا وشعرت زينة أنها تحررت الليلة من قيودها، وقفزت فوق سور عذابها، ربما بداخلها زينة جديدة تولد إلى الحياة.

*****

جلس سليم في فراشه وهو مبتهج يشعر أن زينة تعود إلى الحياة بكل ألوانها شيئًا فشيئًا، ثم أمسك هاتفه، ليتحدث إلى سلمى قبل النوم كما اعتاد، إنهما لم يتحدثا اليوم، لقد طلبها هاتفيًا في منتصف اليوم ولكنها أرسلت له رسالة أنها ستتحدث إليه في المساء، وطلبها وهو على يقين أنها منتظرة اتصاله، ولكنها لم

ترد، فكرر الاتصال بلا جدوى، فانتابه بعض القلق عليها، ولكنه حاول أن يبسط الأمر ويضع الافتراض الأكثر منطقية، ربما نامت، قد تكون أرهقت في عملها ونامت مبكرًا، إذن فليتواصل معها صباحًا، وحاول أن ينام، ولكنه مشغول البال عليها، فعاود الاتصال بها من جديد فردت عليه، فقال مبتهجا:

– وحشتيني، كنتي فين النهارده؟

– في البيت.

– مانزلتيش الشغل؟

– لا، أخدت إجازة أسبوع.

– ليه، في حاجة؟

– أبدًا، مش عايزة أشوف حد، مش قادرة أشتغل.

– سلمى، في حاجة أنا ماعرفهاش؟

– في حاجات كلنا مانعرفهاش يا سليم، بس الأكيد إن المسافة بيني وبينك بتزيد وبنبعد كل يوم عن اليوم اللي قبله.

فقال بشيء من التوتر والعصبية:

– أنا مش هسمح لأي حد مهما كان ياخدك مني، إنتي فاهمة، أنا ممكن أعمل جريمة.

وترددت كلمة جريمة في أذنيها مرات ومرات، وتخيلت أي جريمة تلك التي قد يفعلها، ومن الضحية؟ هل من يمنع بينه وبينها هو الضحية؟ أم من يحاول أن يتزوجها دونه؟ أم هي شخصيًا؟

صمتت وشردت بأفكارها بعيدًا، وهو يتحدث إليها في الهاتف ولكنها لا تسمع ولا تركز، ذابت في فكرة الانتقام التي صدرها لها والدها ولا تدري هل يمكن أن تتحقق في الواقع؟

صمتت طويلًا وانتبه سليم أنه يحدث نفسه فأخذ ينادي باسمها، فانتبهت وقالت:

- أنا معاك يا سليم، بس أنا تعبانة جدًا ومحتاجة أرتاح، نتكلم بكرة أرجوك، تصبح على خير.

تبدل ابتهاج قلبه الذي كان قبل المكالمة إلى قلق بالغ، سلمى بها شيء مختلف، لا بد أن يراها، الهاتف لا يكفي أبدًا، يبدو حقًا أن هناك مسافات بينهما صارت تملؤها الشكوك والقلق والعذاب والأرق، فجأة شعر أنه في نفق مظلم لا يعرف أين ينتهي به وبها؟ الخوف على مصير حبه يتصاعد ويحاصره من كل اتجاه.

أشرقت شمس يوم جديد وهو لا يدري إن كان نام أم لا، ما زال على نفس جلسته في فراشه، قد يكون غافله النوم دقائق معدودة ولكنه أبدًا لم يغفل عنه القلق ولم تزره الراحة.

انتظر إلى العاشرة صباحًا ثم استعد للخروج ولم يزعج زينة، تركها تستيقظ وقتما تشاء، سلك طريقه إلى بيت عمه، فرحبت به الأم كعادتها ترحيبًا بالغًا وسأل عن عمه، فأخبرته أنه خرج لزيارة أحد أصدقائه بالمستشفى، فسأل عن سلمى، وتغيرت ملامح الأم وأخبرته أن سلمى دائمًا صامتة حزينة، تكاد لا تغادر غرفتها، وأخذت إجازة من عملها، كأنها اعتزلت الدنيا والناس.

فطلب سليم من الأم بثينة أن يقابلها، فقامت الأم لتخبر ابنتها بقدومه.

ثم اتجهت الأم إلى المطبخ وعادت بإفطار خفيف وكوب من الشاي الساخن وطلبت منه أن يقضي اليوم معهم ويتصل بزينة لتأتي إليهم ويكون يومًا عائليًا جميلًا. هز سليم رأسه ووعدها أن يكون ذلك في يوم آخر. تركت الأم سليم في انتظار سلمى واتجهت إلى أم الهنا تتابع معها إعداد طعام الغداء.

خرجت سلمى شاحبة الوجه، تخطو ببطء ويأس وملامحها تكسوها الإحباط، وعيونها تشكو قلقًا وخوفًا وحزنًا بالغًا. ألقت عليه تحية الصباح بصوت خافت وجلست إلى جواره صامتة، تخفض بصرها في الأرض كأنها تهرب من عينه التي تتعلق بكل لفتة منها. فقال بصوت رقيق:

- في إيه؟ أنا ماعرفتش أنام بعد مكالمتك إمبارح؟ ليه حاسس إنك بتهربي مني؟ إنتي زعلانة مني يا سلمى.

فنظرت إليه ثم قالت في أسى:

– أنا زعلانة من الدنيا كلها، ليه كل الظروف اللي قربتنا من بعض هي نفس الظروف اللي بتجبرنا نبعد عن بعض؟

– ليه كلامك بقى بيعتبر إن اللي بينا انتهى خلاص، إحنا اتفقنا إننا هنتمسك بحبنا مهما حصل.

– إحنا مش أصحاب قرار يا سليم.

– سلمى، أنا بحبك ومش ممكن أسمح إنك تضيعي مني.

– سليم، بابا مش ممكن يوافق، دا اللي أنا متأكدة منه، ومابقتش عارفة إيه الحل.

– أنا هستناه ولازم نوصل لحل.

– بلاش يا سليم، أرجوك، أنا خلاص مش هتجوز أي حد وإنت عيش حياتك، إنساني، إتجوز، خلاص مفيش فايدة.

فصرخ في وجهها:

– بالسرعة دي بتتخلى عن حبنا، عمي لازم يعرف إن حقنا نعيش ومش ممكن يفرض علينا رأيه لمجرد إنه شايف كده، ده منتهى الأنانية والظلم.

وهي تستمع وتبكي في صمت وتتمنى لو تستطيع أن تبوح له بما عرفت وترتمي في حضنه وتأخذ منه وعدًا ألا يحاسبها يومًا على ذنب والدها، ولكن لا تستطيع أن تبوح بجزء منقوص من حقيقة غامضة قد يؤذي الجميع.

فعاد هو يتمالك أعصابه وقال بصوت كالهمس:

- لو مفيش طريق قدامنا غير إننا نتجوز ونحط عمي قدام الأمر الواقع يبقى نعمل كده، لكن أنا بحب عمي رغم كل شيء وأكيد مش أفكر في الحل ده إلا بعد صبر طويل.

تفاجأت سلمى بهذا الاقتراح ونظرت في عينيه برهبة مفرطة وقالت بغضب:

- أنا مش ممكن أعمل كده يا سليم أبدًا. سليم إنت عايز إيه؟ اللي إنت قولته دا ممكن يقتل بابا. أنا مش قادرة أصدق إنك تفكر كده.

فقال سليم بصوت حزين:

- يا سلمى أنا تعبان فوق ما تتخيلي، كلامك خلاني وصلت لآخر حاجة ممكن تخطر في بالي.

- إنت كده بتنتقم مش بتحب يا سليم.

فرد سليم في غضب:

- أنتقم؟ إنتي متخيلة إني عايز أنتقم من عمي، أنا عايز أتجوزك، حتى لو فكرت في حل قاسي غصب عني، لأني بحبك ومش متخيل إنك تضيعي مني، إنتي كلامك بقى غريب معايا أوي.

- فعلًا، أنا متلخبطة يا سليم، ويا ريت نبعد شوية لغاية ما نهدا ونعرف إحنا عايزين إيه.

- يعني إيه؟

- سيبني براحتي يا سليم، وأنا لما أهدا هكلمك.

- مش بقولك كلامك بقى غريب، يعني هترتاحي وتهدي لما مانتكلمش أو مانتقابلش؟ تمام، زي ما تحبي.

غادر سليم غاضبًا، وهو يشعر لأول مرة أن علاقته بسلمى تهتز، شيء لا يدركه يخلخل ثوابت عشقهما ويهز بنيان الهوى المتين ويهدد بفناء حب ظن أن عمره أطول من الأيام مهما بلغت قسوتها، شيء يجهله يزلزل وجوده بأكمله ولا يدري ماذا يفعل؟ إنه في دوامة كبيرة أدخله فيها عمه ولن يخرجه منها إلا عمه.

كان يظن أن سلمى ستحارب معه ومن أجله. لماذا سلمى اليوم تتوارى خلف دموعها وصمتها وتجد نجدتها في البعد عنه؟ ما كانت تستطيع ذلك، ماذا حدث؟ في عينيها الحزينة شيء مجهول تخفيه وألم كبير هي أضعف من أن تحكيه وهو لا يدري ماذا عليه أن يفعل؟ ورغم أنه يشفق عليها من حزنها إلا أن كلامها اليوم موجع إلى درجة اهتز لها كبريائه، إنها تحاول أن تتعلم الحياة بدونه، يا لها من محاولة! كيف يهون عشقه على قلبها؟ كيف تفكر في هذه المحاولة؟ إلى هذا الحد والدها يضغط عليها ويقهر مشاعرها ويسيطر على عقلها لترفض حبه وقربه.

إن عمه يذبحه بلا رحمة، ولا يجد له أي عذر فيما يفعل، هل يذهب إليه مرة أخرى ويستعطفه ويرجوه لعل قلبه يلين؟ ولكن سلمى قالتها صريحة، والدها لن يوافق على زواجهما أبدًا، إذن فماذا يفعل؟

ذهب إلى المطعم وجلس في مكتبه وأمسك هاتفه وكتب لها:

- رغم أن اليوم اللي ماسمعش فيه صوتك مابيعديش وعذابه مايتنسيش إنما أنا هحترم رغبتك. لكن أنا جنبك وفي وقت ما تحتاجيني هتلاقيني. الحقيقة اللي مش ممكن تتغير أبدًا مهما حصل إنك أغلى عندي من روحي وأغلى عليًّا من نفسي.

أرسل لها رسالته وتمنى لو ردت فورًا، أنها لا تستطع البعد الذي لا يستطيعه هو، أنها تحبه كما يحبها، أنها ستذهب مع قلبه إلى آخر الدنيا بلا خوف أو تردد، كم تمنى من كلمات تريحه وتطمئنه! ولكن ليس كل الأمنيات تدرك ولا كل الأحلام تتحقق، ويبدو أن سلمى أصبحت حلمه المستحيل.

*****

ما زالت تحاول أن تصنع من خالد الرجل الرومانسي الحالم الذي تتمناه في خيالها، الذي يهتم بكل تفاصيلها ويثني على جمالها ويذوب في كلماتها، الرجل الذي تطير بين ذراعيه في عالم من الحب بلا حدود ولكن تفاجأت أنه عصي على التغيير، إنه يحب نفسه كما هو، بهدوئه الممل وكلماته المحدودة وعقله المنشغل بعمله ربما حتى وهو نائم، وقلبه المرتاح من عناء الشوق والهيام، إنه سعيد بشخصيته العملية ويراها النموذج للرجل المثالي الناجح، النجاح أن يرتقي في عمله يومًا بعد يوم وليس في كلمات العشق والهوى، كانت كلما طلبت منه أن يقول لها كلمات حلوة ترضي أنوثتها ومشاعرها، كان يكتفي بابتسامة ساخرة

أو يقول (هل هناك أكبر من زواجنا دليل على حبي، فقد منحتك اسمي وحياتي فماذا يضيف الكلام؟)

إلى هذا الحد كان يقابل أحلامها الوردية بردود مزعجة توقظها على حقيقة ثابتة أنه لن يتغير من أجلها ولن يكون كما تريد أبدًا، بل ربما إلحاحها عليه بأن يسعدها بكلمات الحب والغزل جعلته يتخلى عن الكلام كله بعد الزواج وأصبح كل حديثه عن مطلبات الحياة، لا شيء عنها أو عنه. كف عن كلامه القليل وصار الصمت هو عنوان حياتها معه، حاولت أن تكسر جدران الصمت ويا لها من معاناة، كانت تجلس إلى جواره تتحدث وتحكي له عن أحلامها في الغد، تتخيل أمامه مستقبلهما، وحلم أمومتها في صدارة قائمة تلك الأحلام، فيبتسم نفس ابتسامته المملة ويهز رأسه قائلًا: إن شاء الله.

إن الكلام يشقيه ويرهقه أكثر من عمله. هكذا شعرت وهكذا بدأ الإحباط يتسلل إلى روحها وقلبها رغم أنها في شهور الزواج الأولى ولكنها ما زالت تستعد لجولات أخرى من المحاولات الجادة، ربما تستطيع أن تغير فيه أي شيء.

وقد اشتكت لصديقتها سلمى ما تعاني، فنصحتها سلمى أن تتقرب منه وتشاركه اهتماماته، حينما يشعر أنها تتودد إليه بكل الطرق سيقول لها ما تريد دون أن يفكر ودون أن يشعر ودون أن تطلب. كانت نصائح سلمى واضحة، لماذا عليه هو أن يتغير لأجلها فلتتغير هي من أجله، فتحدثه فيما يحب، وتسأله عن أخبار عمله وتستمع بإنصات إلى حكايات عمله إذا كان عمله هو أكثر

ما يهمه ويسعده، فبدأت نجلاء تطبق نصيحة سلمى، بدأت تحدثه عن عمله ومشروعاته الحالية والمستقبلية ، وتفاجأت بأنه يتحدث ويتناقش ويطيل في شرح تفاصيل قد لا تفهمها بل يجتهد في أن تستوعب ما يقول، إنه يحب عمله لدرجة الجنون، ربما أسعدها أنها عرفت كيف تبدأ معه حوارًا وكيف تدخله في حوار معها ولكنه ظل كما هو يتحدث فيما يحب ويصمت إن ابتعد الحديث عما يحب، إنه أناني حتى في الكلام. ولكنها ما زالت تحاول وتحاول.

وفي ليلة جلست وحيدة في غرفتها تتابع صفحات السوشيال ميديا بينما زوجها منهمك في مكتبه مشغول عنها بعمله، جاءها طلب صداقة من شخص مجهول يدعى (رومانسي جدا) فابتسمت وأخذها الفضول أن ترى ما في صفحة هذا الرومانسي وأعجبت بمنشوراته وكلماته وأغاني الحب الكثيرة في هذه الصفحة، وتنهدت تنهيدة عميقة، وقالت هذا هو ما أبحث عنه. ولكنها لم تقبل صداقته، خافت من ذلك، ما اعتادت أن تقبل صداقة أشخاص مجهولين بالنسبة لها. ولكن سرحت بخيالها لتتصور من هذا الذي يملأ صفحته بكلمات رقيقة وأغنيات أرق ومعانٍ عميقة وأوصاف أدق. كأنه جمع كل ما تتمنى في هذه الصفحة. يا له من شخص مذهل، لا بد أنه رومانسي بقدر ما ينشر على صفحته، وتخيلت كيف سيكون حال حبيبته الآن، لا بد أنها تذوب من فرط حنانه وعشقه. وأخذها الفضول أن تقرأ ماذا كتب من معلومات عن نفسه وقرأت أنه يهوى الرسم وقراءة الشعر، أعزب وخريج فنون جميلة. فابتسمت وقالت إنه فنان،

إنه شخصية مذهلة ولكن لماذا يرسل لها طلب صداقة؟ يبدو أنه صائد قلوب وله مغامرات عديدة. فكرت دقائق ثم قالت لنفسها: ابتعدي عن هذا الطريق الشائك، ما زال أملي في خالد حيًا.

*****

الفصل الثالث عشر

جلس مراد سارحًا يدخن سيجارة، وهو طائر مع دخانه في عالم آخر يتخيل زينة تحبه وتذوب في هواه الذي ادخره لها عمرًا كاملًا، وتساءل في ألم: متى تُسلِّم له قلبها وعمرها؟ ألا تصدق مشاعره أم ما زالت تهوى كمال؟

وبينما هو مشغول بزينة إذا بزوجته السمراء، ممتلئة القوام واسعة العينين، تقتحم خلوته، وتسأله باستياء عن سر عزلته، لماذا يجلس بمفرده منذ أن يأتي من عمله في الجامعة حتى اليوم التالي؟ تساءلت عدة أسئلة سريعة تنم عن عذابها في تلك الوحدة التي تخنق أيامها وهو لا يدرك مدى ألمها.

فنظر إليها بطرف عينيه ثم عاد ينظر إلى دخان سيجارته ويستنشقه في نهم واستمتاع، وطلب منها أن تعد له فنجان قهوة، كأنه ما استمع إلى شكواها ولا تعنيه معاناتها، ولكنها امتثلت لأوامره في استسلام ولم تعترض ولم تشكُ من جديد.

خرجت علا ولكنها أعادت أمام عينيه شريط أحداث وأيام مضت، وحكاية زواجهما.

كانت جارتهم في منزل العائلة، فتاة جميلة طيبة هادئة الملامح، راقية الطباع، من أصل طيب، كانت تحيا مع أمها وزوج أمها، لم يخترها ولم يفكر فيها أو في

غيرها، بل اختارتها والدته لرقتها وطيبتها، وألحت أمه عليه بالزواج في فترة كانت كل أفكاره مضطربة بعدما تزوجت زينة، شعر أن خسارته كبيرة، وأن قلبه أغلق ومشاعره دُفنت إلى ما لا نهاية، ووافق على اختيار والدته دون أن يفكر ماذا يحب أو يكره في علا.

تقدم لخطبتها وتزوجها في شهر واحد، لم تعرفه جيدا ولم يعرفها ولم يكن مهتمًّا بمعرفتها في الحقيقة، كان يتصور أن زواجه هو وسيله النسيان الوحيدة، تزوجها وأخفى خبر زواجه عن زملاء العمل، كل محيط جامعته لا يعلم أنه تزوج، بل إنه لا يلبس خاتم الزواج أبدًا بحجة إنه لا يطيق أن يلبس شيئًا في أصابعه، ولم تعترض زوجته ولم تحتج، إنها زوجة مطيعة هادئة لم يرَ منها إلا حبًّا وصبرًا واحتمالًا وطاعة عمياء. ولكنه رغم كل هذا لم يعرف كيف يحبها؟ إنها جميلة وطيبة الخلق ومتفرغة له تماما، ولكنها لم تقتحم قلبه يومًا بحبها ولا طيبتها ولا إخلاصها له. بمجرد أن ظهرت زينة من جديد وانفصلت عن كمال وجد أن مكان زينة في قلبه ما زال فارغا لم يشغله أحد ولن يشغله أحد. ما زالت زينة في عينيه هي كل النساء وكل الجمال، هي الحب وكل الحب.

عادت زوجته في دقائق بفنجان القهوة وجلست إلى جواره وقالت:

–عارف يا مراد أنا نفسي أخرج معاك، إحنا مش بنخرج أبدًا سوا.

– إنتي عارفة إني مبحبش الخروج ولا السهر إلا مع أصحابي زي ما اتعودت.

فنظرت له في إحباط بالغ وصمتت دقائق ثم قالت:

-إيه رأيك نعمل عزومة هنا في البيت وسهرة لأصحابك اللي بتخرج معاهم يسهروا معاك هنا.

فنظر إليها بغضب وصاح بانفعال:

-أصحابي مين اللي ييجوا هنا، هنعمل قهوة هنا.

-أقصد نعزمهم بزوجاتهم وتبقى سهرة عائلية لطيفة

فوقف غاضبا وقال بغضب شديد:

-وفّري اقتراحاتك السخيفة دي، أنا ما بحبش حد يدخل بيتي، أصحابي على القهوة وأقابلهم بره وبس.

ووقف يرتدي ملابسه ويستعد للخروج، فوقفت تتأسف له، وتؤكد أنها لم تكن تقصد أن تضايقه أبدًا، مجرد اقتراح إن لم يرُقْ له فعليه أن ينساه كأنها لم تقل شيئًا، ظلت تعتذر وتخبره أنها وحيدة لا ترى الناس، وهو منشغل عنها بعمله، وكانت تريد أن تتعرف على زوجات أصدقائه لتخلق لنفسها حياة صاخبة، ظلت تتكلم وهو يواصل استعداده للنزول، إلى أن أتم استعداده وخرج دون كلمة واحدة.

خرج إلى الشارعِ ليهرب منها، من رقتها وطيبتها وقلبها الذي يريد أن يرضيه حتى ولو على حساب نفسه، هرب منها بكل عطائها، ولا يدري إن كان اختنق من عطائها له أم من جحوده لها!

إنها تبدو في عينيه أمينة التي رآها في الأفلام المأخوذة عن روايات نجيب محفوظ، ومن العجيب أن يكون في هذا العصر هناك أمينة، استسلامها له وضعفها أمامه وطاعتها له في كل شيء يؤرقه ويسعده في آن واحد. نعم يرضي غروره ويُسعد سي السيد الذي في أعماقه وأعماق كل رجل شرقي، ولكنه يريد أيضًا زوجة تفكر وتبدع وتأخذه منه إليها، من تكون تلك الزوجة غيرها، إنها زينة، هي المرأة التي تسعده ولن تُسعده غيرها أبدًا. مهما حاولت عُلا أن تسعده فإن سعادته كلها بين يدي امرأة واحدة، الحب الأول يبقى صاحب السطوة على مشاعرنا ما دام لم يتبعه حب آخر، يظل هو السيد والآمر الناهي.

واتصل بزينة هاتفيًّا، وعاتبها، على أنها لم تتواصل معه منذ لقائهما القصير، عاتبها برفق، بصوت أرهقه الشوق وأضعفه الصد واللامبالاة، حدثها بكلمات حروفها حنين ورقه بالغة، فاعتذرت له عن كل شيء واعترفت بأنها ما زالت في مرحلة الشفاء من جروحِ الماضي، ولا تريد الاندفاع نحو علاقة جديدة قبل أن تشفي وتهدأ، اعتذرت بكلمات رقيقة هادئة ما زادته إلا اشتياقًا وعشقًا وإصرارًا على أن يظل حبه وقلبه وعمره كله في انتظارها إلى أن تصدق قلبه وتحبه كما يحبها.

*****

مرت أيام قليلة وهي لا تتواصل معه، ويا لها من أيام، كل يوم ينتقص من روحها شيء إلى أن شعرت أنها بلا روح ولا قلب، ماذا بقي فيها حيًا وهي بعيدة، كيف يحاول والدها إقناعها بأنها تستطيع أن تنسى سليم، إنها حتى في بُعده تشعر بأنفاسه وتسمع صوته وتتخيله أمامها، إنه يحيا في قلبها وروحها فكيف تنتزعه من قلبها وروحها بهذه السهولة، حاولت أن تطيع والدها ولكنها تتحطم في مجرد محاولة تستطيع أن تنهيها باتصال هاتفي الآن. لا بد من حل لإنهاء هذا العذاب، لا بد أن تجد حلًا يرضي والدها ولا يحرمها من سليم. وراحت تقلب كلمات والدها معها يمينًا ويسارًا وانتبهت إلى أن والدة سليم، هي فقط من تعرف ما يخشاه والدها، إن ماتت مات السر والخوف والقلق وتزوجت سليم بموافقة والدها، ولكن كيف تعرف إن كانت ماتت أم لا؟ فاتجهت إلى والدتها وبدأت تحكي معها في أحاديث متعددة وفي وسط الحديث سألت عن شهيرة والدة سليم، سألت عنها بشكل عام كيف كان شكلها وكيف أصبحت؟ فأجابتها أمها:

– شهيرة دي كانت جميلة جدًا بس كانت مطلعة عين عمك، ياما كانوا يتخانقوا وأبوكي يروح يصالحهم، وفضلوا ناقر ونقير لغاية ما مات عمك في حادثة، وهي رمت العيال وسافرت تتجوز.

–هي وعمي ما اتجوزوش عن حب؟

– عمك كان بيحبها بس هي كانت نمرودة وشايفة نفسها وأمها كانت مقوياها في الغلط.

–فين أمها؟ عايشة؟

– سمعت إنها ماتت، العمر الطويل ليكي.

– وطنط شهيرة عايشة؟

– الله أعلم، ما نعرفش حاجة عنها.

–لو عايشة كانت حاولت تتواصل مع سليم وزينة، صح يا ماما؟

–هي قلبها قاسي يا بنتي، ممكن تكون عايشة زي الفل عادي، هي هتدور على الولاد بعد ما رميتهم زمان؟ وأكيد خلفت من جوزها وبقت ليها عيلة تانية.

– ممكن نسأل مين عنها؟

–وإحنا نسأل ليه، هو سليم قالك إنه عايز يوصلها؟

– سليم....، أنا بقالي كام يوم ما بكلموش من يوم ما كان هنا.

–هو زعّلك في حاجة؟

– أنا زعلانة من الدنيا كلها يا ماما، خلينا في المهم يعني ملهاش أخ عايش أو قريب نعرف منه.

- كان ليها أخ بردو في الخليج وجوزها التاني ده معرفة أخوها. وبعدين نعرف عنها إيه وليه، ربنا يسامحها بقى.

لم تصل سلمى في حديثها إلى شيء. فعادت إلى غرفتها، واستسلمت لدموعها وحيرتها ويأسها وعذابها بين إرضاء أبيها وإرضاء قلبها.

وتمضي الساعات وهي تفكر والتفكير يرهقها ويعذبها، ثم استقرت إلى أن تتحدث إلى والدها مرة أخرى فدخلت إليه في غرفته وأخبرته أنها تعاني، لا تستطيع أن تنسى سليم ولا تقدر أن تبتعد عنه، قبّلت رأسه وطلبت منه أن ينسى ماضيًا انقضى ولن يحييه إلا حديثنا عنه وتفكيرنا فيه، شهيرة لن تعود، حتى ولو كانت حية فقد ماتت أمومتها منذ زمن بعيد، منذ أن ألقت بطفليها إلى اليتم وهي على قيد الحياة.

تحدثت سلمى لوالدها كثيرا وكلها رجاء ألا يخاف عليها من سليم، فقبّلها بحنان، وقال في هدوء:

-صعب إنك تنسي سليم لكن مش مستحيل أبدًا، اللي هينسيكي سليم هو إنك تحبي غيره، في عريس ممتاز متقدملك، هيزورنا الجمعة الجاية، وأنا متأكد إنك لما تشوفيه هتعيدي التفكير في مشاعرك وحياتك كلها.

تفاجأت بحديثه وقالت ودموعها تنسكب بغزارة:

-يعني إيه يا بابا هتجوزني غصب عني؟

-أبدا يا حبيبتي، مش ممكن، إنما قابليه يمكن ترتاحيله، لو ما عجبكيش خلاص، أنا عمري ما أجبرتك على حاجة.

نظرت إليه نظرة تملؤها العتاب والألم، وأدركت أن والدها ما زال مكبلا، يقوده ماضيه المزعج، ويقوده خوفه إلى إبعادها عن سليم بأي طريقة، خرجت من غرفة والدها وأسرعت إلى أمها التي كانت تتابع برنامجًا على شاشة التلفاز وبكت في حضنها قائلة:

- أنا مش هشوف العريس ده، أنا أموت ولا أتجوز بالطريقة دي.

اندهشت الأم، فهي لا تدري شيئا عن هذا الأمر، فحضنت ابنتها بهدوء وقالت لها:

-مش ممكن تتجوزي غصب عنك، دا وعد يا سلمى، اهدي وسيبيلي الحكاية دي.

دخلت سلمى غرفتها، بينما هرولت الأم إلى زوجها وتحدثت بلغة قاسية وقالت رسالة واضحة إن هذا العريس لن يقابله أحد بل إنها ستأخذ سلمى وتخرج طوال اليوم. وليجلس وحده مع هذا العريس. لم تسأل الأم عن أي تفاصيل، فحاول الأب أن يوضح لها أنه عريس ممتاز وأي بنت تتمنى الزواج منه، ولكن بثينة رفضت أن تسمع، واتهمته بأنه يقتل ابنته بعناده، وحذرته من أن أي مكروه سيصيب سلمى سيكون هو المسئول عنه؛ بسبب هذا الضغط الذي يحمله لشابة صغيرة دون أي منطق ولا سبب.

وانقضت الليلة، وكل من في البيت قلق حزين، سلمى تخاف من والدها أن يجبرها على الزواج، وتخاف أن تعصاه، وتخاف على سليم إن أخبرته بما تعرف، وتخاف منه يوم أن يعرف ما يجهله.

وبات عبد العزيز يفكر في تعقد الأمر، وتذكر كيف كان يصدّر سليم في أمور سلمى عمدًا وهو يظن أن هذا يجعل سلمى تراه أخًا أو أبًا ثانيًا، ولكن لا تتعلق به كحبيب، ولكن فشلت خطته وحدث ما يخشاه، وأصبح لا يدري كيف يخرج من أكبر مشكلة مرت عليه في حياته. وباتت الأم حزينة تشعر بعذاب ابنتها وتخاف عليها من حزنها وألمها، فهي أصغر من هذا الألم وأضعف من كل هذا الضغط النفسي الذي صدره لها والدها وفي نفس اللحظة أصبحت تموت فضولا أن تعرف ما يخفيه عنها زوجها. فجأة ارتبكت كل حياتها البسيطة السلسة بدون أي أسباب واضحة.

خيم الحزن على الجميع وابتلع الخوف ضحكاتهم. سكن ليلهم وسكن بيتهم في صمت قاتل وخوف مريب.

*****

وبات لقاء داليا وعلي شيئًا يوميًّا معتادًا، وأصبح هو في كل تفاصيل يومها، يتحدث معها في وقت العمل وهاتفيًّا بعد العمل، وأحيانا يخرجان سويًّا، ورأت داليا في علي رجلًا هادئ الطبع واضح التفاصيل، بسيطًا في كل حكاياته، ربما لا يجيد كلمات الغزل والولع مثل زوجها السابق، ولكن كلماته البسيطة

ترضيها، وكلمة أحبك حينما يقولها تشعر بكل حروفها، هو لا يقولها بشفتيه بل يقولها بإحساس نابع من قلب يهواها بكل تفاصيلها وأزماتها وعيوبها قبل مميزاتها، وبدأ حب علي يتسلل إلى قلبها في هدوء دون مجهود منه أو منها، هل حقا أحبته وأغلقت كل صفحات الماضي؟كان هذا سؤالا يحاصرها ويلح عليها، ولكنها كانت على يقين أن محمود لم يعد له ذكر بين نبضات قلبها، لا تعنيها أخباره ولا يضايقها ارتباطه ولا تشتاق إليه، بل ربما اسمه إن مر أمامها ذكّرها بكل أيام الشقاء والمعاناة، إنها حقًّا ما عادت تذكر له إلا عذابها معه وحيرتها في بيته، وخيانته لها التي لم ينقطع عنها طوال زواجهما. فماذا تذكر له غير الخيانة؟ لقد غطت خيانته بذكرياتها السوداء على كل ليالي حبهما. أما علي كأنه هدية الله لها ليعوضها عن وجع الماضي، إنه الشخصية الرزينة العاقلة الهادئة المريحة في كل شيء، إنها تجد راحتها وسعادتها في كل لحظة تقضيها معه وكل ثانية تحدثه فيها، إنها تستمتع بحديثه حتى لو كان يتحدث في شيء عام لا علاقة له به أو بها. وما هو الحب إلا هذه الراحة التي تشعر بها معه وما كانت تبحث عن أكثر من ذلك، الهدوء والراحة والسكينة مع من تحب. ولكن يبقى بداخلها بعض القلق من خطوة الزواج، ربما يتبدل وتكتشف في شخصيته نواقص لا تحتملها، ألم يكن محمود في عينيها قبل الزواج هو الحبيب الرائع الذي ليس بعده ولا قبله حبيب؟ ثم تفاجأت بشخص أناني خائن يعيش لنفسه وأهوائه.

ظلت تفكر في الماضي والحاضر وسؤال هل تُقبل على الزواج يحاصرها ويحيرها، خوفها من فشل جديد يقاتل لهفتها في خوض تجربة جديدة فلا تجد مفرا إلا التراجع والتأني. وما زالت حائرة بين مخاوفها وأحلامها الحلوة.

في اليوم التالي قابلته حيثما اعتادا أن يتقابلا، كان مساءً منعشًا والجو لطيفًا والقمر منيرًا والنجوم متلألئة، وبدأ يحكي لها أحلامه في الغد وهي معه حبيبته وزوجته، فصرّحت له بحبها له ولكن أيضًا لم تخف عنه خوفها من تجربة الزواج مرة أخرى، فسألها بكل صراحة (هل ما زال محمود في قلبك؟) فأجابت بكل ثقة (لا)، فابتهج وارتاح قلبه وطلب منها أن توافق على خطبة معلنة أمام الجميع، وسيثبت لها أنه يحبها حبًّا حقيقيًّا، وأنها أبدا لن تندم على حبها له يومًا من الأيام.

وبعد أيام تمت خطبة داليا في أجواء عائلية هادئة وحضور اقتصر على أقرب المقربين فقط.

*****

اتفق محمود ونورهان على الزواج، فقد استطاع محمود أن يكتسب ثقة نورهان ويزيل كل مخاوفها واضطرت والدة نورهان أن توافق على إتمام زواج ابنتها ممن اختارت، وحجز محمود قاعة كبرى ليقيم لحبيبته حفلًا كبيرًا، وأبلغ والدته ووالده هاتفيًّا بموعد زفافه واستقبل الوالدان النبأ ببرود وهدوء بلا مشاعر واضحة، والدته ليست سعيدة ولا مرتاحة لهذا الزواج ووالده حزين على حاله، إن محمود

ما زال غير متزن يحيا حياة المراهق ولا يدري عبد العزيز متى ينضج ابنه ويستقر، كان يتمنى أن يكون محمود على نفس قدر اتزان ورزانة سليم، أن تكون لديه خطة لحياته، لقد ربى الاثنين بنفس الطريقة، فكانت الرجولة بكل معانيها في شخصية سليم والعشوائية والعبث والاستهتار بكل معانيها في شخصية محمود. وتساءل عبد العزيز: هل قصر في حق محمود؟ لماذا هو الشخصية التافهة التائهة بين دروب الحياة، مغرور مُنتشٍ بنفسه رغم أنه بغباء منقطع النظير أضاع من يده زوجة لن يعوضها؟

لا فائدة، إنه عنيد لا يستجيب لنصح ولا إرشاد، سيظل يتخبط في الحياة إلى أن تقومه الصدمات وتعيد تربيته الأيام، وتمنى والده له أن يفيق قبل فوات الأوان.

وتبقى مشكلة سلمى وسليم شغله الشاغل، ماذا يقول للعريس؟ كيف يتهرب من الموعد الذي حدده له سابقا بشكل لائق؟، فكر كثيرًا وانتهى إلى أن يؤجل هذه المقابلة لما بعد زفاف محمود، وقرر أن يدعو العريس إلى حفل زفاف محمود وتكون فرصة لتعارف سلمى والعريس دون أن تتضايق ابنته أو زوجته، لعل يكون لديه من الجاذبية ما يبطل سحر سليم على قلب ابنته.

استقر عبد العزيز على هذا الحل وأبلغ العريس بأن الأسرة منشغلة في الاستعداد لحفل زفاف ابنه محمود، وتفهم الرجل العذر وتقبله وقبل أيضًا الدعوة لحضور حفل الزفاف، وأبلغ عبد العزيز ابنته بأن موضوع العريس أُلغي تمامًا لأجل

عينيها ولأجل راحتها، فشكرته سلمى وارتاحت كثيراً لما أبلغها به والدها. من يدري لعل الغد يأتي بحل المشكلة؟

*****

الفصل الرابع عشر

ما زال الرومانسي جدًّا يحاصرها برسائل متعددة، كلها كلام عذب، صارت تقرأ الرسائل وتبتسم من رقة الكلام وعذوبة الوصف ولا ترد، فقط تقرأ وتبتسم، هذه الرسائل تسعدها، حقًّا تضفي على روحها لمحة من السعادة، وعلى مدى ثلاثة أسابيع متواصلة تتوالى الرسائل، كل يوم رسالة كلامية جميلة، أو أبيات شعرية تلهب المشاعر أو أغنية جميلة تفيض رومانسية، ثم انقطعت الرسائل، انقطعت لأكثر من عشرة أيام، يبدو أنه مل من غرورها ودلالها عليه، وأنها تسعد وحدها دون أن تسعده بكلمة، وقالت لنفسها (أنا أيضًا مللت رسائلك، فلتذهب إلى الجحيم)، قالتها بغيظ وضيق واختناق لأنها ليست صادقة، إنها لم تمل رسائله أبدًا، بل كانت تنتظرها يوميًّا ولم يكن لرسائله موعد محدد، فقد كان يرسلها في أي وقت، ربما تصحو عليها فتتفاءل بيومها، وربما تنام عليها فتتخيل هذا الرومانسي في أحلامها، وربما يرسلها في وقت العمل فتبتسم وتكتسب طاقة جديدة لمواصلة عملها، أبدًا لم تمل تلك الابتسامة الصادقة التي تغازل شفتيها وقلبها وروحها كلما جاءت رسائل هذا الرومانسي المجهول، إنه لا يضع له صورًا على صفحته الشخصية، يحتفظ لنفسه بهذا الغموض، وكأنه سر جميل في حياة من يغازلها، يبدو أن صبره عليها نفد، يا له من أحمق، قصير النفس، ولكنه رقيق يعرف كيف يقتحم قلب أي امرأة بسهولة، لا بد أنه وسيم، ربما

يكون أشقر ذا عيون ملونة. هكذا تتخيله، طويل القامة وسيم جدًّا، لا بد أنه في رقة كلماته وجمال أغنياته. وقالت لنفسها في يأس:

كان نغمًا جميلًا مضى، وحلمًا عابرًا عبر حياتي وتركها إلى بر آخر.

هكذا كانت ترى الرومانسي جدًّا وهْمًا أسعدها في وقت الحقيقة فيه لا تحنو عليها ولا تسعدها بنظرة أو لمسة أو كلمة رقيقة.

يا لها من معاناة حينما يصبح الوهم أجمل من الواقع، أكثر دفئًا وأكثر رفقًا وأكثر حنانًا، ليس كل وهم مرضًا وليس كل واقع يؤدي الغرض.

وبعد خمسة أيام أخرى عادت رسائله ويا لها من رسالة، لقد رسمها بمهارة فائقة، ما أن رأت نفسها بريشته وألوانه حتى انبهرت ووجدت أصابعها تكتب له سريعًا:

-إنت رسمتني إزاي كده؟

-من صورتك اللي على بروفايل الفيس.

-تجنن، مش معقول.

-بس أنا ما قدرتش أرسم جمالك، أنا ما عرفتش أعبر غير عن نسبة بسيطة أوي منه، إنتي أجمل من كده بكتير.

-إنت مين؟

–رومانسي جدًّا

–إنت مين، إنت تعرفني؟

– طبعا، إنتي كمان تعرفيني

–أنا أعرفك؟ إنت مين؟

–أنا بحبك، إزاي حبيتك معرفش؟ عارف إنك متجوزة بس حبيتك، وصعب حد يقابلك وما يحبكيش، أنا آسف.

–على إيه؟

–على إني حبيتك، أتمنالك السعادة، وأنا مش عايز أكتر من إني أطمن عليكي من وقت للتاني.

توقفت عن الكتابة وتوقف هو الآخر، وانتابها قلق بالغ، من هذا الشخص، هل زميلها في العمل، هل صديق زوجها؟ شعرت أنها تخاطر بحياتها وتقامر بها من أجل بضع كلمات، وجاءها هاجس مزعج، هل يكون زوجها ويختبر إخلاصها؟ هل هذا معقول؟ كلا، لقد جاءتها رسائل منه بينما زوجها إلى جوارها مندمج مع برنامج تلفزيوني ممل، ومن أين يأتي زوجها بهذه الأشعار والأغنيات؟ وإن جاء بكل هذا من مواقع الإنترنت كيف يرسمها بهذه البراعة؟

أبدا هو ليس زوجها ولكن من؟ من هذا الرجل المذهل؟ ظل السؤال يتردد في أذنيها طوال ليلتها، وظلت تتقلب من القلق على جنبيها ولم تنم، بينما زوجها يغط في نوم عميق لا يشعر بما تعاني، على الرغم من أنه سبب كل معاناتها.

*****

أنهت سلمى عملها واتصلت بزينة وأخبرتها أنها ستمر عليها في البيت إن كان سليم في الخارج، فأخبرتها زينة أنه لم يخرج اليوم ويشعر ببعض الإعياء، فانقبض قلبها وقررت أن تذهب للاطمئنان عليه.

كانت أول مرة تزور سلمى سليم وزينة في شقة والدهما، رحبت بها زينة كثيراً وسألتها عن عمها وأمها ومحمود، وسلمى تجلس مرتبكة، قلقة لا تدري رد فعل والدها إن علم بمجيئها هنا، ولكنها ما استطاعت أن تتجاوز معلومة أنه مريض، فلو كانت هي مريضة لجاءها في غمضة عين فكيف لا تطمئن عليه! بل على أسرتها كاملة أن تزور سليم. أكان عليها أن تأتي مع والدتها؟ ربما كان هذا حلًّا أفضل بكثير، ولكنها لم تفكر في شيء إلا أن تراه. لولا مرضه كانت ستزور زينة وتجلس معها في عدم وجوده، إنها تحتاج إلى زينة الأخت والصديقة وهي في أزمة أكبر من احتمالها بكثير، لاحظت زينة اضطراب ابنة عمها فسألتها:

–ما لك يا سلمى، إنتي قلقانة ولا أنا متهيألي؟

– أصل محدش يعرف إن أنا هنا وخايفة بابا لو عرف يضايق، بس كنت قاصدة آجي وسليم بره البيت.

–إيه سليم بره ولا جوا يا سلمى، أنا موجودة محرم يا ستي، وبعدين إنتي لو مع سليم في صحرا، مش ممكن تخافي منه أبدا، ولا إيه؟

هزت سلمى رأسها وقالت بصوت خافت:

–ما له سليم؟ إنتي قلقتيني عليه

–أنا هروح أعملك حاجة تشربيها وأصحيه حالا.

دقائق معدودة وخرج سليم من غرفته، وابتسامته الهادئة الحانية تملأ وجهه، فصافحها بسلام حار، وقال:

–إيه المفاجأة الحلوة دي.

–سلامتك يا سليم، مالك؟

–لا متقلقيش، يعني إرهاق شوية.

فجاءت زينة بالقهوة ومعها بعض الحلويات الشرقية، وقالت:

–ما بينامش يا ستي، مشغول وحياتك مشغول، أنا هروح أحضر الغدا وتتغدي معانا.

–بقولك محدش يعرف إني جاية، أنا هشرب القهوة وهنزل.

دخلت زينة إلى المطبخ وهي مصممة أن سلمى لن تغادر قبل الغداء، بينما سليم وسلمى في حالة صمت يتبادلان نظرات مليئة بالاشتياق وربما العتاب، ولمعت الدموع في عيني سلمى، فقال سليم:

-وحشتيني، يا ترى ارتاحتي في البعد.

- تفتكر؟

-إنتي اللي طلبتي، وأنا احترمت رغبتك.

فنظرت إليه في حزن ثم قالت في حزن بالغ وصوت مهزوم:

-بابا كان جايب عريس يا سليم

فنهض سليم واقفا وقال بانفعال:

-أنا قولتلك قبل كده إنه جايز يكون في عريس تقيل وما صدقتنيش.

فوقفت واقتربت منه وقالت هامسة:

-خلاص أنا رفضت وبابا قفل الموضوع

فداعب بكفه شعرها الذهبي وقال بضيق:

-ما افتكرش إن عمي قفل الموضوع

فنظرت إليه ودموعها تجري على خدها:

-أنا تعبت أوي يا سليم، أنا خايفة أوي.

فمسح دموعها بيديه وقال في همس:

-اوعديني يا سلمى إننا هنتحدي الدنيا سوا، وبلاش فكرة إنك تعاقبيني وتخاصميني، حاسبيني على ذنب أنا عملته لكن رافضة تكلميني ليه، إحنا المفروض نتقوى ببعض مش نبعد عن بعض وكل واحد يتعذب وحده.

-يعني إنت مشاعرك ناحيتي هي هي يا سليم؟

-لا طبعا، أنا بحبك كل يوم أكتر من اليوم اللي قبله.

فابتسمت وقالت:

-اوعدني إن مفيش حاجة تغيرك من ناحيتي أبدًا، اوعدني إن عمرك ما تحاسبني على ذنب مش ذنبي.

-أوعدك إنك تفضلي أغلى من حياتي طول العمر، إنتي أنا يا سلمى، بس مش أنا اللي بتخانق معاه وأزعل منه ورافض حاجات في شخصيته، إنتي أنا اللي أتمناها وأخاف عليها وأحب كل ما فيها، فاهمة يعني إيه إنتي أنا.

تنهدت وسرحت في حنان عينيه دقائق، وفي هذا الشوق الذي يطل عليها من بين جفنيه فيذيبها في أنفاسه الملتهبة فتصبح جزءًا لا ينفصل عنه ثم انتبهت إلى صوت زينة تنادي (عشر دقايق ويكون الغدا جاهز)، فانتبهت سلمى إلى الوقت ونظرت في ساعتها وقالت بقلق:

-يا خبر، أنا اتأخرت يا سليم ولازم أمشي.

-أنا هوصلك، انتظري دقايق بس.

فطلبت منه سلمى أن يتركها تعود وحدها، خاصة أن معها سيارتها، ثم ودعته مسرعة واعتذرت لزينة عن عدم تناول الغداء، وانصرفت وهي تشعر براحة افتقدتها أيامًا طويلة.

*****

أُضيئت الأنوار وبدأ الاحتفال بالعروسين، نورهان في قمة جمالها وتألقها ومحمود مزهو بنفسه وبعروسه الفاتنة، ووالدة العروس إلى جوارها لا تبتعد ثانية، وأسرة محمود كلها تجلس حول طاولة في مقدمة الحضور، جلست بثينة وزوجها إلى جوار بعضهما ثم جلست سلمى ثم زينة ثم سليم.

الأم تدعو لابنها بالاستقرار والنجاح في زواجه، وزينة تراقب العروس والحضور في صمت، وسليم وسلمى كلاهما يفكر في نفس الحلم ونفس الأمل، وعيناهما تلتقيان خلسة على استحياء، بينما العم ينظر حينًا في ساعته وحينا يتلفت حوله، الوقت يمر والحفل مميز وصاخب، وجاء علي واحتضن صديقه وبارك له وتمنى له حياة سعيدة، بينما انتبه محمود أن علي في يده اليمني خاتم خطبة، فضحك قائلا:

-إيه ده، إنت خطبت من ورايا، إزاي ما تعزمنيش.

-معلش، كانت خطوبة على الضيق، لكن تتعوض في الفرح.

-مين العروسة؟

-خليك في عروستك دلوقتي وأنا هحكيلك كل حاجة بعدين على رواقة.

بارك علي لوالد صديقه فهو يعرفه منذ أيام الجامعة وقدم التهنئة لكل أفراد العائلة، ثم جلس وحده يتابع فقرات الحفل الساهر.

وجاء شاب طويل القامة أبيض البشرة، ذو عيون سوداء واسعة وشعر بني غامق، كان أنيقًا إلى درجة لافتة يسير في خيلاء وثقة، اقترب من طاولة أسرة عبد العزيز، فنهض عبد العزيز مسرعًا، وسلم عليه بالأحضان ورحّب به ترحيبا حارًّا وقدّمه للأسرة، إنه طارق شكري طيار، وقدّم له أفراد أسرته جميعًا وأصر عبد العزيز على أن يجلس معهم على نفس الطاولة، كان اهتمام عبد العزيز بهذا الشاب لافتا للانتباه، وكان مقعد طارق مواجها لمقعد سلمى، وانتبه سليم إلى أن طارق هذا يتابع سلمى بشكل مستفز، فركز نظراته عليه وأصبح يتابعه بدقة بل يكاد يعد أنفاسه، وبدأ طارق يتكلم ويحكي عن عمله ورحلاته ومشاق عمله ومميزاته، والجميع يستمع بإنصات، وسلمى صامتة ويدور في عقلها سؤال:

-من هذا؟ ولماذا أبي يتمسك بجلوسه معنا؟

بينما سليم كلما تكلم هذا الشاب ازداد ضيقا وانعكس على ملامح وجهه، والأم تتابع بتركيز، وسلمى تخفض بصرها أغلب الوقت وبين الحين والآخر تنظر

إلى والدها وإلى سليم، أما زينة كانت تتأمل هذا الشاب وابتسامة عمها التي لم تفارق وجهه منذ أن جلس بينهم. وأكمل هذا الشاب باقي الحفل وهو معهم.

انقضت الليلة بكل ما فيها، وعاد سليم مع أخته وفي طريق العودة أبدت زينة ارتيابها من هذا الشاب فقالها سليم صريحة إن هذا هو الشاب الذي كان سيتقدم لخطبة سلمى، ولكنها رفضته دون أن تراه، فجاء به العم بطريقة أخرى ليقنعها به.

لم تجادله زينة لأنها مقتنعة بما يقول، وشعرت بالقلق على سليم مما يحاك له لمنعه من الزواج من حبيبته وفي عقلها سؤال يفتك برأسها:

-لماذا؟ لماذا يرفض عمي زواج ابنته لسليم؟

لم يستطع سليم النوم دون أن يكلم سلمى، كان مختنقا مما يفعل عمه، فاتصل بها وسألها بانفعال عن رأيها في هذا الشاب الوسيم المثالي، فأجابته بأنها لا ترى سواه، ولن تحب غيره وقالتها وستقولها دومًا لوالدها بصراحة إنها لن تتزوج أبدًا إلا سليم.

كانت كلماتها واضحة لا تقبل التزييف، قالت له أحبك إلى الأبد، فبادلها نفس كلمات العشق وانتهت المكالمة على وعد قاطع بأن يتمسكا سويا بحبهما مهما كانت العقبات والعواقب.

*****

الفصل الخامس عشر

-ممكن نتقابل؟

آخر رسالة أرسلها لها الرومانسي جدًّا ومنذ أن قرأتها وهي في حالة من التوتر والقلق والاضطراب، عقلها وضميرها يصرخان بوضوح:

(لا لا ابتعدي عنه، لا تقابليه، إن طريقه هو طريق الهاوية)، ولكن قلبها يزج بها إلى هذه المقابلة كما يزج الخبز في الفرن والنار، إنها تتلهف لأن تراه بعينيها، أن تسمع صوته، أن تربط الصورة التي رسمتها له في خيالها بصورته الحقيقية، فيبغضها عقلها وضميرها ويصرخان أين خالد من كل هذا؟ فيئن قلبها بعذابها الذي أحرقه بين يدي خالد ويسأل بأعلى صوته نفس السؤال أين خالد؟ لماذا يترك قلب زوجته خاويًا يتلهف لأي كلمة حانية وأي همسة رقيقة حتى ولو كانت من مجهول، خالد هو من يضيع حياتها ويقتل مشاعرها.

وقالت لنفسها: من حقي أن أتنفس العشق ولو لدقائق قبل أن يمضي شبابي بلا رجعة. كم سأحيا؟ إنها حياة واحدة لماذا أحياها في حرمان وجفاف عاطفي بين يدي رجل بلا مشاعر.

ثم صاح قلبها في يقين: أنا لن أخون ثقته، لن أستسلم لرغباتي وأهوائي، فقط أنا كالمصطاف الذي يرحل وراء نسمة صيفية لطيفة أيامًا معدودات ثم يعود إلى

حر صيفه وجحيمه، أنا لا أحتاج إلا إلى نسمات غرامية وهمسات عاطفية تشرق بها شمس حياتي الغائبة خلف غيوم اللاعاطفة.

وظلت ليلة كاملة تفكر وتتمزق بين عقلها وقلبها، بين ضميرها ورغبتها، وإلى جوارها خالد يغط في نوم عميق مرتاح القلب والعقل.

ونامت قبيل الفجر واستيقظت وصوت قلبها لا يعلو عليه صوت ولهفتها تقودها إلى طريق شائك وهي على يقين أن كل طرق الحياة شائكة.

ذهبت إلى عملها وباحت لسلمى بسرها، إنها ستقابل هذا المجهول اليوم في النادي الثالثة عصرا، وطلبت من سلمى أن تكون معها في النادي تحتمي بها من كلام الناس وأعينهم، فرفضت سلمى في استياء وحذرتها مما تخطو نحوه بلا وعي، ولكن نجلاء اتخذت القرار، ستقابله في مكان عام بين الناس، وستعرفه في وضح النهار كما تعرف مئات الأشخاص، ولكن هي في احتياج إليه هو بالذات، تحتاج إلى حنانه وإلى اهتمامه، مجرد كلمات تريحها وتسعدها وتهوِّن عليها مصاعب الأيام، بعدت سلمى عنها وجلست تقلب في هاتفها في صمت، ونظرت إليها نجلاء بابتسامة ساخرة، إنها تسخر منها ومن أنانيتها، كيف لسلمى أن تشعر بعذابها وهي التي يعزف لها سليم كل ثانية أنشودة العشق. إن سلمى تحب وتعيش ليالي الهوى بكل مشاعرها، تسعد وتحزن وتشتاق وترق، وقلبها يدق بعدد أنفاس حبيبها ولهفته عليها، من تحيا حب بهذه الروعة كيف لها أن

تدرك عذاب امرأة تحترق شوقًا إلى كلمة رقيقة ومشاعر حانية ولمسة دافئة. قالت لنفسها:

- لا أريد مساعدتها، سأذهب وحدي

وذهبت إلى لقائه بخطوات متأرجحة بين التردد والإقدام واللهفة والخوف، ورغم كل هذه المشاعر المتناقضة كانت في انتظاره في الموعد، وجاء إليها بعد وصولها بخمس دقائق شاب شديد السمرة، طويل القامة نحيل القوام، عيونه واسعة سوداء فيها سر فرعوني غامض، وأنفه الكبير يأخذ نصف وجهه وفمه واسع وجبهته عريضة وشعره خشن غير مصفف باهتمام، ذو شارب ولحية خفيفة يرتدي بنطالا من الجينز وقميصًا ملونًا بألوان متداخلة كأنه لوحة من الفن التشكيلي.

اصطدمت الصورة التي كانت في خيالها بالصورة الحقيقية، وشعرت أنها رأته سابقًا ولكن لا تذكر أين، فقالت بهدوء:

-إحنا اتقابلنا قبل كده؟

-نسيتيني، لكن أنا من يوم ما دوستي لوحاتي وأنا مقدرتش أنساكي.

شقهت من المفاجأة وقالت في اندهاش:

-مش معقول، إنت! طيب ووصلت لصفحتي على الفيس إزاي؟

- بصراحة أنا فضلت زعلان أوي على شغلي ولوحاتي، لكن ملامح وشك انطبعت في عقلي، وبدأت أركز فيها، واكتشفت إنك جميلة أوي، يمكن أجمل بنت شفتها في حياتي. لغاية ما شوفتك يوم فرحك، أنا كنت بشتغل في الفندق، معرفش ليه كان يوم صعب أوي عليا، ويومها عرفت إن صورتك مش مطبوعة في عقلي، لا، مطبوعة في قلبي. اكتشفت إني بحبك إزاي معرفش، وحبي هو اللي خلاني أحفظ اسمك وأدور على بروفايلك، وقررت أقرب منك وأقولك بحبك، صحيح إنتي خلاص اتجوزتي بس من حقي أحبك ومن حقك تعرفي إني بحبك.

كانت تستمع إليه بإنصات، ورغم إنه لم يكن نفس الصورة التي رسمتها له في خيالها، لكنه هو نفس الشخصية التي تصورتها، يأسر القلب بحديثه الرقيق وصوته الجذاب، فيضفي على ملامحه السمراء جمالًا خاصًّا. صمت هو، وانتبهت أنه توقف عن الكلام فقالت:

-معقول أعرف إنك بتحبني ومعرفش اسمك حتى، إنت مين؟

-حسين عبد السلام، خريج فنون جميلة، لكن بشتغل أي حاجة، مرة كاشير، مرة جرسون، مرة مغني أفراح، أي حاجة.

-إنت متجوز؟

-أتجوز؟ مين بقى اللي هترضي تتجوزني، أنا ما حيلتيش إلا جيب فاضي، دايما فاضي.

-الفلوس مش كل حاجة

-بس البنات بتحب العريس الغني، اللي يجيب أغلى شبكة وأكبر شقة وأحسن فرش وأفخم فرح. إنتي مش عريسك غني؟

-آه

-بتحبيه؟

فاجأها بالسؤال فارتبكت وهمت أن تقر بالحقيقة ولكنها تراجعت وصمتت.

فابتسم وقال:

-أنا واثق إنك مش بتحبيه.

-ليه؟

-يوم الفرح كنتي فرحانة بالفرح بالفستان، بكل حاجة إلا خالد، نظرتك ليه ما يفهمهاش إلا واحد بيحبك.

-ليه ما ظهرتش في حياتي قبل خالد.

-مكنتش هتفرق، بردو كان خالد هو اللي هيكسب.

وانقضى وقت ليس بالقصير في حديث جميل، أحبت نجلاء كل دقيقة فيه، إنه يشاركها الكلام، يشاركها الوقت، يقاسمها الابتسامة، يتأمل ملامح وجهها كما لو كان أمام ملكة جمال العالم، في عينيه نظرة تحلق بها فوق السحاب، ويا له من إحساس تمنته طويلا، وحتى لو جاء متأخرًا يكفي أنها ذابت في مذاق الحب الجميل، ثم فاقت من حلمها الجميل على غروب الشمس، فغربت سعادتها واضطرت إلى العودة إلى منزلها بعدما ودعته على وعد بلقاء قريب.

*****

ومضت أيام شهر العسل، وعاد محمود وزوجته إلى العمل، وبدأت الأيام تدور في حلقة روتينية متكررة، وبدأ محمود يشتاق إلى سهرات أصدقائه وتذكر علي، فطلبه هاتفيًّا واتفقا على أن يتقابلا، وتقابلا في النادي مساء، وسأله عن حاله بعد الزواج فعبّر محمود عن سعادته مع نورهان، وأن الله أكرمه هذه المرة بزوجة مثالية يعتبرها هي البداية الحقيقية لحياته، ثم سأل محمود باهتمام عن عروس علي التي يخفيها عنه حتى الآن، فأخبره أن خطيبته هي داليا، كانت صدمة محمود واضحة على وجهه، في عيونه التي اتسعت وضحكته التي تجمدت وكلماته التي احتبست، ومرت دقيقتان من الصمت، حاول علي أن يستوعب فيها رد فعل صديقه ومحمود حاول أن يستوعب ما سمع، ثم سأل محمود وكأنه يريد أن يسمع من علي كلامًا آخر وحقيقة أخرى.

–داليا مراتي يا علي؟

فابتسم علي وقال في هدوء:

-لا، داليا طليقتك يا محمود، ولا نسيت إنك طلقتها واتجوزت اللي بدأت معاها حياتك الحقيقية زي ما قلت من دقيقتين.

فصرخ محمود منفعلا:

-إنت إيه، خلصت الستات يا علي، جاي من آخر الدنيا تتجوز مراتي؟ بتخوني يا علي؟ إنت صاحبي إنت؟

فقال علي بهدوء:

-اهدا، إيه اللي بتقوله ده، أنا حاولت أصلح بينكم وإنت رفضت، إنت عايز إيه، عايز تعيش وهي تموت بعدك، أنا هسيبك لحد ما تهدا ولينا كلام تاني بعدين.

غادر علي مسرعًا، وكان محمود في حالة من الصدمة والهياج غير طبيعية لا تسمح له بالنقاش والاستيعاب، وغادر حتى لا ينتهي الأمر بمشاجرة، غادر حتى يبقى على شيء حي من صداقتهما. ولكنه أيقن أن محمود لن ينسى له أبدًا ذلك، إنه يريد أن يعيش دور المظلوم المخدوع، أي ظلم وهو من ظلم وقهر زوجته؟ وأي خداع وهو كان يرجوه أن يحافظ على بيته وحياته؟

إنه لأول مرة يرى محمود صديقه على حقيقته، شخص أناني لا يحب إلا نفسه، لا يعرف كيف يحب أو كيف يرحم؟. هذه حقيقة محمود، ولكن بداخله شيئًا

يريد أن لا يخسره، هو يريد أن يبقى صديقًا له، ولكن هل ما زال محمود يتمسك بهذه الصداقة؟

عاد محمود إلى بيته الأول، الذي تزوج فيه هو وداليا، ودخل الشقة وأضاء الأنوار، وشعر برائحتها في المكان، بطيفها يطوف بين الغرفات، بعينيها تراقب حزنه وألمه الآن في صمت.. جلس على مقعده المريح الهزاز في غرفة النوم، وظل يهتز في جلسته ويتأرجح كما تتأرجح كل مشاعره الآن، ما كل هذا الألم الذي يعتصره الآن، لم يشعر بكل هذا الألم يوم أن طلقها وافتقدها للأبد، أكان يتخيل أنها لن تتزوج غيره، أكان يتخيل أنها ستبقى راهبة في محراب عذابه بقية أيامها؟!

فكّر طويلًا ثم ضحك بصوت عال، ربما يضحك على غبائه، ربما يضحك على غروره، ربما يضحك ليخفي تلك الدموع التي تغلبه الآن وهو يتخيلها في أحضان علي صديقه بعد الزواج.

جفف دموعه سريعًا وسأل نفسه:

- هل أنا حزين لأني أحبها أم لأني أحب نفسي وأرفض أن تسعد بعدي؟ هل يعد حزني أنانية أم حبًّا؟

إنه لا يفهم شيئًا ولا يقدر أن يجيب عن هذه الأسئلة. إنه لا يفهم نفسه، وهذا أصعب ما في الأمر ألا تفهم نفسك، ألا تعرف ماذا تريد من الأيام، ألا تدرك ما المعنى الحقيقي لسعادتك.

وراح يدور ببصره في الغرفة وبين الجدران بنظرات زائغة إلى أن استقرت نظراته على صورة زفافهما المعلقة على الجدار، هذا كل ما تبقي من سنوات حبهما وزواجهما، فأسرع إلى الصورة وأنزلها ومسح الأتربة التي عليها، فبرزت داليا بجمالها الساحر الهادئ أمامه، فابتسم ووجد عينيه تتأملاها، تحتضن ملامحها وأصابعه تتحسس تفاصيل وجهها كأنه اشتاق أن يلمسها، ثم احتضن الصورة واستلقى على الفراش والبرواز في حضنه، وأطلق دموعه الحبيسة فما عاد يحتملها، يبكي حزنًا أو أنانية أو شوقًا أو غيظًا لا يهم، إنه يريد أن يبكي لعله يرتاح.

لا يدري كم من الوقت مضى وهو يحتضن الصورة ومستريح، كأن الصورة أراحته وأنسته الزمان والمكان، وانتبه إلى صوت هاتفه، إنها نورهان، والساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل. فأعاد الصورة مكانها وغادر بيت ذكرياته إلى بيت حاضره.

*****

استجمع زياد كل جرأته وكل شجاعته كي يتصل بها هاتفيًا، إنه خجول لدرجة تخنقه، وتفقده أحلامه وهي أجمل أحلامه، لا بد أن يتقرب منها، لا بد أن يعبر لها عن اهتمامه، ويصنع بيديه الوقت المناسب ليبوح بحبه الكبير، فاتصل زياد بزينة وهو يلملم كل جرأته وكثيرًا من لباقته وبعضًا من لهفته، وينظم حروف كلماته كي تنسج جملًا رقيقة في رقتها، وتلقائية مثل تلقائيتها، وحانية كحنان

عينيها الذي يغرق فيه كلما رآها فيبتلع خجله أغلب كلماته ولا يبقى إلا على قليل من الكلمات التي لا تلفت انتباها ولا تهز مشاعرها. سأل عن أحوالها باهتمام وعرض عليها أن تأتي لتناول العشاء الليلة في المطعم فقالت بصوت رقيق تخالطه ابتسامة أرق إنها لن تكرر هذه التجربة؛ لأنها تنسف رشاقتها نسفا، فعرض عليها أن يتفق مع سليم على يوم ترفيهي يقضونه جميعا في أي مكان تختاره فقالت إنها لا تعارض إن وافق سليم، فحياها بتحية رقيقة وأنهى المكالمة. أنهاها وهو سعيد، أي لحظة قد تجمعه بها تسعده من قبل حدوثها فماذا لو كان يوما؟، وخطر في باله أن يتفق مع سليم على سفر، ربما يكون أسبوعًا في أحد المصايف فرصة أن يتقرب منها، ولكن هل سيوافق سليم؟ قد لا يوافق سليم وهو مشغول مع سلمى وعليها، وانتبه زياد أن سليم لن يبتعد عن القاهرة وعمه يحاصر سلمى بذاك الطيار، قد يتطور الأمر في غيابه، فكر وأدرك أن سليم لن يسافر، ولكن يمكن أن يوافق على نزهة يوم في أي مكان، وعلا في أعماقه صوت يقول:

- أنت تدور في دائرة خجلك ولن تخرج منها، اذهب إليها، قل أحبك أمام الدنيا، عندها ستراك، ستحسك، ستحبك، إن النساء جميعا يُرِدن من يختطف مشاعرهن ويطير بهن في سماء العشق.

ابتسم من هذه الفكرة المجنونة الرائعة وقال لنفسه:

- ولم لا؟ لماذا أفكر في ألف فكرة كي أقول كلمة واحدة؟. الحب جنون، لا بد أن تنتابني تلك الحالة قبل أن يختطف قلبها من هو أكثر مني جرأة وجنون.

ووقف يدور حول نفسه في مكتبه يصارع خجله ويقاوم قيوده، ويحاول أن يتخطى حدوده ويرسم لقلبه وجودًا غير الوجود.

ودخل سليم عليه وهو حائر يسير في المكتب ذهابًا وإيابًا ويتكلم بهمس إلى نفسه، فسأله باهتمام:

–مالك يا زياد؟

–أنا عايز زينة تحبني أعمل إيه؟

–قولها.

–خايف أقول تصدمني وتقولي إنت زي سليم أخويا.

–خلاص خليك قاعد يا زياد كلم نفسك كده لغاية ما تتجنن.

–طب قولها إنت إني عايز أخطبها

–ممكن، بس لو قولتلها أنت إنك بتحبها متهيألي هتحسها وتصدقها.

كان سليم يتحدث في هدوء وثقة، وحاول أن يبعث الثقة في صديقه وينتزع خجله، ثم ساد الصمت وسرح كل منهما في مشكلته وحبيبته وحكايته، وكل منهما يرى أن حكايته العقدة المشدودة التي يصعب أن تفك.

*****

الفصل السادس عشر

عادت سلمى من عملها مرهقة متعبة، ووجدت والدها عبد العزيز في انتظارها بوجه شاحب ونظرات زائغة، وكان يبدو أنه يريد الحديث معها، لم تسأله عن شيء، ولكن ظلت تراقبه بعينيها وتتساءل ما سر توتره؟

وبعد تناول الغداء، جلس معها على انفراد في غرفتها وأخبرها بالمفاجأة الصادمة، شهيرة عادت إلى مصر، ويا لها من مفاجأة، انقبض قلب سلمى وشعرت أن كل حياتها تُزلزل وكل ما حولها ينهار، فسألت والدها والدموع في عينيها ماذا ترى؟. فرد والدها بأن رسالة هاتفية جاءته من رقم مجهول من امرأة تدعي أنها شهيرة، وأنها وصلت مصر وتريد مقابلته فورًا، ولكنه تهرب من اللقاء وتعلل بأنه منشغل بشكل كبير هذا الأسبوع ولكنها تصر على اللقاء وتنتظر منه تحديد موعد، وسلمى تستمع بإنصات وتركيز وتعتصر كل ذكائها لتفهم ما يحدث وسبب عودة هذه المرأة، وطرحت على والدها فكرة قد تكون هي سبب عودتها، ربما تريد أن تتعرف على زينة وسليم وتريد منه أن يساعدها في تحسين علاقتها بهما، لا بد أنها تدرك جيدًا أنهما لا يغفران لها ما فعلت بهما. ولكن والدها أكد لها أنها جاءت تحفر في قبر الماضي ومثلها لا يعرف لغة المشاعر، فهي لا تشتاق لأولادها، فعادت سلمى تسأل نفس السؤال القديم بإلحاح ما الماضي الذي جاء بها؟ ما الماضي الذي يخشاه؟ ما السر الذي يخيفه؟

ظلت تسأل بانفعال وإلحاح ودموعها تجري على خديها تشكو ألمها واختناقها بأسرار والدها المجهولة، بينما والدها منكس الرأس صامتا لا يجيب على أسئلتها ولا يرحم دموعها.

فر عبد العزيز من تساؤلاتها ودموعها إلى غرفته، وتركها بين حيرتها وعذابها وحبها وخوفها من ماضٍ مجهول ومستقبل غامض تذوب وتحترق، وجلست سلمى في فراشها تفكر فيما تريده تلك المرأة، هل تريد خيرًا أم شرًّا؟ ثم سألت نفسها كيف لم تسأل شهيرة عن سليم وزينة، كيف لم يهزها اشتياق طوال هذه السنين وحينما عادت لم تحاول مقابلة ابنها وابنتها وتسعى بكل قوتها لمقابلة عم أولادها؟ يا لها من امرأة غريبة في كل شيء! ربما يكون تخوف والدها منها في محله، ولكن ما السر الذي بينهما؟ سر يجعلها تبحث عن عم أولادها قبل أولادها، لا بد أنه سر كبير مريب، سر يخيف كليهما ويقف سدًّا بينها وبين حبيبها رغم أنهما لا يدريان عن الماضي شيئًا أبدًا، ولكن كثيرا ما يحمل الأبناء خطايا الآباء.

وبينما هي تائهة بين أسئلة كثيرة وعلامات استفهام متعددة لا تنتهي، جاءها اتصال هاتفي من زينة، فردت عليها بصوت خافت خائف مما قد تحويه المحادثة، فأبلغتها زينة أن هناك رسائل من امرأة مجهولة تدعي أنها أمها جاءت لها ولأخيها في نفس الوقت، وأن تلك المرأة تريد لقاءهما.

وأدركت سلمى أن شهيرة جاءت بالماضي كله لتقلب حياة الجميع كما كان يتخوف والدها، وحاولت سلمى أن تبدي دهشتها لزينة من هذا الأمر كأنها لم تكن تعلم شيئًا وسألتها عن رد فعلها ورد فعل سليم وكيف سيتصرفان؟

فقالت زينة إنها ترغب بشدة في رؤيتها، تريد أن تعرفها، أن تعاتبها، أن تحاسبها، ربما تريد أن تعاقبها، أن تصارحها بأنها امرأة بلا قلب ولا تصلح أن تكون أمًّا، ربما تستبد بها الرغبة أن تقول لها وجها لوجه إنها تكرهها، فتعاطفت سلمى معها جدا وشعرت بحيرتها وعذابها وسألتها عن موقف سليم وكيف سيتصرف وهل يريد أن يراها؟ فأخبرتها زينة أن أخاها لا يطيق سماع اسم شهيرة، ويرفض مقابلتها تمامًا ولا يعترف بها أمًّا له، فشعرت سلمى بقليل من الارتياح، إنها حقا لا تريد أن يقابلها، ولا أن تقترب شهيرة من سليم أبدًا، فلن يأتي من وراء شهيرة خير..

تحدثت سلمى مع زينة بكلمات قليلة، وأنهت المكالمة وهي لا تدري كيف سينتهي الأمر. ولكن تريد أن تطمئن على سليم وتتأكد منه أنه لن يقابل تلك المرأة.

فقررت الاتصال بسليم سريعا، لتعرف رد فعله وكيف يرى عودة أمه بعد كل هذه السنوات لعلها ترتاح، وسألته مباشرة عما سمعت من زينة، فتفاجأت به يقول بانفعال شديد وعصبية زائدة:

–اوعي تكوني عايزة تضغطي عليا إني أشوفها وتقولي نفس كلام زينة، أنا أمي اسمها بثينة، ماما بثينة هي اللي ربتني وراعتني، الست شهيرة دي معرفهاش ومش عايز أعرفها حتى لو كان غصب عني اسمها في شهادة ميلادي.

تنهدت سلمى تنهيدة عميقة كأنها أنزلت من على صدرها حملا ثقيلا يكتم أنفاسها، ثم قالت:

-أبدًا يا سليم، اعمل اللي إنت شايفه صح، إنت عندك حق.

فصمت ثواني معدودة ثم قال:

-أنا آسف إني انفعلت عليكي، بس أنا مخنوق شوية، عارفة أنا نفسي في إيه؟

-إيه؟

-أشوفِك، أنا لما بشوفك قدامي بنسى الدنيا كلها وكأني استكفيت منها بيكي.

-حتى وإنت زعلان بتقول كلام يجنن كده، طيب أنا أعمل إيه دلوقتي، أنا كمان عايزة أشوفك.

-يبقى تفكري فيا لغاية ما نتقابل يا حبيبتي.

أنهت المكالمة وهي سعيدة أن سليم لا يبدي أي رغبة في لقاء تلك المرأة وبالتأكيد حتى لو قابلها لن يصدق كلامها وربما لن يمنحها وقت أو فرصة تتكلم وتشوه صورة العم المثالية في عينيه.

*****

أخبرت سلمى والدها أن شهيرة لم تتواصل معه فقط، بل تواصلت بنفس الطريقة مع سليم وزينة، أبلغته أن سليم يرفض مقابلتها ولم يهتم برسالتها، بينما زينة تتمنى أن تراها وموقفها مغاير تماما لموقف سليم، فازداد قلق عبد العزيز.

ارتدى ثيابه وخرج من البيت، لم يعد قادرًا على البقاء في مكانه بكل هذه المخاوف التي تلتف حول عنقه وتخنقه بلا رحمة، خرج ولم يهتم بتصفيف شعره ولا استخدام عطره، إنه يهرب من نفسه وخوفه وذنبه الذي يزحف من مقبرة الماضي بروح جديدة، خرج إلى الشوارع، إلى الهواء الطلق، لعل حزنه يضيع منه بين الزحام، ويتوه عنه وينسكب على أناس غيره. لقد تعذب طويلًا، لقد تعذب سنوات وما زالت رحلته مع الخوف والعذاب مستمرة، لم تنقطع طيلة أعوام طويلة متتالية، أحيانًا نخطو نحو العذاب بلا وعي، وحينما نعي ما نفعل يكون انقضى وقت العودة وأغلق باب الرجوع، ولكن باب التوبة مفتوح، الله وعدنا بذلك، إذن لماذا ذنبه لا يموت، يحاصره العمر كله رغم أنه حاول طويلًا أن يكفر عنه، لقد عاش أبًا لسليم وأخته، لعل هذا يغفر ذنبه أمام الله، ولكن يبدو أن ذنبه لن يموت إلا بموته، ليت الأمر انحصر بعذابه وحده بل إن الماضي الذي يحاصره ويخنقه صار يخنق سلمى أيضًا. ماذا فعلت سلمى كي تتألم بذنب لم تجنِه؟ لم يدرك أبدًا أن الذنب نار تحرق حياة كل من يحبهم، ما زال سائرًا بين الناس، ولكن أفكاره ومخاوفه تصاحبه، فهو لا يشعر بالناس حوله ولكن يشعر بخوفه وقلقه وألمه. أرهقه التفكير وأرهقه السير، حتى صحته لا تعينه في رحلة الهروب، كل شيء تبدل وتغير مع السنين، أشياء كثيرة ضعفت مع الأيام، بصره، قوته، صحته بالكامل ولكن سطوة الماضي عليه تزداد، كلما كبر سليم كان يخاف، كلما اهتم بسلمى خاف عليه ومنه، وبعد ظهور شهيرة أصبح خوفه حقيقة وليس مجرد هواجس تطارده.

جلس على أول مقهى صادفه، لقد أنهكه سير قصير لم يتعد نصف ساعة، وطلب قهوة سادة وانتظرها كما ينتظر مصيره بعد مقابلة شهيرة، لا بد أن يقابلها ويعرف ماذا تريد؟ ربما تكون مشتاقة إلى زينة وسليم وما تريد منه إلا أن يمهد لها الطريق لمقابلتهما، ولكن ما الذي ذكرها بهما الآن، كيف قمعت أمومتها أعواما متواصلة وأيقظتها الآن؟، في داخله شيء أقرب إلى اليقين أن لعودتها سرًّا مزعجًا وقد يكون مؤلمًا.

*****

ما زالت نجلاء تتواصل مع حسين هاتفيًّا وتقابله بين الحين والآخر، كل محادثة هاتفية تفتح له طريقًا إلى قلبها، كل مقابلة تختصر أيامها في دقائق اللقاء وتحلق بها فوق سحاب السماء وتنير لها ظلام طريقها بألف ضياء. كيف تسلل إلى أيامها بهذه القوة في فترة وجيزة؟ لقد خطت نحوه كرحلة المصطاف إلى النسمة الهادئة والهواء المنعش والجمال المريح بضعة أيام قليلة، ولكنها الآن تبحر بقارب حبه الذي يقف بها في عرض البحر، لا هي تستطيع العودة إلى شاطئ حياتها السابقة ولا بإمكانها الإبحار أكثر في بحر لا ترى شاطئه الآخر، وبدأ الخوف يسكن أيامها، تخاف من حسين وحبه ومن نفسها ومن انجرافها في تيار مشاعر بلا عقل ومن زوجها إن شعر بما تفعل، وفكرت قليلًا كيف لم ينتبه زوجها إلى أنها تغيرت، لم تعد تحاول أن تغير فيه شيء، إنها لبست ثوب صمته وهدوئه

طوال تواجدهما سويًّا، فانتابها حزن شديد، إنه لم يلحظ شيئًا ولم ينتبه إلى شيء، ربما يكون مرتاحًا وسعيدًا بصمتها، فكرت قليلا ثم قالت لنفسها:

– أي راحة تلك التي أنت فيها يا خالد؟ كل يوم يمضي أبتعد عنك، أضيق بك، أضيع منك، سأبقى في حياتك صورة اجتماعية، وستبقى في حياتي صورة اجتماعية مشرقة أمام المجتمع، ولكن الحقيقة أننا لا تجمعنا إلا صورة زفافنا ومنذ ذلك اليوم وكل منا هجر الصورة الكبيرة وانسلخ إلى عالمه الخاص.

وبينما هي سارحة في حياتها الغريبة الممزقة، دخل خالد إلى الغرفة، كعادته، جاء من عمله مجهدًا مرهقًا، طلب منها إعداد طعام الغداء، كما هو، لم يتغير فيه شيء ولن يتغير فيه شيء، لا يعرف كيف يداعبها أو يسعدها أو يهتم بها كما تريد، أعدت له الطعام وتركته له على المائدة، وعادت إلى غرفة النوم تخبره أنها أعدت الطعام، فقام متوجها لتناول غدائه، وانتبه أنها عادت إلى فراشها، فسألها إن كانت سبقته في تناول الغداء فهزت رأسها وأخبرته أنها ليست لديها الرغبة في الأكل الآن، فخرج في هدوء، لم يهتم ولم يسأل لماذا؟ كعادته لا يحب التفاصيل ولا تهمه، ربما هي شخصيًّا لا تهمه. وبقيت هي في فراشها تقلب في هاتفها، فجاءتها رسالة من حسين، رسالة مليئة بكلمات الحب الرقيقة، رغم قصرها إلا أنها أرجفت قلبها وهزت كيانها وجعلتها كالفراشة تتمنى لو تطير من مكانها إلى حيث يكون من يحبها ويجعلها تحب أيامها. وبينما هي في غمرة

سعادتها بالرسالة الحانية، سمعت صوت أقدام زوجها عائد إلى الغرفة، فتركت الهاتف جانبًا وجلست صامتة.

دخل خالد الغرفة وجلس إلى جوارها وسألها بلهجة جادة عن الحمل، لماذا لم يحدث حمل حتى الآن، فاجأها السؤال كأنها نسيت حلم الإنجاب، وسألت نفسها:

- هل أريد طفلا منه؟..

سرحت في الإجابة، فعاد يسأل مرة أخرى نفس السؤال، واقترح عليها أن تزور طبيبا للاطمئنان على عدم وجود أي مانع للحمل.

هزت رأسها في صمت ثم تركته وخرجت من الغرفة متعللة بأن سلمى تريدها في أمر مهم، وعليها أن تتواصل معها. لم يكن الأمر كذلك، بل تعللت بأي علة لتهرب منه.

إنه يريد أن يكون أبًا. هل سيتحدث مع هذا الطفل ويهتم به أم سيهمله كما يهملها؟. هل سأل نفسه يومًا إن كان يصلح أن يكون أبًا أم لا؟ كيف يرى نفسه كزوج؟ هل يظن أنه زوج ناجح كي يطمع في أن يكون أبًا؟

أسئلة كثيرة أرهقتها فعادت دون أن تدري إلى رسالة حسين لتهدأ، لتسعد، لترتاح من أفكارها، لتتنفس تلك النسمة الصيفية الرقيقة التي تدغدغ مشاعرها بلطف وإن كانت تتجاوز الصواب والعرف.

*****

حاول محمود أن يواجه الحقيقة وهي أن داليا بدأت حياة جديدة كما بدأ هو حياة جديدة، حاول أن يقهر هذا الشعور الذي يجذبه إلى الماضي دون إرادته، حاول أن يعيش بكل أفكاره ووجدانه مع زوجته، تلك الجميلة التي اختارها بكامل إرادته وهرول وراءها طويلًا إلى أن تزوجها، ولكنه وجد نورهان أخرى لا يعرفها، شخصية أخرى في البيت، امرأة تعتني بنفسها وجمالها وما يسعدها أكثر من أي شيء، على رأس أولوياتها هي ووالدتها ثم يأتي هو في ذيل قائمة اهتماماتها. لقد تفاجأ أنه أمام شخصية أخرى لم يلمحها في فترة الخطبة، ربما لقصر تلك الفترة، ربما لأن كل عقله وتفكيره واهتمامه كان منصبًّا على شيء واحد كيف يظفر بقلبها؟ كيف يقنعها بنفسه؟

انشغل بذلك عن كل شيء حتى عنها هي ذاتها. لم ينتبه أنها عنيدة، أو أنها مرتبطة بوالدتها ارتباطًا قد يكون مرضيًّا، لا بد أن تراها يوميًّا وإن لم تذهب لزيارتها تأتي أمها إليها، تطبق نصائحها بدقة فضلًا عن أنها تحكي لأمها أدق تفاصيل حياتهما.

بدأ ينبهها إلى أن حياتهما خاصة بهما فقط، هو لا يحكي شيئًا لأمه عن حياته معها، فلماذا تقص على أمها تفاصيل يومية لحياتهما الزوجية؟.. حاول أن ينزعها من أمها وأن ينزِع أمها من حياتهما لكن هي لا تساعده ولا تقتنع بما يقول ولا تهتم بما يرضيه.. يومها بين عملها وأمها وصديقاتها وتأتي إلى بيتها منهكة، إنها لا تعرف شيئًا عن المنزل، وإن أراد شيئًا يطلبه من الخادمة، أما نورهان فلا

وقت لديها لبيتها ولا لزوجها. إنها نموذج مختلف لم يتعامل معه من قبل، تختلف عن أمه، تختلف عن داليا، إنها فتاة مدللة تحب نفسها أكثر من أي شيء.

هذه هي حياته الجديدة مع الزوجة الجديدة كل ما فيها يخنقه ويدفعه إلى الماضي، إلى ذكرياته مع داليا. كم كانت جميلة، رقيقة، تهتم بكل تفاصيله رغم أنه لم يكن يهتم بها، وكان مشغولًا عنها بالركض خلف كل ما هو تافه. كانت متفرغة تمامًا له ولبيتها، رغم أنه كان يهملها ويمنح كل وقته لأخريات عابرات في أيامه، هكذا كانت وهكذا كان حتى تاهت منه بين ليالي الزمان.

*****

ما زالت زينة تفكر في أمها التي طلت على أيامها فجأة كما اختفت فجأة. ما زال بداخلها فضول قوي أن تراها، فسألت نفسها لماذا تتملكها تلك الرغبة الجامحة في رؤيتها؟ هل تشتاق إليها؟ هل تحبها؟ هل تحتاج إليها؟ ولماذا جاءت شهيرة الآن، لماذا تذكّرتهما الآن؟ هل صارت أمهما تحتاج إليهما وما جاء بها إلا الاحتياج والعجز؟

أسئلة كثيرة لا تدري ما إجابتها، إنها تريد أن تراها بدافع الفضول أكثر من الحب، لا بد أنها لا تحبها، فماذا فعلت لها أمها كيف تحبها أو تشتاق إليها؟ وماذا تحتاج منها بعد أن صارت شابة، واكتسبت خبرات كثيرة من تجاربها

القاسية مع الأيام؟ إنها على يقين أنها لا تحتاج أمها ولا تحبها، بل ربما أمها هي التي تحتاج إليها الآن لهذا عادت تبحث عنها وعن أخيها. ربما تكون هرمت وشاخت، وجاءت إليهما تبحث عن سند لها في أيام شيخوختها. أمر غريب إن كانت تنتظر منهما ذلك وهي لم تقدم لهما السند أيام طفولتهما، لقد ألقتهما أمام شقة عمهما دون أن تخاف عليهما سوء المصير ونار اليتم، دون أي شفقة أو رحمة. واليوم تنتظر منهما الرحمة والشفقة! ربما يكون سليم محقًّا في تعنته ضدها، ولكن بداخلها رغبة جارفة أن تراها، ربما تريد أن تلومها، أن تعنفها، أن تصرخ في وجهها وتقول لها إنها ليست أمًّا، إنها قاسية، إنها لا تستحق الحياة. ربما تريد أن تقول لها كلمات كثيرة بعدد أيام حرمانها ويتمها وشقائها في هذه الدنيا، رغم كل ما قدمت ماما بثينة من حب إلا أن زينة لم تنس أبدًا أن أمها تحيا وتنعم وتبخل عليها بأدنى مظاهر الحب والاهتمام، ألم يكن بإمكانها أن تتواصل معهما ولو هاتفيا طوال هذه السنوات؟ لقد نسيت أنها أنجبت في مصر، نسيت كل عمرها في مصر يوم أن سافرت مع زوجها، واليوم ما الذي جاء بها تبحث عن أيام الماضي المنسية. يا لها من امرأة غريبة!

وطرأت في رأسها فكرة فأمسكت هاتفها وتواصلت مع زياد الذي رد عليها فورا، وقال:

–ازيك يا زينة.. عاملة إيه؟

–الحمد لله، زياد أنا محتاجة مساعدتك، ممكن أعتمد عليك في حاجة

–حاجة واحدة بس، إنتي تطلبي وتؤمري، إنتي ما تعرفيش إنتي إيه بالنسبالي

فصمتت وارتبكت قليلا وكأنها تفاجأت بهذا الكلام، فقال مسرعًا:

–زينة أنا عايز أقابلك، ممكن نتكلم شوية.

– في المطعم؟

– أي مكان هادى، أنا هستأذن من سليم، أرجوكي.

– معرفش رأي سليم.

– موافق، سليم موافق، أنا متأكد، المهم إنتي توافقي.

واتفقا على موعد اللقاء في المساء.

وأنهت المكالمة وهي لا تدري ماذا يقصد زياد؟ وإذا بهاتفها يأخذها من أفكارها حول زياد إلى مراد مرة أخرى، إنه يلح عليها بالاتصال فردت عليه، كان صوته متعبًا مرهقًا، وألح عليها أن يقابلها وعاتبها على قسوتها عليه، وأنها لا تمنحه أي فرصة كي يقترب منها ومن قلبها. فاعتذرت له وأكدت أنها لم تتعاف بعد من الماضي. فارتبك صوته وأكد بصوت مختنق أنه لن يفقد الأمل أبدًا في حبها وسيبقى يحبها طول العمر.

وجاء موعدها مع زياد، استقبلها بحفاوة كبيرة وبنظرة فيها الكثير من الاهتمام، ربما لم تنتبه لتلك النظرة من قبل.. بدأت حديثها قائلة:

-يا ترى مين اللي هيبدأ؟

-أنا عارف عايزاني أساعدك في إيه.

-معقول؟ طيب قول.

-أقنِع سليم يقابل والدته

-مش معقول عرفت إزاي؟

-اللي بيحب حد بيحس بيه وبيعرف إيه اللي شاغله وإيه اللي عايزه حتى قبل ما يقول.

احمرت وجنتاها خجلًا، وارتبكت لحظات ثم نظرت في عينيه كأنها تراه لأول مرة ثم قالت:

-من إمتى يا زياد؟

-من زمان أوي بس إنتي استعجلتي وحبيتي أو جايز أنا اللي اترددت واتأخرت، مش مهم المهم إني بحبك وأتمنى اتجوزك.

-أنا مش عارفة أقولك إيه.

-ما تقوليش حاجة دلوقتي، لو صدقتي إحساسي هتحبيني، ولو ما حبيتينيش أنا أتمنالك كل الخير اللي في الدنيا، نرجع لموضوع ماما، سليم مضغوط أوي، مشكلة جوازه من سلمى وموقف عمه وكمان ظهور والدتكم فجأة حواليه ألف

علامة استفهام، لكن هحاول أقنعه؛ لأن أنا كمان رأيي إن الأفضل يقابلها، سيبي الموضوع عليا.

تركته وهي في حيرة أكبر، لم تشعر بحبه من قبل ولم تفكر فيه حبيبًا من قبل، هل يمكن أن يكون الحب أمامنا وحولنا ولا نراه. ثم تذكرت مراد وإلحاحه المستمر عليها وحبه الذي يعلنه باستمرار، أيهما يحبها أكثر؟ أيهما قادر على إسعادها وتعويض ما مضى؟ بل السؤال الأهم هي تميل بقلبها ومشاعرها إلى من منهما أكثر أم أنها كما قالت لمراد ليست مستعدة للحب وحكاياته الآن. إنها مشتتة مضطربة لا تعرف ماذا تريد؟ ومشاعرها كأنها مكتوبة بلغة قديمة مجهولة لا تفهمها ولا تعرف كيف تفك شفرتها؟

حيرة جديدة تضاف إلى حيرتها وكأنها قدر يحاصرها من كل اتجاه.

*****

الفصل السابع عشر

ونفر من الحقيقة، ولكن مهما فررنا سننتهي إلى المواجهة ومهما هربنا سنعود إلى حيث تنتظرنا الحقائق المستترة خلف جدران الأيام. لم يعد أمام عبد العزيز إلا أن يقابل شهيرة، ويواجه الماضي بكل قسوته وأيامه السوداء وذنوبه الكثيرة. اتفق معها على اللقاء في مكان عام.

جاء موعد لقاء عبد العزيز وشهيرة، هي من اختارت المكان والتوقيت، وهو ذهب إليها يريد أن يسقط من على كاهله عبء هذه المقابلة المرهقة، جلس منتظرها وهو قلق حائر مترقب ما ستبوح به شهيرة. جلس يتلفت حوله يبحث عنها بعينيه إلى أن انتبه إلى صوت خافت يقوله له:

-إزيك يا عبد العزيز

نظر أمامه فرأي امرأة منتقبة، تقف أمامه كخيمة سوداء حالكة لا يظهر منها شيء، حتى عينيها عليها غطاء شفاف، فهز رأسه في استغراب وقال:

-مين حضرتك؟

فجذبت المقعد وجلست أمامه وقالت:

-مش عارف صوتي؟ لو نسيت فعلا تبقى مشكلة ولو ذاكرتك ضعفت تبقى مصيبة.

فقال بانفعال:

-إنتي مين؟

-شهيرة اللي إنت قاعد مستنيها، إنت جالك زهايمر ولا إيه؟

فقال باندهاش:

-شهيرة إزاي يعني، من إمتي شهيرة بتلبس كده؟ وبعدين الصوت مختلف متهيألي.

- بلبس كده من سنين، من ساعة ما اتجوزت، إنما صوتي زي ما هو، إنت اللي مش مركز أبدًا.

-وأنا أعرف منين إنك شهيرة.

فأخرجت بطاقة شخصية وجواز سفر وألقتهما أمامه على الطاولة وقالت:

-لسه مش مصدق إني شهيرة.

فصمت عبد العزيز قليلا ثم قال:

-نعم يا شهيرة، إيه المطلوب؟

- ٥ مليون يا عبد العزيز، وإلا هقول لسليم وأعرّفه مين عمه العظيم اللي بيعتبره أبوه، وكمان مراتك اللي على نياتها لازم تعرف مين جوزها المخلص اللي مفيش زيه.

– عارف إنك شيطان بس ما تخيلتش إنك تكوني بالشر ده.

– وإنت ملاك؟ إحنا زي بعض يا عبد العزيز.

–أنا تُبت وربيت ولادك أحسن تربية، ولادك اللي إنتي جاية تكسريهم وتدمريهم، اتقي الله.

– أنا جوزي طلقني يا عبد العزيز ومبقاش عندي حاجة خالص، وابني من جوزي التاني قاسي جدًّا زي أبوه، من يوم طلاقي ابني ما سألش عني، وزينة وسليم أكيد بيكرهوني يبقى الأمان بالنسبالي في الفلوس، اديني الفلوس وأنا هسافر تاني وأبعد عنكم، حتى ولادي هاشوفهم مرة واحدة بس.

–وأنا أجيبلك المبلغ ده منين؟

–اتصرف وأنا عارفة إنك تقدر. أسبوعين مهلة كويسة، سلام.

قامت من أمامه كأنها قاضٍ حكم عليه بالموت وأنهى جلسة المحاكمة، وأي عدالة تلك حينما يصدر المجرم الحكم على المظلوم، ثم سأل نفسه هل أنا مظلوم؟

ابتسم سخرية من نفسه واعترف بأنه مجرم مثلها، وتذكر كلمتها أنهما شبيهان، حقا هما شبيهان والآن اختلف الشياطين، بل إن أحدهما يريد أن يحاسب الآخر، فماذا يفعل؟ هل يقبل حكمها؟ أم.......؟.

سرح بخياله قليلًا ثم قال لنفسه:

- ماذا لو منحتها ما طلبت ثم اختفت وعادت بطلب جديد وتهديد جديد؟

وتساءل هل من حقي أن أمنحها كل ما أملك؟ ماذا لو علمت زوجتي وأولادي؟ ولا بد أنهم سيعلمون حينما أبيع ما أملك؟

ظل مكانه وكل ما حوله يدور ورأسه يكاد ينفجر من أفكاره المرتكبة، وأنفاسه تضيق بشدة، وشعر بثقل في قدميه، شعر للحظات أنه قد يموت الآن من ضيق أنفاسه، فاستجمع كل قوته لينهض ويعود إلى بيته حتى لا يموت شريدًا.

*****

قررت داليا وعلي تحديد موعد زفافهما، لم يعد أي منهما في حاجة للتأكد من مشاعره، وبدأت داليا تستعد لليلة العمر، إن عمرها بدأ منذ أن عرفت علي، وما قبله لم يكن إلا تخبط وتوهان بين الأيام، الحب الحقيقي هو أن ترتاح مع من تحب، أن يسعى حبيبك جاهدا لأن يسعدك، لا أن يلهث خلف سعادته وحده، وإن كانت سعادته في عذابك فهو لا يحبك ولا يستحق حبك.

إنها ترتاح في كل لحظة تقضيها مع علي، حتى ولو كانت مجرد محادثة هاتفية حول أمور عامة، وتقبض على السعادة وهو معها فلماذا تؤجل سعادتها؟

أخذت إجازة من عملها لتتفرغ لاستكمال ترتيبات الزواج، إن اليوم قصير جدًّا وتحتاج فوق ساعات اليوم ساعات أخرى لتنجز كل ما تريد.

وفي فترة الظهيرة التي كانت تقضيها في المنزل جاءها اتصال هاتفي من محمود، لم ترد عليه، ولكنه ألح وكرر الاتصال أكثر من عشر مرات، فردت عليه:

-أهلا أ. محمود.

-أ. محمود؟ أنا محمود يا داليا، أنا الحب الأول، أنا كل حاجة في حياتك.

- كنت، إنت كنت حياتي وإنت اللي خرجت منها برضاك، سيبني أعيش وأدوّر على السعادة اللي ما عشتهاش معاك وأنا أتمنالك الخير.

أنهت المكالمة ولم تسمح له أن يكثر من حديث لا طائل منه. لقد نسيت أيامها معه بكل عذابها وجراحها، مستبشرة خيرًا برجل أحبها في وقت ضعفها وفي أيام عذابها، أحبها بكل مافيها فأحبته بكل صدق وما أرادت من هذه الدنيا إلا حياة هادئة مستقرة وزوج يسعدها بحبه وأخلاقه وإخلاصه.

هرول محمود إلى بيت العائلة بوجه شاحب وقلب حزين، وجلس مع سلمى على انفراد وحكى لها مشكلته، وكل رجائه أن تتواصل مع داليا وتخبرها بأنه يحبها ونادم على كل دقيقة أحزنها فيها، على كل ليلة أبكاها فيها، ومستعد أن

يطلق نورهان الآن لتعود هي زوجته ونور حياته، كانت سلمى تستمع إليه في حزن وتقرأ في صمت حزن عينيه وتعاسته الطاغية وندمه الشديد، كانت تصدق كل ما يقول وتثق أنه تغير وأصبح محمود الذي كانت تتمناه داليا، ولكن هل كل هذا كاف لتعود له داليا؟ كانت تنظر له في أسى لأنه أفاق متأخرًا جدًّا، وهكذا الإنسان لا يدرك قيمة ما يملك إلا إذا افتقده، استهان بحبها واستباح دموعها وهان عليه ألمها واليوم يدفع ثمن كل هذا، إنها ترى في عينيه دموعًا يتمزق كي يخفيها، وألما أكبر من احتماله فتركه يظهر ويعلن عن نفسه لعله يرتاح قليلا.

وعدته أن تحاول، ولكن لا تدري ماذا ستسفر عنه تلك المحاولة، هكذا قالت وهي تدرك جيدًا أن محاولتها فاشلة يائسة، هو لم يخسر داليا يوم ظهور صديقه علي في حياتها، بل منذ أن استطاعت داليا أن تتخذ قرار الانفصال وأصرت عليه. هذا هو اليوم الذي خسرها فيه للأبد، ولكنه بمنتهى الغرور كان يتخيل أنها لا تستطيع فراقه، حتى بعد أن تم الطلاق كان يظن أنها ستبقى في انتظاره، وستحيا على ذكرى هواه في أيامه الأولى، الغرور والأنانية أفقدته حب عمره، فما تبقى له إلا الندم؟

غادر محمود إلى شقة حبه الأول وكله أمل أن تصلح سلمى بينه وبين داليا، جلس ينتظر ويحضن صورها، ويراقب هاتفه، لم يرد على اتصالات زوجته، فهو يعلم جيدا ماذا تريد؟ إنها ستبلغه أنها ستقضي اليوم مع صديقتها أو ربما مع

أمها أو ربما مع أقاربها، أو ربما ستجوب ساعات بحثًا عن عطر نادر أو شيء قد يبدو تافها في عينه ولكنه مهم جدًّا لها، فهي دائمًا عندها ما يشغلها إلا هو، هو لا يشغل بالها إلا دقائق معدودة، ربما الدقائق التي تطلب منه نقود هي تلك أهم الدقائق التي تلبس فيها ثوب الرقة المصطنعة والحنان المقزز لتحصل على ما تريد ثم تختفي لتفتك بما حصلت عليه في أشياء تافهة لا تنتهي.

أهمل الرد عليها، إن كل تركيزه منصب على مكالمة من أخته تمنحه لحظة أمل في ظلام يأسه، ولكن رد سلمى في رسالة هاتفية جاء مخيبًا لكل آماله وقاتلًا لكل أحلامه، أخبرته أن داليا سعيدة في حياتها الجديدة وتتمنى له التوفيق. فاعترف لنفسه بالحقيقة الصادمة التي لا يريد أن يصدقها، لقد نجح صديقه في أن يمنحها ما كانت تبحث عنه معه وانتهى أمره من قلبها للأبد.

*****

أيتها القاسية ألا ترحمين؟

أيتها الجميلة ألا تعشقين؟

أيتها الرقيقة ألا تصدقين؟

أهديكِ عشقا وتهديني الأنين!!!

أيتها القاسية ألا ترحمين؟

هكذا كتب مراد في أوراقه والألم يعتصره، يؤلمه تجاهلها وإهمالها له، لقد أعلن لها حبه بكل ذرة في كيانه، فلم يهتز لها قلب ولم يرتجف لها جفن عين، هل تعاقبه إنه لم يصرح بحبه قديما وتركها تغرق في حب مرهق مع كمال، هل تحمله كل ذنوب وخطايا كمال؟ إن كان أذنب فقد اعترف بذنبه، وأعلن حبه، لقد تخبط هو كما تخبطت هي، لم تعانِ وحدها، فقد ارتبط بامرأة لا يشعر نحوها بأي مشاعر وهي من تتحمل ذنبه وذنب علا؛ لأنها دائما هي الحائل بينهما. ماذا يفعل كي تغفر ذنبه وتصدق حبه؟

فعاد يلح عليها للقاء، ظل يلح يومًا كاملًا إلى أن أجابت طلبه وقابلته، وكررت ما تقوله دائما إنها مذبذبة المشاعر والأفكار ولكنها لم تطالبه بالانتظار لأنها تعلم أن هذا يؤلمه، وهو يستمع في صمت فقالت:

–مراد أنا مش قادرة أوعدك بشيء، ابدأ حياتك واتجوز، أنا اتجوزت وعشت وحبيت حتى ولو السعادة كانت قصيرة، إنت كمان من حقك تعيش وتتجوز، جايز تنساني، أكيد هتنساني.

– لو الجواز ينسيني كان نساني لأني فعلًا متجوز.

قالها في منتهي الأسي، في لحظة صادقة أراد أن يعلن حبه ومعاناته، ويعترف بكامل عذابه، بينما احتُبست أنفاس زينة من المفاجأة وسألت في استغراب:

–اتجوزت؟ امتى؟ ولما إنت متجوز بتجري ورايا ليه وعايز مني إيه؟

–ليه بتحاسبيني على تجربة فاشلة، أنا عمري ما حاسبتك على جوازك من كمال.

-إنت لسه متجوز، ليه بتخون مراتك وتفكر في غيرها، إيه ذنبها.

-هي ملهاش ذنب ولا أنا ليا ذنب، أنا مش بإيدي أحبها وما أحبكيش.

-اسمع يا مراد، رغم إني كنت بصدق كلامك لكن دايما كنت حاسة إن فيه حاجز بيني وبينك، شيء مجهول بيخليني أتراجع كل ما أفكر فيك، دلوقتي عرفت ليه ربنا كان بيبعدني عنك، حافظ على مراتك، خاف عليها وراعي مشاعرها؛ لأنها أكيد حاسة إنك مشغول عنها بغيرها، اللي تتحمل تعيش مع راجل وهي حاسة إنه بيفكر في غيرها تبقى بتحبه أكثر ما بتحب نفسها. فوق، ما تضحيش بإنسانة بتحبك عشان إنسانه عمرها ما حبتك ولا هتحبك.

قالت كلماتها بصراحة وحزم ووضوح وتركته بلا عودة.

أدرك مراد أنها لم تكن مذبذبة المشاعر كما كانت تقول بل كانت لا تراه ولا تحس به، ربما كانت فقط تمهل قلبها قليلا من الوقت لعله يدق بحبه، وعندما علمت أنه متزوج حسمت أمرها في ثوان؛ لأن قلبها لم يدق له يوما، لو كانت أحبته ثانية واحدة للمعت في عينيها دموع الوداع، أو تنهدت واحتبس صوتها من ألم البعاد، إنها لم تحبه ولن تحبه. ويبقى قلبه ضائعًا في رحلة الحب العبثية والهيام بامرأة أبعد ما تكون عنه، إنها ستظل نجمه في سماء لن يمسسها يوما، فقط رآها وراق له ضياؤها وعشق نورها الرقيق ولكن بلا أمل.

*****

الفصل الثامن عشر

أجراس الخطر تدق في أذنيه والقلق يتصاعد مع دقات قلبه وأفكاره تفتك برأسه، ماذا يفعل؟ الأيام تمضي وستنتهي المهلة التي أمهلتها له شهيرة، ماذا يفعل؟ هل يمنحها الأموال ليشتري صمتها؟

بداخله صوت قوي يرفض أن يمنحها جنيهًا واحدًا، هي ليست أمواله وحده، إنها حق أولاده، ولكنها لن تصمت، لن ترحل، لقد أطلت على حياته بكل شرها وجشعها ولن يظل تهديدها كلامًا فقط، بل ستنفذ ما قالت، وصوت مستسلم في أعماقه يريد أن يخلع عنه كل عذاباته ويردد ماذا لو باح بالسر لسليم، الاعتراف هو الحل الأمثل، حينها لن تصبح لتهديدها قيمة وترحل خائبة الأمل، حقيرة في أعين أبنائها، وتعالى صوت آخر بداخله ينبهه بأن سليم سيحتقره، سيكرهه، سيسقط من عينه للأبد. نعم سيسقط من عين سليم وقد يبلِّغ سليم سلمى بكل شيء، سينكشف ما أخفاه عمرًا طويلًا، لم يعد أمامه حل آخر. لكن ليس أمامه إلا أن يقول الحقيقة ويرحل عنهم جميعا ويموت وحيدًا بلا سند بلا عائلة، ولكن يترك لهم أموالًا يستندون إليها إن دارت عليهم الأيام وطحنتهم رحاها.

وخطرت في باله فكرة قاتلة، لماذا لا يتخلص منها؟ موتها رحمة لهم جميعا ويُبقى على سره في قبر الماضي، فليقتلها ثم يقتل نفسه ويموت سرهما معهما، ثم تساءل

ولماذا يقتلها بيده؟ لماذا لا يستأجر قاتلًا محترفًا يخلصه منها، ثم استفاقت فطرته النقية، وصاح صوت نفسه اللوامة يعنفه بقوة (أما يكفيك ما افترقت من ذنوب، أتريد أن تنهي حياتك بتدبير جريمة قتل، أتريد أن تقتل نفسك بعدما تقتلها؟ وأين ستذهب بعد كل هذا؟ ستهرب من عذاب الدنيا إلى عذاب أبدي. ولن تترك لمحمود وسلمى سوى عار يلاحقهما طوال العمر، فيلفظهما المجتمع ويعاقبهما بذنبك).

فوضع كفيه على رأسه واعتدل في جلسته وقال لنفسه وهو يُحمِّلها نتائج هذا الاختيار:

-إذن مواجهة سليم بالحقيقة هي الحل الوحيد.

فأمسك هاتفه ونظر إلى الساعة -كانت تقريبا السادسة مساء- فضغط على أعصابه واستجاب لصوت في أعماقه ألح عليه بالاعتراف وطلب سليم هاتفيا، كان سليم في البيت فأخبره عمه أنه سيزوره الآن، وأنه يريد أن يحادثه على انفراد دون أن تحضر زينة هذه الجلسة، أنهى عبد العزيز المحادثة وقام يستعد لهذه المواجهة الخطيرة.

*****

جلس سليم ينتظر عمه وفي عقله ألف سؤال، هل سيطلب منه أن يبتعد عن سلمى؟ أم سيرحمه ويوافق على زواجهما، صوته كان حزينًا منكسرًا، متعبًا، إنه

مختلف عن كل مرة تحدث إليه فيها، انتابته حالة متعبة من القلق والترقب والخوف، فظل يجوب بين الحجرات ويسير في خطوات مضطربة، دق جرس الباب فهرول مسرعًا، وفتح الباب وعلى شفتيه ابتسامة ترحيب كبيرة، فوجد على باب الشقة امرأة منتقبة كخيمة سوداء لا يظهر منها شيء من رأسها إلى قدميها، حتى عينيها كانتا مغطاتين بغطاء شفاف، لا يدري كيف ترى طريقها خلاله، أصابه بعض من الدهشة، وظن أنها تريد أي شقة أخرى في الطوابق العليا أو السفلى، أو أنها أخطأت العنوان فقال لها بهدوء:

–حضرتك عايزة مين يا فندم؟

فقالت بصوت متقطع:

–الله أكبر، ما شاء الله، سليم يا حبيبي، ربنا يحميك، أنا ماما.

فلم يندهش طويلًا وقال بانفعال:

–العنوان غلط يا فندم، يا ريت متجيش هنا تاني.

وهمَّ بأن يقفل الباب فزجَّته بكل ما تملك من قوة ودخلت وقالت بحزم:

–عيب يا سليم، ارحمني يا ابني، أنا غلطت إني سيبتكم وكل الناس بتغلط، ربنا بيسامح وإنت مش عايز تسامحني.

فصاح بكل صوته:

-اخرجي برة.

جاءت زينة من حجرتها مهرولة، وما أن رأتها شهيرة حتى قالت:

-زينة حبيبتي، زي القمر، طول عمرك زي القمر.

فنظرت زينة بتمعن لتلك المرأة المنتقبة وقالت بتردد:

-هو إنتي؟

وصمتت ودموعها انهمرت فأسرعت إليها المنتقبة تحتضنها وهي مختبئة خلف نقابها، بينما سليم ما زال يصرخ:

-اخرجي برة، إنتي مش أُمِّنا.

فقالت زينة برجاء بالغ:

-استنى يا سليم عشان خاطري.

ثم التفتت إلى السيدة وقالت لها:

-أنا عايزة أشوفك، ليه مش عايزة ترفعي النقاب

فجلست السيدة وقالت في أسى بالغ:

-مقدرش يا زينة، كده أحسن يا حبيبتي.

فقال سليم بسخرية بالغة:

-والنقاب دا تدين مثلا؟، هو الدين قالك ترمي عيالك سنين، إنتي مش أم، اخرجي بره. ادخلي يا زينة أوضتك لو سمحتي.

فقالت السيدة باكية:

-فعلا أنا غلطت في حقكم بس ربنا عاقبني، أنا اتحرقت واتشوهت، فعلا أنا لابسة النقاب عشان أداري بيه وشي مش تدين، ارتاحت يا سليم. ارحمني يا ابني.

-إنتي جاية ليه؟ مش معقول وحشناكي فجأة.

- أنا اتطلقت بعد الحريق وجوزي طردني وابني اتخلى عني، ورجعت مصر، وكان نفسي أعرف عنكم أي حاجة والحمد لله عرفت إنكم بخير، اسمع يا سليم، عمك دا أسوأ إنسان في الدنيا ابعد عنه.

فقال سليم بانفعال:

اخرجي برة ومش هسمحلك تتكلمي عن عمي نص كلمة، أنا أصلًا مش مصدق ولا كلمة من اللي بتقوليها وجايز ما تكونيش إنتي شهيرة أصلًا.

فقالت بصوت باكٍ:

-هتصدق دلوقتي.

ورفعت الأم النقاب عن وجهها، فكشفت عن وجه مشوه، فأدار سليم وجهه بعيدًا، وأسندت زينة وجهها إلى الجدار الذي خلفها وبكت، فأخفت شهيرة وجهها مرة أخرى وقالت بحرقة وألم:

–صدقتوني؟

فأعاد سليم بصره إليها وقال في لهجة حادة:

–إنتي جاية ليه، حرمتينا منك زمان، جاية دلوقتي وافتكرتي إننا عيالك بعد ما جوزك رماكي، أنا وزينة اتعودنا نعيش من غيرك ومش هنقدر نتأقلم على وجودك معانا. شوفتينا؟ اتفضلي مع السلامة.

–أنا جاية أشوفكم ومش عايزة منكم حاجة أبدًا يا سليم. ربنا يوفقكم

واستعدت للمغادرة فصاحت زينة:

–إنتي عايشة فين؟ وعايشة إزاي؟

فقالت:

–مش مهم، مع السلامة.

فقال سليم بلهجته الصارمة:

–أنا ممكن ابعتلك اللي يكفيكي شهريا، سيبيلي عنوانك.

فضحكت وقالت:

–أنا مليونيرة يا سليم، أنا اللي أديك يا ولد لو تقبل مني.

ودق باب الشقة فهرول سليم وفتح الباب مرحبًا بضيفه، إنه عمه، الذي دخل الشقة بخطى ثقيلة متباطئة، ووجه شاحب، تفاجأ عبد العزيز بوجود شهيرة، فهجم عليها بجنون وحاول خنقها دون وعي إلا أن سليم أبعده عنها، بينما هي متماسكة قوية وقالت بثبات وهي تنظر لسليم:

–اشهد يا سليم إن لو حصلي حاجة عمك السبب.

ثم نظرت إلى عبد العزيز الذي جلس شاردًا على أول مقعد صادفه يحاول أن يتمالك أعصابه وينتصر على شيطان في أعماقه يدفعه إلى التخلص منها، نظرت إليه من خلف غطاء عينيها الشفاف وقالت بضحكة ساخرة عالية الصوت:

–مش أنا مليونيرة يا عبد العزيز، قول لسليم علشان عايز يديني فلوس.

ثم غادرت وسط نظرات استغراب تحاصرها من الجميع. وما زال عبد العزيز صامتًا لا ينطق، لا تسمع منه إلا صوت أنفاسه المتسارعة، وبين الحين والآخر يستغفر الله، فقالت زينة:

–أنا هعملك القهوة اللي بتحبها يا عمي.

بينما عبد العزيز نظر إلى سليم في ضعف بعينين زائغتين حزينتين، فسأل سليم عمه باهتمام عما يضايقه، فسأله عمه عما دار بينه وبين شهيرة، فحكى له سليم عما دار قبل قدومه، وأكد له أنه لا يطيق رؤيتها ولا يثق في حديثها ولا

يعتبرها أمه. ربما عرض عليها الأموال شفقة أو اهتمامًا بسمعته هو شخصيًّا حتى لا يقال عنه إنه لا ينفق على أمه، ربما يلومه الناس حتى ولو كانت أمه لم ترحمه وهو صغير ولم تعُله وهو يتيم.

استمع العم إلى حديث ابن أخيه في صمت وحزن، ودار في رأسه خاطر أن يؤجل الاعتراف طالما شهيرة لم تقل شيئا، ولكنه ما عاد يحتمل هذا الحجر الثقيل الذي يسير به على ظهره وكتفيه وهذا الهم الثقيل الكامن في قلبه، لا بد أن يعترف حتى يرتاح من عذابه ومن تهديد شهيرة، سرح في أفكاره قليلًا بينما سليم يراقبه في صمت وينتظر حديثه، جاءت زينة بالقهوة وقدمتها لعمها، فأخذها عبد العزيز شاكرًا ثم نظر إلى سليم نفس النظرة الحزينة وقال:

-أنا عايز أكلمك في أوضتك.

فاصطحب سليم عمه إلى غرفته حاملًا القهوة وأغلق باب الغرفة بالمفتاح.

جلس العم على مقعد أمام مكتب خشبي وجلس أمامه سليم، فقال العم:

-اللحظة دي من أصعب لحظات حياتي وما كنتش أحب إني أعيش لليوم ده، إنما ده عقاب ربنا ليا في الدنيا، أنا هقولك على ذنبي الكبير يا سليم، هقولك وأحكيلك عن عبد العزيز اللي إنت متعرفوش، إنما اوعدني اللي هيدور بينا ما حدش تاني يعرفه أبدًا، العنِّي في نفسك، اكرهني من جواك، ادعي عليا، إنما

بلاش حد تاني يعرف خطايا فاتت وكنت فاكر إنها اتدفنت، لكن شهيرة رجعت تصحي القديم وتهددني إنها تقولك، فأنا هقول واحكي المستخبي.

*****

مضى وقت طويل على اجتماع العم بسليم، بينما زينة في غرفتها لا تدري ماذا يحدث؟

تفكر تارة في عمها وحزنه العميق وأخرى في أمها ووجهها المشوه وظهورها الغريب المريب بعد كل هذه السنوات وأحيانًا تقذفها أفكارها إلى مراد وكيف كان يخدعها وهو متزوج، وهي التي لم تشك لحظة واحدة أنه متزوج، ثم يمر في خيالها طيف زياد بكل بساطته ورقته وخجله وابتسامته الحانية وعينيه التي تعدها بالسعادة والحب.

انتبهت زينة إلى صوت باب الشقة يفتح فخرجت من غرفتها وأدركت أن عمها انصرف، فدخلت إلى سليم في غرفته ووجدته يبكي كطفل صغير فقد أبيه وأمه، فانتفضت قلقًا وهرولت مسرعة وجلست إلى جواره وقالت وهي تبكي من بكائه:

–في إيه؟ سليم حصل إيه؟

فوقف وأعطاها ظهره، وهو يحاول أن يخفي دموعه، فتحركت لترى وجهه وقالت:

-مالك؟ في إيه؟

فاحتضنها بقوة وقال:

-مخنوق شوية.

ثم ابتعد عنها وبدأ يستعد للخروج ويقلب في ملابسه ويختار من بينها في عصبية وتوتر، فأعادت أسئلتها من جديد، فقال بصوت متقطع:

-أنا مش قادر أتكلم دلوقتي، هنزل شوية ولو اتأخرت ما تقلقيش عليا.

فقالت بحزن:

-إنت كويس؟ سليم أنا ما ليش غيرك في الدنيا.

فعاد إليها واحتضنها مرة أخرى بحنان بالغ وقال:

-أنا تمام، ومحبش أشوف دموعك دي أبدًا.

*****

انتبهت سلمى إلى حالة والدها حينما عاد، كان شاحب الوجه، يبدو مرهقًا بشدة، وأسرعت تطمئن عليه فأخبرها أنه بخير ولا داعي للقلق، وعرضت بثينة على زوجها أن يزور الطبيب ربما يكون هناك ارتفاع في ضغط الدم الذي يداهمه أحيانًا، فأكد لها أنه بخير ولا يريد إلا الراحة والنوم. نظرت له بثينة في قلق وتركته ينام ويرتاح وهي مرتابة وقلقة على صحته.

دخلت سلمى غرفتها تفكر ماذا حدث وتفاجأت باتصال من زينة روت لها ما حدث اليوم من مفاجآت وكيف كانت مقابلتها مع أمها وحكت لها عن جلسة والدها وسليم التي انتهت ببكاء سليم وحالة غريبة كان عليها لم تره فيها من قبل، وسلمى تستمع ولا تتحدث أو ترد إلا بكلمات بسيطة لا تفيد، فقد كان كل عقلها مشغولًا بما دار بين سليم ووالدها وأتعب كليهما. وانتهت المكالمة وأصابها نفس الحزن والقلق، وبكت بحرقة وهي لا تدري مما تبكي هل خوفًا على والدها أم حزنًا على حزن سليم أم تبكي على نفسها وعلى مصير حبها المعلق بهذا السر؟. لا يهم لماذا تبكي ولكن قلبها منقبض وروحها حزينة وإحساسها ينبئها بزلزال أصاب حبها وحبه، ولا تدري هل تدمر كل شيء أم هناك لها في قلبه صرح من العشق لا يهتز مهما حدث؟

فأمسكت هاتفها وأرادت أن تسمع صوته، من حقها أن تطمئن عليه وعلى سعادتها التي بين يديه، اتصلت به مرات متتالية في إلحاح ولكنه لم يرد عليها، وما زادها تجاهله إلا إصرارًا على الحديث معه، فعاودت المحاولة إلى أن استجاب، فسألت بقلق:

–سليم مالك، حصل إيه بينك وبين بابا؟

لم يرد، فكررت السؤال وما زال سليم صامتا، فقالت بصوت خائف باكٍ:

-سليم أرجوك رد عليا، أنا محتاجة أسمع صوتك، أنا محتاجالك.

فرد بصوت خافت:

-أنا تايه يا سلمى ومعنديش حاجة أقولها، ولا أقدر أوضحلك حاجة

-سليم، بابا قالي إن في سر رهيب ممكن يخليك تكرهني عشان كده كان رافض جوازنا.

إيه السر ده؟ ؟

-مش مهم تعرفيه ومش من حقي أقول حاجة.

-بس أنا من حقي أعرف إذا كنت لسه بتحبني ولا لا.

فصمت تماما، فانهارت في البكاء وقالت بصوت مهزوم:

-يعني خلاص، كل حاجة حلوة بينا راحت، بس إنت وعدتني إنك ما تحاسبنيش على ذنب مش ذنبي، وعدتني إنك متسبنيش يا سليم.

-سلمى فيه يوم طلبتي مني إني أديكي فرصة تهدي وأنا النهارده بطلب منك نفس الفرصة، أنا في موقف صعب أوي، سامحيني.

أنهى المكالمة، وهي في صدمة كبيرة.

أهذا هو سليم الذي يهتز من حزنها وينجرح بدموعها ولا يطيق يوما لا يسمع فيه صوتها؟ أين حبه الكبير وعشقه العظيم؟

إنه ليس سليم، إنها كانت تتحدث مع إنسان آخر لا تعرفه ولا تفهمه، شخص لا يعيرها اهتمامًا، ربما شخص لا يطيق سماع صوتها.

كيف انقلبت شخصيته في ساعة واحدة وبجلسة واحدة، أي سر هذا الذي يمحو عشق سنوات عمر بأكمله؟ وأي ذنب هذا الذي لا يمحوه زمن؟ وأي نار تلك التي لا يخمدها حب ولا عطاء ولا سنوات؟، إن كان والدها أخطأ في حق سليم أو والده أو شهيرة فقد فعل الكثير ليكفر عن خطيئته؟ فعل ما لا يستطيع سليم أن ينكره أبدا، لقد كان له أبًا بمعنى الكلمة. كيف تعلّم سليم القسوة وهو أحن قلب في الوجود؟

أمطرت دموعها بكثافة من سحاب حزن غطى سماءها فأصبحت أيامها ظلامًا دامسًا مرعبًا، وكل ذرة في كيانها تبحث عن سليم الحنون الطيب الرقيق العاشق الذي ضاع منها فجأة لتعذب باقي عمرها.

إن كان هو يستطيع أن ينساها بهذه السهولة فهي لن تستطيع أن تنساه، إن نسيت أيامه ستذكرها أيامها وإن نسيت في نهارها سيُذكِرها ليلها، وإن أنكر

قلبها حبه ستذكرها روحها وإن حاولت أن تمحو من قلبها اسمه ستذكرها حروف اسمها بسليم.

إن كانت الظروف والأقدار أضاعت سليم من مستقبلها وحاضرها، يبقى سليم الحبيب في ماضيها ملكا لها، لن يستطيع أحد أن يسلبه منها. فالماضي لا يموت.

*****

عاود خالد إلحاحه على نجلاء من أجل زيارة طبيب، فانفجرت غاضبة منه، وأعلنت أنها لا تريد أطفالًا الآن لأنها ليست سعيدة. فنظر إليها باندهاش وسأل باستياء عما ينقصها لتسعد وما يجب عليه فعله كي ترضى وهو الذي لا يبخل عليها بأي شيء وذكّرها بأنه لا يقبل أن تنفق من دخلها الخاص على البيت، وألزمها بأن تحتفظ به لنفسها، ذكّرها باجتهاده ليلًا ونهارًا في عمله كي تحيا معه في أفضل مستوى، ذكّرها بصوت معاتب وعيون يملؤها اللوم والاستياء من إنكارها لكل ما يقدم من أجلها، فقالت بصوت منكسر:

-يا ريتك تقبل أشارك معاك في البيت وتديني السعادة اللي بحلم بيها.

-فهميني إيه السعادة؟

-السعادة في المشاعر الحلوة والاهتمام بيا. صحيح إن الفلوس بتشتري حاجات كتير بس الحرمان العاطفي ده ما يتعوضش بفلوس.

-أنا فاكر إني لما أجيب الحاجة قبل ما تطلبيها دا يوصلك إنه حب، إنتي عايزاني زي البغبغان أقول بحبك بحبك، ما أنا بقولها بشكل تاني، ولو ما بحبكيش اتجوزتك ليه.

-حبني زي ما أنا بتمنى يا خالد أرجوك.

صمت قليلا ثم قال:

-حاضر يا نجلاء، حاضر، بس توعديني نروح سوا للدكتور، أنا عايز طفل منك عشان بحبك.

*****

الفصل التاسع عشر

سيطرت على عبد العزيز عزلته واستسلم لحزنه ووحدته وراودته فكرة أن يكتب، يكتب عن هذا الماضي التي أتعبه وأذله لعل هذا يخفف من ثقل أحزانه. فأمسك بقلمه وأوراقه وكتب:

الماضي لا يموت مهما تمر الأيام، نكبر ونهرم ويغادر الصبا والشباب ونستسلم لكهولتنا وشيخوختنا وننسى كثيرًا من أحداث الماضي، ربما حتى تنطوي ذكريات حلوة وتسقط سهوًا من ذاكرتنا الخربة الضعيفة، ولكن تبقى ذنوبنا معلقة في الأعناق ومحفورة في الذاكرة. تزوجت بثينة عن حب واقتناع، كانت وما زالت الجميلة الحنونة والمخلصة الصادقة، الطيبة العطوفة والمعطاءة، هل أكثرت في وصف خصالها الحميدة؟ كلا إنها تستحق أن أكتب لها وعنها عمري بأكمله بقدر ما أحبت وأعطت وأوفت في حبها لي ولأبنائي ولأبناء أخي. أنا أتذكر يوم أن ألقت شهيرة بطفليها على باب شقتي، أتذكر كيف بكت بثينة واحتضنتهما بحنان وقالت لي هما أولادي.

ومنذ ذاك اليوم وسليم وزينة ينعمان بحبها ورعايتها واهتمامها حتى الآن. كانت بثينة مثال الزوجة التي يتمناها أي رجل وأكثر، فهل أنا كنت أستحق كل هذا العطاء وكل هذا الحب؟ أظن لو سألتها الآن لاحتضنتني كأني طفلها ثم ستنظر إليّ بكل إجلال وتقدير وتقول إني أعظم زوج في الوجود، هكذا تراني، هكذا

تظن، هكذا تحكي عني لكل من يعرفنا، هكذا تصفني لأولادنا، لقد كنت ماهرًا وبارعًا في تقمص شخصية الزوج المخلص أو ربما هي طيبة إلى حد السذاجة! كلا، أبدًا هي ليست ساذجة، من حقها أن أعتذر لها بكل لغات الدنيا عن هذا الوصف، إنها طيبة وطاهرة لدرجة أنها لن تخطر في بالها حقيقتي الملوثة المخجلة، حقا إنها حقيقة مخجلة جدًّا، لدرجة أني أخجل من الحروف والسطور وأنا أبوح بسري الآن. أنا خائن، أنا كاذب، قد يراني البعض أني مبالغ في إهانة نفسي وتكبير ذنبي، فكثير من الرجال لهم نزوات وهفوات، لم تكن مجرد نزوة، لم تكن مجرد هفوة بل جريمة كبيرة، جريمة اشترك فيها شيطان وشيطانة، أنا وهي، أنا وشهيرة.

كانت شهيرة زوجة أخي الأصغر امرأة بارعة الجمال، حقا كانت أجمل امرأة رأيتها في حياتي كلها، انبهر بها صبري منذ أول مرة رآها صدفة تسير بدلال وثقة في الشارع وأعذره في إعجابه بها، فجمالها لا يقاوم، فأصبح يطوف حولها إلى أن عرف بيتها وتزوجها في أشهر معدودة، وأثمر الزواج سليم سريعًا في نهاية العام الأول من زواجهما ثم بعد عامين جاءت زينة، بينما أنا وزوجتي لم يكن لدينا إلا محمود، واشتعلت بعد ذلك بينهما الخلافات، زال سحر جمالها عن عينيه فبدأ يرى غرورها الطاغي وحبها للمال وعنادها الشديد، وكنت كثيرًا أتدخل بينهما للصلح وبعد أيام يعاودان الشجار، مما ألقاني في طريقها، طريق الشيطان، وأصبحت تكلمني هاتفيا في عملي وأحيانا في بيتي لتشكو من أخي،

كانت لا تكف عن الشكوى من أخي العصبي، الذي يضربها أثناء عصبيته ويؤذي مشاعرها ويهين جمالها.

كنت أسمعها وأواسيها وأعود لأخي أوبخه على أفعاله ويعاد كل شيء كما هو كل مرة، واعتدت دون أن أدرى على صوتها وحديثها، حتى شكواها ودموعها أصبحت تروق لي، وبدأت عيني تنظر لها بنظرة طامعة في كل هذا الجمال، وبدأت أقابلها أحيانا في أماكن عامة على انفراد، تبدأ حديثها تشكو من أخي وتنتهي بحديثها عني وعن حظ بثينة أن تتزوج رجلًا هادئًا مثاليًّا مثلي. ومع تكرار المقابلات أصبح الحوار كله يدور عني وعنها، وباتت بيننا أحاديث مشتركة وحكايات خاصة، إلى أن أدمنتها كما يدمن المدخن سيجارته وعاشق الخمر كأسه، أدمنت صوتها وحديثها ورؤيتها، إنه ليس حبًّا، أبدا ليس حبًّا؛ لأن الحب يرتقي بالإنسان، ما بيننا انزلق بنا سويا إلى الوحل، لقد خنت أخي في بيته وفي حجرة نومه وفي فراشه، كنت أترك لها ترتيب كل شيء لأخذ جرعة من حنانها وأمتص جمالها وأذوب بين ذراعيها وأمتلك جسدها الشيطاني المثير، وكانت بارعة في تدبير الأمر بمهارة وسرعة، كانت ترتب متى ينام أطفالها ومتى يخرج زوجها ومتى نلتقي في الخفاء دون أن يشك أحد فيما بيننا.

إلى أن جاء يوم اشتد بينهما الشجار واعترفت له بأنها لا تحبه، وتريد الانفصال عنه بل بلغ بها الجنون بأنها اعترفت له بحبها لرجل آخر، لا أدري أي جبروت أو أي فجور هذا، ونزل حديثها عليه كالصاعقة، فانهال عليها ضربا لتقر بمن

هذا الآخر وخرج من بيته كالمجنون، قاصدا بيتي، جاءني يشكو حاله وكيف أنه يحبها وهي تحب غيره، كيف يخلص لها وهي تخونه؟ وطلب مني أن أفكر معه من يكون الآخر، ظل يطرح أسماء بعض أقاربها، بعض جيرانه، الشك كان يفتت عقله وجعله يشك في الجميع، ولكن لم يشك أبدا فيَّ أنا، وكأني رجل لا يخطئ، صالح من الصالحين لا يحيد عن طريق الاستقامة، بكى بحرقة فاحتضنته وبكيت حزنًا على نفسي وخجلًا منه، كيف يراني بكل هذا الاحترام والنقاء وكيف أخونه بكل هذا الاجتراء والافتراء.

كل ما استطعت فعله أن أنصحه بأن يطلقها ويتخلص من تلك اللعينة وفي داخلي قسم غليظ بأن أبعد عنها تماما. ولكنه رفض وأصر أن يعرف من حبيبها ليقتله ويقتلها، وتغلب ألم الخيانة على حبه الكبير، وأصبح يعاملها بقسوة بالغة ربما على قدر ما أحبها، كان يغلق باب الشقة عليها كالسجينة، ويضربها بكل قسوة، واتصلت بي تشكو منه وتطالبني بأن أنقذها، وحاولت أن أقنعه أن يطلقها خوفًا عليه أن يقتلها ويضيع مستقبله ولكنه كان عنيدًا بشكل مرعب، وعجزت عن حل الأزمة وعجزت هي عن الفرار من قبضته فتملكها الجنون والرغبة فى تعذيبه وربما تعذيبي فاعترفت له بأنها تحبني وأني أحبها وأن حظها السيئ هو الذي جعلها زوجته وجعل بثينة زوجتي، فسرى اعترافها سمًّا قاتلًا في دمائه وجرى إلى سيارته بأنفاس مضطربة وروحٍ مختنقة وقلب ينزف ألما، وجاءني اتصال منها تبلغني فيه أنها اعترفت له بحبها لي وأنه خرج كالمجنون وعلى الأرجح

سيأتي إلى ليواجهني، ووقفت في بيتي حائرًا ماذا أفعل، كيف أرد عليه؟ هل أكذبها؟ أم أركع تحت قدميه إلى أن يعفو؟

شل تفكيري ووقفت للحظات مقيدًا الخطوات كأني أنتظر مصيري ولكني بعد دقائق استفقت وقررت أن أغادر البيت فورا، فهو ثائر لكرامته وشرفه وربما قتلني وضاع مستقبله، فأنا وهي أحقر من أن يضيع مستقبله من أجل أحدنا، فخرجت إلى الشارع لا خوفًا على حياتي فقد احتقرت نفسي وحياتي لدرجة أني تمنيت أن أموت، ولكن لن أموت بيديه فيخسر شبابه وحياته، خرجت من البيت وأنا أفكر أن أُنهي حياتي بنفسي.

وفي نهاية الشارع الذي أقطنه وجدت زحامًا من المارة، حول حادثة، بين سيارتين فوقفت مذهولًا من الزحام والناس الملتفة حول الحادثة، وقفت ثواني وتمنيت لو سيارة تصدمني وتريحني من هذا العذاب وإذا بأحد الجيران يهرول نحوي في أسى وفزع، وأخبرني أن صبري هو أحد ضحايا الحادث.

ومات صبري، مات وترك كل شيء، زوجته، طفليه، أمواله، وذنب ملتف حول عنقي بعقدة لينة لا تتركني ولا تخنقني، مات دون أن يواجهني، دون أن يعاتبني، وارتاحت شهيرة وتحررت من صبري، وتصورت أن الطريق مفتوحًا لتخرج علاقتنا إلى النور بزواج رسمي، ولكن خاب ظنها بعدما رأتني أمامها رجل آخر غير ذاك المذنب الذي أدمن جمالها، فقد كان موت أخي هو لحظة شفائي من إدمان جسدها وفتنة جمالها، فقد رأيت وجهها الحقيقي بعد موت أخي، رأيتها

كما لم أرها من قبل بعيون كاذبة منافقة وابتسامة سامة، رأيت قبح روحها وتمثل أمامي شيطان شرها فصارت أقبح وجه رآه إنسان، إنها الشيطان، وجمالها سام ملعون قاتل يقتل كل من يقترب منه، فقد قتل جمالها أخي، وأنا كذلك قتيل، قتيل يتنفس ويتحرك، جسد يبدو معافىً من كل داء ولكن أنا روح معذبة مسجونة داخل سجن ذنوبها الحصين، رأتني شهيرة رجلًا آخر يريد أن يبتعد عنها بكل قوة وما منعني من قتلها إلا أطفالي وأطفال أخي، فتزوجت شهيرة من أول رجل دق بابها ولكن لا أحد يتصور إنه مجرد رجل، بل كان رجلًا ثريًّا ومستقر في الخليج وألقت طفليها لي، بحثت عن السعادة مع أسير جديد مفتون بجمالها اللعين، ونسيت أطفالها وذنوبها كأنها بدأت عمرًا جديدًا في صفحة بيضاء، وعندما ضاع منها ما اقتنصت وخسرت صيدها الثمين، عادت تقلب دفاتر الماضي الملعون، عادت تقايض على صمتها وسكوتها للكسب من جديد وهي لا تخجل من ماضٍ ملوث ومن نفسها بعدما باعت كل شيء، هي دائما تبحث عن المكسب بأي طريقة، إنها لعنة لا تفارقني.

أتعبته الكتابة، ولكن الاعتراف أراحه كثيرًا، فقد ألقى بهمومه الثقيلة على الأوراق. وتمنى لو يمتلك الجرأة أن يعترف لزوجته بذنبه ولكن أي اعتراف هذا؟. قد تتركه بثينة إن علمت عبد العزيز الآخر الذي لا تعرفه، وهو أضعف بكثير أن يتحمل فقد بثينة في هذا العمر، حقا لا يستطيع الحياة بدونها بل إنه دائما يتمنى أن يموت قبلها، فلا حياة له بدونها.

مجرد فكرة ساذجة هو أضعف بكثير من تنفيذها فأمسك أوراقه ومزقها وأحرقها حتى لا يراها أحد أبدًا.

*****

تلقت نجلاء رسالة من حسين يطلب مقابلتها لأمر مهم، فذهبت للقائه في وقت الظهيرة، كان يبدو مجهدًا مضطربًا، لديه كلام كثير يريد أن يقوله ولا يدري من أين يبدأ، وهي تراقب حيرته في صمت، فهي أيضًا تريد أن تقول له شيئًا وتخشى أن يغضب منها، فقالت له:

–تصور إن أنا كمان كنت هقولك نتقابل.

–أنا عايز أقولك حاجة مهمة أوي.

–وأنا كمان.

فنظر في عينيها طويلًا ثم قال:

–ليه حاسس إنك هتقولي نفس اللي عايز أقوله؟

–طيب قول يا حسين

–إحنا لازم نبعد يا نجلاء، إحنا ماشيين في طريق مش عارفين هيودينا فين؟ إنتي ست متجوزة.

–غريبة إننا فكرنا نفس التفكير في نفس الوقت.

فنظر في عينيها مرة أخرى، وقال:

-مش غريب أبدًا، عشان بنحب بعض ومشاعرنا صادقة، حاسين ببعض وخايفين على بعض، أنا خايف عليكي يا نجلاء أوي، خايف عليكي مني، خايف حبنا ياخدنا لسكة الخيانة وأنا مش كده وإنتي مش خاينة، أنا هسافر إيطاليا، واحد صاحبي بيشتغل هناك وهيساعدني، حتى ساعدني في فلوس السفر، لسه فيه ناس جدعان.

انهمرت دموعها، وقالت في حزن:

-إنت مش بتبعد، إنت بتهاجر يا حسين، للدرجة دي عايز تبعد عني.

-لازم يبقى بينا بلاد وبلاد وإلا حنيني هيخليني أجري عليكي تاني. لو كنا اتقابلنا في ظروف غير الظروف، إنما النصيب.

-هتفتكرني؟

-اللي يعرفك صعب ينساكي.

-هشوفَك قبل ما تسافر؟

-بلاش نتقابل تاني، ربنا يسعدك مع جوزك.

عادت نجلاء إلى بيتها، واتصلت بصديقتها سلمى وأبلغتها بأن حسين خرج من حياتها للأبد، فهنأتها على نجاتها من هذا الوهم، وأوضحت لها أن الحب الحقيقي

مع زوجها، حب في العلن لا تخجل منه ولا تسرقه في الظلام. وأقنعتها بأن تهتم بزوجها وحينما يرزقها الله بطفل ستحيا حياة مختلفة بإحساس مختلف.

*****

كان سليم يغلق هاتفه طويلًا، ويقضي أغلب وقته في عمله ويعود إلى البيت وهو منهك لا يحتاج إلا النوم. إنه يعاني وكيانه مهتز، حاول أن يغرق في عمله لينسى كل شيء، ولكنه ما استطاع أن ينسى، لقد نسي صورة المثل والقدوة والعم والأب، فأصبحت كل أفكاره مشتتة مضطربة، ولا يستطيع أن يشارك أحد أحزانه وأفكاره وأوجاعه، كثيرًا ما تمنى لو ألقى همومه على زياد، إنه صديقه وأقرب إليه من نفسه، ولكن ماذا سيحكي؟ ماذا سيقول وعن ماذا يتحدث؟ عن الأم الخائنة أم عن العم الخائن؟ ما علمه وصمة عار كبيرة وفضائح شرف وعرض لا يجب أن يعلمها أحد، عليه أن يتحمل جبل همومه وحده دون أن يبدي امتعاضًا، يا له من قدر!

عاد إلى البيت متأخرًا، وكانت زينة في انتظاره لتعد له العشاء ولكنه رفض وهرول إلى غرفته وإلى وحدته، وما أن يختلي بنفسه حتى يستيقظ شوقه، يشتاق إلى سلمى، يتمنى لو بإمكانه أن يبوح لها بعذابه، أن يحتضنها ويذوب بين يديها ويغادر معها إلى زمان غير الزمان ومكان غير المكان، فلا ماضي مؤلم ولا ظروف تلعن حاضره وتقف بينهما سدًّا منيعًا، يأخذه الحنين إليها دومًا ولكن الماضي

يرده بعيدًا، وإن كان الماضي لا يتحمل مسئوليته هو أو هي، ولكن كيف ينسى أن والدها هو من خان والده وكان سبب موته؟

إنه يحتاج وقتًا طويلًا كي يستوعب ما علم وكي يتعلم كيف يفصل بين سلمى ووالدها، يا له من أمر صعب، والأصعب منه تحمل بعدها، إنه يتعذب ويثق أنها تتعذب مثله، فتساءل بينه وبين نفسه:

لماذا يكتب الآباء علينا العذاب دون رحمة ويُحمِّلونا أوزارهم الثقيلة وما نحن بمذنبين، كل ذنبنا أننا منهم وننتمي إليهم.

أمسك هاتفه، وقلب في الصور التي على الهاتف، فلتكن صورتها آخر ما ترى عيناه في نهاية يومه البائس، فليعلن لها حبه واعتذاره وحنينه وشوقه، ويشكو لصورتها الظروف ويستلهم من عينيها بعض الأمان في سنوات الخوف ويقسم لها بالله وبكل الحروف، أنها في قلبه إلى الأبد.

*****

انطلقت الصرخات مدوية في شقة عبد العزيز، صرخات سلمى ووالدتها هزت الجدران كأنها زلزال يقتلع كل شيء، لقد مات عبد العزيز، نام ولم يستيقظ، واتصلت بثينة بابنها محمود وهي تصرخ في هلع "عبد العزيز مات"، واتصلت بابنها الذي ربته سليم وهي تصرخ عبد العزيز مات.. وقطع الفزع مسافات لتنتفض كل أسرة عبد العزيز من أبناء وأقارب وأصدقاء، الجميع جاء يودعه

ويبكيه، وامتلأت الشقة بالمعزين والحزانى والباكين، حتى الجيران إلى سابع جار يتهافتون على مساندة الأسرة ووداع عبد العزيز. واحتد الصراخ بين النساء والفتيات، وتولى رجال العائلة يتقدمهم محمود وسليم إنهاء إجراءات الدفن ومراسم العزاء، ونُشر نعي في إحدى الصحف القومية، والجميع لا يصدق ولا يتخيل أنه رحل، كأنهم جميعًا في كابوس كئيب. ولكنه ليس كابوسًا بل حقيقة صادمة مؤلمة. وزينة ترافق ماما بثينة وسلمى كل دقيقة لتخفف عنهما شيئا من وجعهما، وإن كانت تتألم مثلهما وربما أكثر منهما، فقد مات أبوها مرتين، مرة بموت أبيها صبري ومرة بموت عمها وأبيها الثاني عبد العزيز، لتعاني إحساس اليتم مرة جديدة، ونورهان زوجة محمود وأمها تجلسان إلى جوار بثينة في صمت، تتابعان حزن الجميع وترسمان على ملامحهما حزنًا مصطنعًا باهتًا لا يصدق. وسلمى ما زالت في حالة ذهول، تبكي بكل طاقتها ولا تملك إلا البكاء، دموع خرساء لا تعبر بما يكفي عن مصابها واحتبس صوتها فما بقي لها إلا صراخ قلبها على فقدان سندها وحصنها وأمانها، كانت تبكي وهي تستمع لأمها تحدث نفسها وتقف أمام صورة والدها وتكلمه وتعاتبه على أنه رحل وتركها وحدها، كيف ذلك وهو لم يشكُ من شيء ولم يُعانِ علة في أيامه الأخيرة، كانت سلمى تبكي وهي تعلم علته، وعذابه الذي خنقه في نومه والحمل الثقيل الذي أحنى ظهره وأنهك قواه فما استطاع السير في الحياة قُدُمًا أكثر من ذلك. وإن كانت لا تعلم تفاصيل ماضيه الذي أتعبه، ولكنها كانت تثق أنه يتعذب في صمت ومات من عذابه في صمت.

وأدرك محمود فجأة أنه لم يمنح والده الوقت الكافي من أيامه ولا الاهتمام الكافي، تذكر فجأة إنه لم يشبع من والده، وكان يحتاجه إلى جواره في هذه الفترة الصعبة من حياته. دائما كان يخذل والده ولا يستمع بإصغاء إلى نصحه وإرشاده واليوم عندما أصبح يلهث خلف هذا النصح الرشيد والحب الصادق مات عبد العزيز. أصبح عليه أن يواجه الأيام بلا أب يتدلل عليه فيخطئ ويعود إليه يصوّبه ويحمل عنه خطاياه، ويهوِّن عليه أخطاءه، الآن فقط شعر محمود أنه كبر بما يكفي، وعليه أن يتصرف كرب عائلة وكبيرها، ويكون مسئولًا عن أخته وأمه. فليعش وقتًا لغيره ويكفي أنه عاش عمرًا لنفسه ونزواته.

ووقف سليم في عزاء عمه بمشاعر متضاربة حزينة، كيف يموت عبد العزيز الآن؟ كان عليه أن ينتظر، كان سليم يريد أن يراه مرة أخرى بعد لقائهما الأخير واعتراف العم الرهيب، كان عليه أن ينتظر بعض الوقت، ينتظر إلى أن يعرف سليم ماذا يريد منه؟ هل يريد أن يعاتبه؟ أن يلعنه؟ أن يكرهه؟ أن يصرخ في وجهه ويقول له أنت لست أخًا، أنت لست إنسانًا، كان عليه أن ينتظر حتى تهدأ ناره ويتخذ قراره نحوه، كيف يموت فجأة؟ كيف يلقي بعبء ماضيه على كتفيه ويرحل إلى العالم الآخر ليرتاح وحده ويترك له الشقاء؟ يتركه غير قادر على النسيان، عاجز عن الغفران. حائر بين شخصيتين متناقضتين في إنسان واحد، شخص ارتكب كل الخطايا ولم يحترم دمًا ولا أخوة، وشخص كفل يتيمين وعاملهما بكل حب واهتمام حتى نسيا أنه ليس أبوهما، وكأن الشخصين مختلفان

لا يعرفان بعضهما البعض. ماذا يفصل بينهما؟ هل التوبة؟ أهي الجسر الذي مر من خلاله عبد العزيز اللعين اللئيم إلى عبد العزيز كافل اليتيم؟

وما زال سليم يتلقى العزاء، يهز رأسه مع كلمات المعزين المتواجدين بأعداد كبيرة، ويمد يده ليسلم على الناس واحد تلو الآخر، وعقله شارد لا يستمع إلى كلمات مواساتهم ولا يكترث بأسمائهم، ولا يهتم بالتدقيق في وجوههم، هو شارد بعقله يفكر في عبد العزيز ومصيره الآن، أيعذب على خطاياه أم يكافئ على ما فعله باليتيمين، هل تلاقت روحه مع روح صبري في العالم الآخر؟ وإن كان ذلك فكيف تلاقت الأرواح وكيف كان اللقاء؟

وأفاق سليم من أفكاره وشروده على صوت زياد يهمس في أذنه، إنه يبدو مرهقًا جدًّا، وعلى وشك السقوط مغشيا عليه، وعليه أن يرتاح ساعة واحدة ثم يعود، رفض سليم، وأصر أن يبقى إلى انتهاء العزاء. إنه لا يحتاج الراحة لجسده، بل يبحث عن راحة لعقله من أفكار متضاربة، يبحث عن راحة لقلب يتمزق ونفس متعبة وروح معذبة مكبلة بقيود من عهد انتهى ولكنه لم يمت، ما زالت أشباح عهد سابق تسكن أرواحًا حية تحاول أن تميتها عمدًا.

*****

الفصل العشرين

صرخت شهيرة بكل صوتها بكل عذابها بكل سنوات عمرها المبعثرة بين الوطن والغربة بحثًا عن الراحة والأمان. صرخت فور أن علمت بموت عبد العزيز، دارت في شقتها تكلم نفسها وتتساءل في جنون:

كيف يموت بهذه البساطة؟ كيف يموت بكل هذه السهولة؟ كيف ينقذك الموت من انتقامي؟ أتموت وترتاح وأنا أتعذب؟

يا له من خبر!! يا له من قدر!!.

جلست بعد أن أنهكها البكاء والعويل لتلتقط أنفاسها وتمسك بشوك عذابها وتفتش في جراحها العميقة ويا لها من جراح.

إنها خُلقت امرأة جميلة ما خلقت امرأة لعوبًا تهوى الخيانة وتعشقها، بل ساقتها ظروفها وربما جمالها إلى طريق الشيطان، وكان إيمانها أضعف من غريزتها فسقطت في بئر الخطايا والذنوب.

ما سعت إلى الزواج، بل كان جمالها يجعل الرجال يتهافتون على الزواج منها منذ مراهقتها، وكانت ترفض كل خطابها وتنتظر فارس أحلامها في صمت وثقة، بهدوء واعتزاز، تترقب بقلب مطمئن الشاب الوسيم الغني الذي يسقيها رحيق السعادة ليلا ونهارا، الذي ينصبها على عرش قلبه ملكة حياته للأبد، إلى أن

جاء لخطبتها صبري، ما كانت تعرفه قط، وعندما جاء لخطبتها وجلس معها في بيت العائلة أخبرها أنه سقط صريع جمالها منذ أول لحظة، غزل لها من كلمات العشق ثوبًا جميلًا وألبسها إياه، كان لبقًا وسيمًا طويل القامة، يعمل محاسبًا في شركة كبيرة وله منصب مرموق. وبعدما انصرف، أخبرها والدها أنه شاب غني وعلى خلق طيب، ويبدو مغرمًا عاشقًا ولهانًا. وافقت على الزواج منه وتزوجا سريعًا. ووجدت نفسها أمام زوج له طبيعة خاصة. يحبها بجنون ويغار عليها بجنون، متقلب الطبع، عصبي شديد الانفعال، في أوقات هدوئه يدللها كأنها أميرة وفي أوقات عصبيته وجنونه يعنفها ويضربها ضربًا مبرحًا كأنها جارية، وبين صبري الحنون وصبري المجنون ممر واحد هو الغيرة، غيرته عليها تستبدله في ثوان معدودة من ملاك إلى شيطان، من حمل وديع إلى ثور هائج. وهي أصبحت حائرة، ومشاعرها حائرة، لا تدري إن كانت تحبه أو تكرهه، إنها أمام شخصين متناقضين، تحب أحدهما وتكره الآخر، كادت تجن من تصرفاته الغريبة، نفس الإنسان الذي قد يركع تحت قدميها لتحب وترضى وتغفر وتعفو هو ذاك الإنسان الذي يهينها ويصفعها إلى أن يرسم أصابع كفيه على خديها وجسدها إصبعًا إصبعًا، حاولت أن تتجنب كل ما يُظهِر وجهه الشرس ويُطلِق مارد الغيرة من أعماق نفسه، ولكنها لم تستطع أن تطفئ نار غيرته، إنه يغار عليها من أي شخص تتعامل معه، من كل إنسان كان قريبًا أو غريبًا، حتى النساء يغار منهن، يغار من اهتمامها بأمها أو حبها لصديقاتها، لا يريد أن يتسع قلبها لحب غيره مهما كان هذا الآخر، من فرط غيرته كانت تظن أنه يغار من سليم وزينة، كان

يختنق من تدليلها لطفليها، ويفتعل أي مشكلة على أشياء تافهة حينما يراها تهتم بهما، هل هذا أمر يحتمل، كان حبه خانقًا لدرجة تقبض الروح، ولما ضاق بها الحال اشتكت لأهلها، ولكن لم يكن لشكواها جدوى ولا قيمة، كل ما يقوله أهلها بعد كل مشاجرة وبعد كل شكوى (حافظي على بيتك، الغيرة حب).

فبدأت تشكو صبري لأهله، لأخيه عبد العزيز، وهنا بدأت حكايتها مع عبد العزيز. لم يكن عبد العزيز الرجل الوسيم الذي يلفت النظر في الوهلة الأولى، ولكنه كان هادئ الطبع منضبطًا، منضبطًا في كل شيء، في أسلوب كلامه، في جلسته، في نظرته، حتى في ضحكته، لا يسمح لها أبدًا أن تصل إلى حد القهقهة، كان أسمر اللون مجعد الشعر، ذا أنف مستقيم وشارب كبير، ربما في نفس طول قامة أخيه، يبدو كلاسيكيًّا في طريقة لبسه، يعتاد أن يحافظ على لبس البدل الأنيقة حتى في الزيارات العائلية، يحفظ لنفسه هالة من الوقار خاصة به، وصورة كبير العائلة، ذي الحكمة والرأي الرشيد.

كان صبري بالفعل يعود إليه في كل كبيرة وصغيرة في حياته، ويسترشد برأيه كأنه مرجعية، وأصبح صبري وزوجته يعودان إلى عبد العزيز لحل مشكلاتهما الزوجية، أحيانا يذهبان إلى بيته وأحيانًا يستدعيانه إلى بيتهما.

وفي مرة اتصلت به شهيرة بعد خناقة زوجية معتادة، ولكن صبري بالغ في تعنيفها وضربها، وطلبت من عبد العزيز أن يأتي إلى المنزل وإلا ستنتحر حالا، ذهب

إليها مهرولا ولم يكن صبري في المنزل، حاول أن ينصرف وأخبرها أنه سيبحث عنه ويعود به ويجعله يعتذر لها بشدة. ولكنها كانت منهارة تبكي بحرقة وكل جسدها يرتعش من الخوف والألم وخدوش كثيرة في وجهها. وجرح سطحي في ذراعها الأيمن، فأشفق عليها عبد العزيز، وأحضر قطن ومطهر وقام بتنظيف الجرح في رفق وعطف، كانت لمسته رقيقة حانية، ونظرته رقيقة رحيمة بها، فهدأت بعض الشيء، وأنهى تطهير الجرح وجلس إلى جوارها وعلى شفتيه ابتسامة حانية، وقال لها:

–حقك عليا، صبري عصبي وبيغير عليكي بجنون، إنتي مش متخيلة بيحبك أد إيه.

فقالت بصوت مرتعش:

–مش عايزاه يحبني، مش عايزة أعيش معاه، اقنعه يطلقني يا عبد العزيز، أرجوك.

–طلاق إيه بس، دا ميقدرش يعيش من غيرك.

فانهمرت في البكاء من جديد، وقالت بصوت خافت:

–أنا هنتحر، دا الحل الوحيد.

فربت على كتفها وقال في رفق:

–متقوليش كده أبدا، حرام عليكي نفسك وجمالك.

فنظرت إليه بيأس مفرط ودموعٍ متدفقة وألقت برأسها على كتفه تستريح قليلا من آلامها، فأحاطها بذراعيه وأغمضت عينيها كأن روحها المتعبة وجدت أخيرًا الدفء والراحة بعد صبر طويل، وغابت في حضنه دقائق تختبئ من ظروفها وقهرها وكأنه عالم فريد تكتشفه لأول مرة، حنان يسري في جسدها المنهك وطمأنينة تضمد كل جراحها، ارتاحت بين ذراعيه كأنها لم تعرف الراحة من قبل، وهو يقبض عليها بين ذراعيه بحنان بالغ، ولأول مرة تشعر بأنه لا يشفق عليها بل معجب بها ويشتهي حضنها وقربها. إنها ليست مجرد لمسة أو احتضان بذراعيه بل هو يحضنها بقلبه.. ومرت دقائق هادئة، أنهاها عبد العزيز حينما اصطدمت عيناه بصورة أخيه المعلقة على الجدار أمامه فأبعد شهيرة عنه في رفق وهدوء، وعاد يتصنع وقاره ويعتدل في جلسته، وجاء صبري وجلس مع أخيه عبد العزيز، وتلقى تعنيفًا بالغًا من أخيه الكبير على تصرفاته الحمقاء واعتذر صبري وقبَّل زوجته كما يفعل كل مرة.

وأصبح عبد العزيز هو الأمان والحنان لشهيرة، والأذن التي تسمع بكاءها بإنصات والقلب الذي يحنو على ضعفها. وظلت المسافات بين عبد العزيز تضيق شيئًا فشيئًا، لم يعد حضن عبد العزيز الحاني وحده يكفيها ولا يكفيه، كلاهما اشتهى أكثر من ذلك فقبّلها وقبّلته، واستمر ذلك فترة ثم أصبحت القبلات لا تكفيهما فأصبحت الرغبة وحشًا كاسرًا يتعملق بداخلهما إلى أن انتصر الوحش وسقط كليهما أسير رغبته وشهوته، ثم صار جسدها يبحث عن

لمسته ويتلهف إلى جسده، بل صارت تغار عليه من بثينة زوجته. واستمر ذلك الحال إلى أن انهارت واعترفت لصبري بأنها تحب غيره ولا تحبه، أعلنت كرهها له تحديًا لحبه الخانق وغيرته البشعة، فظل يعذبها ويضربها فترة طويلة إلى أن أقرت بحبها لأخيه، أعلنتها صريحة وكأنها أعلنت نبأ موت صبري، وخرج كالمجنون لينتقم من عبد العزيز فوقعت حادثة السيارة ومات.

وظنت أن الحياة ابتسمت لها وبإمكانها أن تتزوج من عبد العزيز وتربي طفليها مع عمهما. ولكن عبد العزيز تغيّر وحمّلها هي مسئولية الحادثة. فجأة أصبحت هي الشيطان وارتدى هو عباءة التوبة الفضفاضة. أصبح حبه لها ذنبًا كبيرًا يود أن يمحوه بأي طريقة. حاولت أن تقنعه بأن يتزوجها ولو من أجل سليم وزينة، ولكنه انقلب فجأة إلى رجل لا يطيق رؤيتها. هددته بأن تفضح سره لزوجته فهددها بالقتل.

كان عبد العزيز صارمًا في تهديده، ومن الممكن أن يفعل أي شيء حتى يحافظ على اسمه وصورته وبيته وعائلته. فخافت أن يفعلها، ولم لا؟ مَنْ يخُن يقتل. إنه لن يفرِّط في هيبته أبدًا ووقاره المصطنع. وسكتت بعدما خسرت كل شيء، أخذ منها هو كل متعته وشرب رحيق جمالها حتى شبع ثم تخلص منها كما يتخلص أي رجل من أي نزوة عابرة في حياته، خسرت هي صبري واحتفظ هو بكل شيء وباسمه نظيفًا بعدما لوثها وأسقطها في الخطيئة الكبرى، إلى أن جاءتها فرصة الزواج من رجل مغترب، ولكن شرطه الوحيد أن تتخلى عن طفليها وتتركهما

في مصر. كان قرارًا صعبًا، ولكنها أرادت أن تشقيه وتشقي زوجته وتذكره دائمًا بفعلته، كلما يرى سليم وزينة سيتذكر أنه خان أخيه وكان سبب موته.

وسافرت مع زوجها الجديد وأنجبت منه ولدًا واحدًا. ولم تهنأ معه وكأنه كُتب عليها الشقاء، كان نموذجًا غريبًا من الرجال لم تره من قبل. قليل الكلام، ينهمك في عمله طوال الوقت، وفي وقت فراغه يفكر كيف يجني أموالا أكثر وأكثر، يحب المال أكثر من أي شيء، كان زاهدًا في كل شيء إلا المال، حتى فيها وفي جمالها، لم يكن بخيلًا عليها، بل كان يشتري لها ذهب بكثرة، ويلبي كل طلباتها، ولكنه جاف بلا مشاعر، لم يشعرها بجمالها ولا أنوثتها ولا أنها امرأة مميزة أبدًا، سجنها في بيته ومنعها من التواصل مع أهلها وأطفالها في مصر، ورضيت بحياتها معه ورضيت بكل شروطه كي تستقر وتنسى. كان الماضي يذكرها بأنها امرأة عاهرة، حتى سليم وزينة جزء من هذا الماضي المخجل. فأغلقت الماضي وتعلمت القسوة، فكل ما حولها جعل منها امرأة قاسية. قسوة صبري عليها وقسوة عبد العزيز وقسوة أهلها، حتى زوجها الجديد قاس مثلهم، هذا عالم بلا قلب ولا رحمة، فتخلت عن مشاعر الأمومة نحو طفليها في القاهرة ومنحت كل حنانها لابنها مازن، وأخذ منها مازن مشاعر أمومة كان يجب أن توزع على ثلاثة. فأغرقته بفيض مشاعرها وكذلك والده كان يدلل وحيده بشدة. فجعل منه شخصية مدللة ضعيفة، ومرت الأيام إلى أن جاء يوم اشتعلت النيران في البيت وكان ابنها وزوجها خارج المنزل وأصابها تشوه بالغ في وجهها.

بعد هذا الحريق نفر منها زوجها بشكل بالغ ثم طلقها، ونساها ابنها كما نساها أباه، وذهبت لتعيش مع أخيها الذي يعيش في نفس الدولة في الخليج، قضت مع أخيها شهرين في عزله، استرجعت كل ما دفنت من ذكريات وكل ما كتمت من مشاعر، وشعرت أن الحرق عقاب الله على خيانتها لصبري وإهمالها لسليم وزينة، وطلبت من أخيها أن يجمع لها معلومات عن الأولاد وعمهم، وعرفت أن عبد العزيز يحيا في هدوء، وأتم مهمته مع سليم وزينة وزوّج ابنه الكبير، وأن ابنتها تزوجت وطُلّقت، وهنا اشتعلت مشاعر الغضب في نفسها، لقد ترك زينة تتزوج عجوزًا لينتقم منها، أراد أن يدمرها كما دمر أمها من قبل، وتساءلت:

كيف يعيش كل هذه السنين بلا عقاب؟ هل سامحه الله؟ لكن أنا لم أسامحه، ولا بد أن صبري لم يسامحه. وبدأت الرغبة في الانتقام تتصاعد في أعماقها، لا بد أن يدفع ثمن جرائمه، ولكن كيف؟

فكرت ليالي طويلة إلى أن استقرت أن تهدده، ثروته مقابل أن يحتفظ بهيبته، وهي تعلم أنه لن يفرط في صورته المثالية التي أقنع بها الجميع طوال عمره، وسيدفع كل ما يملك مقابل ذلك. فأخذت القرار بالعودة للقاهرة لهدفين؛ أن تنتقم من عبد العزيز، وتحاول أن تصلح ما يمكن إصلاحه في وجهها المشوه.

وعادت إلى القاهرة، وما أن اقتربت حتى استفاقت أمومتها نحو سليم وزينة، وشيء ما يكبر في قلبها ويرجوها أن تراهما وقابلتهما. ولا تدري ماذا تغير فيها بمجرد أن رأت سليم وزينة، كلاهما أقام له صرحًا في قلبها الجامد المتحجر،

سعادة غريبة تغزو كيانها كلما تذكرت وجه سليم حتى بكل إنكاره لها وقسوته عليها، لكنها ترى خلف هذا الوجه القاسي قلبًا حنونًا عطوفًا، أما زينة تذكرها بجمالها أيام الصبا، ولكنها تفوقها في الرقة والتلقائية. وسألت نفسها سؤالًا لأول مرة تفكر فيه:

–هل أخطأت عندما تركت سليم وزينة؟ وماذا لو كنت وهبت لهما عمري؟

ثم أجابت نفسها لقد مضى وقت كل هذه الأسئلة، وربما الأفضل أن تسأل كيف يسامحها سليم وزينة؟ وتذكرت عيون كليهما. وانتهت إلى أن سليم قلبه موصد تجاهها بشدة، أما زينة من الممكن أن تعفو. لكن ربما بعد سنوات طويلة، وكم تبقّى في العمر من سنوات؟

أصبح ليل شهيرة نهارها وهي تتعذب كلما نظرت في مرآتها ورأت قبحها بعد جمال أذل الرجال، كلما تذكرت سليم وزينة وكرههما لها، كلما تذكرت كيف تخلص منها زوجها الثاني بعد أن احترقت وأكلت النار جمالها، تتعذب بحياة قاسية عاشتها زوجة صبري وعشيقة عبد العزيز، تتعذب بسنوات عاشتها زوجة لرجل يعاملها بتجاهل، لا يُرضي غرورها ولا يُشبع عواطفها، ما تحملته إلا من أجل ابنها، فقد تنازلت عن سليم وزينة سابقا وكان مستحيلًا أن تتنازل عن ابنها مازن، ولكن أحست أنها أرضعته قسوة، وعلمته الجفاء، ابن ضال عاق، لم يهتز قلبه لظلم والده لها ولم يسأل عنها منذ أن طُلقت، إنه اختار صف والده، سنوات عذاب متواصلة. أشقاها جمالها فما عشق الرجال إلا شكل

وجسد ولمّا زال الجمال زال عنها كل شيء، لولا أنها كانت تمتلك قدرًا لا بأس به من الذكاء فادخرت قدرًا جيد جدًّا من المال والمجوهرات يعينها على حياتها.

بكت كثيرًا فقد كان لها حلم جاءت من أجله القاهرة، أن تعاقب عبد العزيز وتؤلمه، لو كان تزوجها بعد موت أخيه كانت عاشت في حضن سليم وزينة، الآن هي بلا زوجٍ، بلا أبناء، رغم أن لديها من الأبناء ثلاثة، اثنان في مصر، قلباهما معلقان ببثينة، ولهما كل الحق، فهي مَنْ ربّت وسهرت وأعطت. وابن آخر في الخليج قلبه معلق بأبيه، جاحد لكل عطائها وحبها وحنانها.

بكت كثيرا على نفسها، نزوات شبابها أسعدتها دقائق مسروقة وأشقتها عمرًا كاملًا، اليوم أدركت كم خسرت من أجل شهوة، وللأسف كل ما خسرت لا يمكن تعويضه.

وسألت نفسها هل أحاول مرة أخرى مع أبنائي لعلهم يغفرون، لعلهم يرحمون؟

سألت نفسها وهي تعرف الإجابة جيدا، لم تزرع رحمة لتحصد رحمة، لم تبذر حبًّا لتجني حبًّا، لم تسقِهما اهتمامًا لتجني اهتمامًا. فكرت إلى أن يئست السعي وراء عفو سليم وزينة.

قررت أن تتجه إلى الهدف الثاني من عودتها القاهرة، أن تجري عملية تجميل ثم تودع سليم وزينة بزيارة أخيرة وتسافر إلى الخليج لتعيش مع أخيها الوحيد.

تعود إلى هناك بدون أن تنتقم من عبد العزيز، تعود بكامل عذابها وأضعاف عذابها، فكراهية سليم وزينة لها عذاب ما بعده عذاب.

*****

مر شهران على رحيل عبد العزيز. خيم الحزن على بيت عائلته، وهجرت الابتسامة كل من فيه. افتقدت الأم حيويتها وابتسامتها الرقيقة، وكبرت أعوامًا فوق عمرها، بعدما رحل حبيبها ورفيق عمرها، انطفأت شموع حياتها، وأصبحت الحياة باردة مملة بلا روح ولا معنى، فقد كان عبد العزيز هو معنى حياتها، هو الحبيب والزوج والسند الذي لم يخذلها أبدا، وكان دائما الزوج الحنون العطوف المحب، رحل ورحلت معه كل حلاوة الأيام، واستسلمت سلمى للقدر في صمت وحزن ورضا بما قدّره الله، وأصبح عملها هو عالمها الجديد، بعدما انفض كل أحبائها ولم يبق لها إلا والدتها، لم يكن سليم إلى جوارها كما كانت تظن، كان يزور بيت العائلة كثيرًا وتراه كثيرًا ولكن يتعامل معها كما يتعامل مع كل أفراد العائلة، شعرت فجأة أنها أصبحت ابنة عمه وفقط. حتى رسائله لها على الهاتف رسائل مختصرة، كلمات معدودة تسأل عن الصحة والأحوال، لا يسألها أبدا عنها بعدما كان يحب أن يعرف كل صغيرة وكبيرة في حياتها. واستجابت هي إلى رغبته في الابتعاد، والتزمت بالوضع الجديد الذي أقره، فلم تعد تتواصل معه هاتفيًّا أو تتدخل في تفاصيل حياته. بل أصبحت تكتفي بأن ترحب به عندما

يزورهم، ثم تتركه يتحدث مع والدتها وتدخل حجرتها. قررت أن تساعده فيما يريد. إنه يريد أن ينساها. لقد أدركت أن والدها محق في قراره برفض زواجها من سليم. الأيام أثبتت أن سليم لم يستطع أن يتخطى ما علم من أسرار الماضي. ساعدته فيما يريد ولكنها لم تستطع أن تساعد نفسها في تخطي أزمتها، إنها ما زالت تحبه، رغم بعده وهجره، رغم أنه أخلف وعده لها بألا يحاسبها على ذنب لم ترتكبه. ابتعد وتركها في محنتها وحدها. حاولت أن تنغمس أكثر وأكثر في العمل. ولكن حزنها طاغ على ملامحها ونظرة عينيها ونبرة صوتها المهزومة وفكرها الشارد في متاهة الماضي والحاضر وضبابية المستقبل.

كانت نجلاء تعرف جيدًا ما تعاني منه صديقتها، لقد حكت لها سلمى أن سليم تغيرت مشاعره نحوها، لم تخبرها بأكثر من ذلك، ولكن هذا كان كافيًا جدًّا لتدرك نجلاء ما تعانيه صديقتها، فاقترحت عليها أن تفكر في افتتاح عيادة تنشغل بها. وألحت في فكرتها، وأُعجبت سلمى بالاقتراح وعرضت ذلك على والدتها التي وافقت. لقد كانت تلاحظ بثينة كل شيء دون أن تعلق، دون أن تسأل، لقد تركت كل شيء للنصيب. وتمنت لابنتها الزوج المناسب سواء كان سليم أو غيره، هي لا ترجو لابنتها إلا السعادة.

أما محمود فقد أصبح مهتمًا بوالدته كثيرًا وأخته، وكف عن الشكوى من زوجته، فلم يعد هناك معنى لذلك، وانصبّ كل وقته ومجهوده على عمله والاهتمام بأمه وأخته. واستسلم لكل عيوب نورهان، رضي بها كما هي، فقد كان بين

يديه الحب والجمال وهو من فرط فيه، ولم يعد أمامه إلا قبول واقعه. لم يعد يقيم الدنيا ويقعدها حينما تقضي يومها بكامله لنفسها، تركها تفعل ما تريد، فهي لن تتغير من أجله، فكما يعلم هو جيدا إنها لم تحتل قلبه، كان يعلم أيضًا إنه لم يحتل قلبها كي تتغير من أجله، فأصبح عمله ونجاحه هو كل ما يشغله.

تغير محمود، فلم يعد يلهث خلف النساء، فقد زهد فيهن جميعًا حتى في زوجته، وأصبح الماضي واحته الجميلة كلما اشتاق إليه ذهب إلى شقة الذكريات وارتاح من عناء الأيام بعض من الوقت.

*****

الفصل الحادي والعشرون

لا يقف دوران الأيام مهما حدث، يرحل من يرحل ويولد أناس جدد وتزورنا الأحزان وحتى لو مكثت في القلوب أيامًا أو سنوات تستمر عجلة الأيام في دورانها.

مر على رحيل عبد العزيز ستة أشهر، وما زال الجميع يلهي نفسه عن وجعه بعمله ومشاغل الحياة اليومية.

وكان يومًا مشرقًا هادئًا، وسليم في مكتبه يراجع حسابات خاصة بالمطعم في انتظار زياد أن يأتي إليه ثم ينتقل هو ليباشر عمله في الصيدلية، لقد أصبح يومه عملًا متواصلًا ليعود إلى البيت في حالة من الإرهاق البالغ تجعله ينام دون أدنى تفكير، وبينما هو يتابع عمله بتركيز في مكتبه بالمطعم جاءه موظف يخبره بأن امرأة تريد مقابلته بإصرار، فسأل سليم عن اسمها، فقال الموظف إنها رفضت ذكر اسمها، ولكنها لن تنصرف قبل أن تقابلك. اضطر سليم أن يسمح لها بمقابلته، فدخلت امرأة قد تكون في العقد الخامس أو أكبر أو أصغر قليلا، ذات شعر بني، تخطو في خيلاء وثقة، ترتدي فستانًا بنيًا أنيقًا وقورًا، استقبلها سليم واقفًا بابتسامة وأشار لها بالجلوس، جلس هو على مقعده وجلست هي أمام مكتبه في ثقة، فسأل سليم عن سبب المقابلة وهل جاءت تشكو له من

الخدمة في المطعم أو أي أحد من العاملين، أو من جودة أصناف الطعام، هكذا توقع، فابتسمت وقالت:

-إنت مش عارفني يا سليم.

-مش فاكر حضرتك للأسف.

-أنا ماما.

-ففزع سليم وقال بصوت منخفض متأفف.

-شهيرة تاني، مفيش نقاب دلوقتي، إنتي عايزه إيه؟

-باركلي يا ابني، أنا عملت العملية ونجحت الحمد لله.

-عايزة إيه، جاية تهدديني زي ما هددتي عمي، المبلغ اللي ما خدتيهوش منه جاية تاخديه مني؟

-مش ممكن، هو قالك إيه عني قبل ما يموت، فهمني؟

فأخبرها سليم إنه علم من عمه كل الماضي الأسود وتهديدها له. وأكد لها أنه لن يدفع شيئا وفي نفس الوقت لن يسمح لها أن تقص هذا الماضي المخجل على أي أحد آخر في العائلة.

فبكت بشدة وهي تدعو على عبد العزيز أن يناله من الله عذاب لا ينتهي أبدا كما أشقاها في حياته وموته. فطلب منها سليم بكل حسم أن تختفي من حياته،

أن ترحل إلى حيث جاءت، فهو لا يطيق رؤيتها ولا سماع اسمها ولا يعترف بها أما له.

كان سليم قاسيًا حادًّا عنيفًا، يحدثها وكل تفاصيل وجهه تعبر عن كراهيته لها، فقامت من مقعدها واقتربت من مقعده، وقالت له بصوت خافت إنها كانت ترغب في إرهاب وابتزاز عبد العزيز ثمن دمار حياتها، ولكنها لا تريد من أبنائها أي شيء إلا التسامح. فنظر لها سليم بسخرية بالغة وقال لها:

-أسامح؟ أسامح على إيه بالضبط؟ على ماضي خونتي فيه أبويا وتخليتي فيه عني وعن أختي؟ ولا عن حاضر جيتي شوهتي فيه كل حلو في عيني؟ إنتي ما سبتيليش حاجة أعيش ليها وعشانها. ابعدي وارحمينا يوم واحد في حياتك عشان ربنا يرحمك.

فبكت مرة أخرى واعتذرت له عما سببت من ألم وعذاب، وطلبت منه أن يمنحها أي فرصة لإصلاح أي شيء تسببت في خرابه وإفساده، فعاد ينظر لها نفس نظرة الاحتقار وقال:

-تفتكري اللي انكسر في المشاعر يتصلح إزاي؟ تفتكري عمي ينفع أشوفه تاني قدوة ومثل؟

-اديني فرصة أقولك إيه اللي خلاني اغلط، أبوك كان...

فقاطعها وقال منفعلًا:

-كفاية، عمي مجرم، وأبويا كمان لازم يبقى مجرم؟ كفاية، إنتي مش عارفة إنتي بتعملي إيه فيَّا، ارحميني.

-أنا هعمل اللي تقول عليه.

-سيبينا نعيش، وروحي عيشي بعيد عنا، وتأكدي إننا يدوب هنعيش من غير سعادة، من غير حب، لأن بسببك كل حاجة راحت.

فهزت رأسها وغادرت في خطى بطيئة، غادرت وهي تعلم إنها لن تعود مرة أخرى، أدركت أن الحياة التي استغنت عنها سابقا بمنتهى السهولة ترفضها الآن بمنتهى السهولة.

أدركت أن الأمومة ليست كلمة تقال، بل أفعال وتضحيات، محبة وحنان وعطاء يحفر في قلوب الصغار مجرى من العشق والارتباط بالأم، وهذا المجري يزداد عمقًا كلما كبروا، غادرت بأحزان ثقيلة ولكن ليس أمامها إلا الرحيل، فقد هزمها الماضي بخطايا ثقيلة وهزمها الحاضر بجفاء لا يرحم. لم يعد أمامها إلا أن تطلب من الله المغفرة لعل مغفرته تبدل جفاء قلوب أبنائها ولو بقليل من الحنان.

*****

بدأت سلمى العمل في عيادتها، وأصبح يومها ممتلئا بالمهام العملية، ليس هناك وقت للتفكير في شيء، تركت كل كيانها يذوب في العمل، أتاحت الفرصة لجراح قلبها أن تهدأ وتنام ولو ساعات معدودة فهذا يكفيها كي تستطيع أن تواصل

أيامها حتى لو كانت تمر روتينية مملة مرهقة بلا نسيم يلامس القلب والروح، فلم تعد تبحث عن السعادة، هي فقط تبحث عن التعايش مع أيامها وما فرض عليها.

وفي ليلة أنهت عملها في العيادة، وجلست تقرأ في كتاب علمي كي تعود إلى البيت منهكة الجسد، مشبعة العقل، مستعدة لنوم عميق. فإذا بالممرضة تخبرها أن هناك طبيبًا يريد مقابلتها، فسألت سلمى من؟ فأخبرتها أنه دكتور سليم.

دخل سليم يحمل باقة زهور، يسير في خطوات مترددة وعلى شفتيه ابتسامة حانية وفي عينيه نظرة مشتاقة ولهفة تنطق بالكثير، عطره يسبق خطواته وأناقته لافتة للانتباه.

وقفت سلمى ورحبت به بابتسامة باهتة ونظرة يعرفها سليم جيدا ويقرأ كل ما فيها.

قال لها:

-مبروك يا سلمى، معقول أكون آخر من يعلم، أنا معرفتش غير امبارح بس.

-أنا بدأت شغل في العيادة من أسبوع.

-كنت أتمنى أكون معاكي في كل حاجة، ونختار المكان والأجهزة، كنت أحب أشاركك تجهيز العيادة يوم بيوم.

صمتت وعلى ملامحها حزن عميق ربما أسكتها وأعجزها عن الرد، أشارت له بالجلوس وجلست صامتة وخفضت بصرها على أوراقها، فقال سليم:

- وحشتيني جدًا.

فهزت رأسها بابتسامة يائسة منكسرة وقالت بصوت حزين:

-جاي ليه يا سليم.

فقال بصوت رقيق يملؤه الشجن والشوق:

-جاي ارتاح، تعبت في البُعد وتوهت، أنا اكتشفت إني مقدرش أعيش من غيرك. الفترة اللي فاتت، كنت متلخبط، جوايا زلزال ومش فاهم نفسي، لكن النهارده أنا متأكد إن وجودك في حياتي هو الحياة كلها بالنسبالي، مش مهم الماضي كان إيه، المهم أنا وانتي عايزين إيه وإحساسنا إيه.

ما زالت تخفض بصرها ولا تواجه عينيه المشتاقة ولو حتى بنظرة لوم وعتاب، إنها تبخل عليه حتى بتلك النظرة التي يعرفها ويتقبلها، فهو جاء إليها ومستعد لسماع كل لومها وعتابها، هو يعلم جيدا كم عذبها وعذب نفسه، ما جاء لينكر بل جاء ليعترف بحبه ويعتذر عن تقصيره، جاء ليترك بين يديها مصيره. وهي تتجاهله تجاهلًا موجعًا، تقتله بصمتها وحزنها وعيونها التي تبخل عليه حتى بنظرة عتاب.

أرهقه الصمت الطويل فقال:

-سلمى، ننسي امبارح ونبدأ حياتنا.

فقالت بحزن وما زالت عيونها تتجاهله وتنظر بعيدا ربما تحلق بين ذكريات الماضي وتراه أقوى وأجمل من حاضرها:

-ماينفعش، في حاجات متتنسيش. أنسى إزاي إنك بعدت عني في وقت وفاة بابا ودا أكتر وقت احتاجتلك فيه، انسى إزاي إنك بتحاسبني على ماضي ما ليش ذنب فيه وحتى معرفوش. أنسى إزاي إنك عشت شهور بتحاول تنساني من غير ما تفكر دقيقة محاولاتك هتكسر فيا أنا إيه. كل حاجة انتهت، بابا كان صح، إحنا ماينفعش نتجوز.

فقال منفعلا:

-إنتي فاهمة غلط، أرجوكي اديني فرصة أفهمك يا سلمى.

فقاطعته بلهجة قاطعة لا تقبل الرد أو المجادلة، ونظرة حاسمة وطلبت منه أن يغادر وأن ينسى كل شيء، فلم تبق بينهما إلا صلة القرابة.

خرج سليم من العيادة وهو يشعر أنه فقد كل شيء، كل أمل، كل حلم. وأن المسافات بينه وبينها صارت بلدانًا وخلجانًا وبحارًا وأنهارًا. فكيف يعبر كل هذا ليقترب من قلب تستحيل الحياة بدونه.

وتساءل في طريق عودته إلى المنزل، ماذا يفعل؟ كيف ينقذ هواه من رائحة الموت التي تحوم حول القلوب المتعبة؟

ربما عنّف نفسه لأنه ابتعد عنها بدون أسباب، بدون تمهيد ولكن ماذا كان سيقول؟ ما أراد أن يشوه صورة والدها في عينيها، ما أراد أن ينكسر قلبها ويتمزق بحقائق موجعة. خاف عليها فابتعد بكل آلامه إلى أن يستجمع قوته وينهض سليم الذي تعرفه، الحبيب والسند كما اعتادت، يبدو أنه أخطأ في تقدير الأمر كله. ولكن أيكون هذا العقاب؟ لا يمكن أن تتناسى حبًّا واهتمامًا وعطاء سنوات لمجرد بضعة شهور ابتعد فيها خوفًا عليها. لا يمكن أن تحرمه من حبها لخطيئة واحدة أُرغم عليها، لا يمكن أن تحكم عليه بالموت وبين يديها كل الحياة.

عاد إلى البيت ورسم ابتسامة باهتة في وجه أخته حتى لا يصطدم بأسئلة كثيرة عن حاله وسبب ضيقه، هو لن يستطيع الإجابة عليها، حاول أن يبدو طبيعيًّا، واجتهد في ذلك كثيرًا وهرول مسرعًا إلى حجرته بعد أقل من نصف ساعة، قبل أن يسقط قناعه وتنكشف أحزانه.

ولما اختلى بنفسه قرر أن يكتب لها كل ما أراد أن يقول، كل ما هربت من سماعه، فكتب لها في رسالة طويلة:

حبيبتي سلمى

نعم حبيبتي إلى أن يتوقف نبضي ويمل القلب من هذا العالم القاسي، حبيبتي إلى أن تفارقني الروح، حبيبتي وروحي وقلبي وربما إن وصفت لن تكفيني رسائل ولا كلمات. أراكِ الآن تقرأين رسالتي وتهزين رأسك في استياء وتسخرين مني في

استعلاء، لمَ كل هذا؟ أتظنين أني أكذب عليكِ؟ وهل كذبت عليكِ يوما حبيبتي؟ أنتِ تصدقينني بقلبك، ولكن عقلك يريد أن يعاتبني، أن يعاقبني، لا بأس، أنا أرضى بكل هذا، أرضى بكل شيء إلا البُعد، فهذا ليس عقابًا بل قرار بموتي، هل أهون عليك حبيبتي؟ ألست حبيبك؟ لا تنكري، عينيك تقسم أني حبيبك، وقلبك يقسم أني حبيبك، حتى شفتيك تقسم بحبي الآن وإن أنكرت أمامي، أنا لست ابن عمك فقط ولن أكون كذلك، أنا سليم، أنا أنتِ، اكتبي اسمك واكتبي اسمي ستجمعنا نفس الحروف، ونفس الأيام ونفس الهوى، ما بيننا لا يموت حتى بموتنا، سيمتد عشق أرواحنا إلى العالم الآخر. أنا أنتِ وأنتِ أنا.

أرى دموعك الآن تؤلمك وتجرحك وتجرحني قبلك، أبدًا حبيبتي ما حاولت نسيانك وكيف أنسى سلمى؟ بل كنت أنسى الماضي اللعين وأشفي قلبي من جراحه، خفت أن ترى عيناكِ سليم لا تعرفينه، سليم ضعيف مرتبك مهتز، مزلزل الكيان، أتريدين أن أقول لك الحقيقة، لقد كنت منهارًا، ممزقًا، صرت أشتاتًا مشتتة بين سراديب ماض سحيق، ما تركتك قط ولكني كنت أبحث عني، أجمعني، وأعيد هيئتي وهيبتي وكرامتي ومبادئي، الأسرار القديمة ما أبقت لي على شيء، نسفتني نسفًا كأنها قنابل ذرية، كنت أبكي ظروفي وأقسو على نفسي وأحنو عليها لتصمد في حربها مع ماضٍ لا يرحم، كنت أفر من الأمس وعذابه وأحاول أن أجد طريق الحياة، بحثت عني كثيرًا ولملمت سليم قدر ما استطعت لأعرف من أنا. لقد ضاعت مني نفسي وما بقي في سليم إلا حب سلمى، ظل

هذا الحب أقوى من كل خراب نفسي، ظل يقاوم عذاب روحي التي كادت تتمنى الموت، وسألتني:

ماذا بقي لي في هذا العالم الكئيب؟ فلم أجد إلا أنتِ سر الحياة. كيف أنسى من أحيا لأجلها؟ حبيبتي أنتِ أنا، ليت كلماتي تكون أقوى من عنادك ومن أيام بعادك، ليتني أكون عبرت إلى شاطئ قلبك الحنون بعدما قاومت كل أمواج غضبك وألمك، عفوا حبيبتي فقلوبنا لا تحتمل أن نظلمها نحن أيضا، العمر أقصر بكثير من أن يذوب بين العناد والبعاد. أحبك حبًّا لا يموت ولا يخضع، سأظل عالقًا على باب قلبك إلى أن يصفح.

أرسل الرسالة وفي قلبه لهيب يعذبه وحنين لا يهدأ وعشق ثائر لا يقبل الهزيمة أو الانسحاب.

*****

تحقق أمل خالد وحلمه وأصبحت نجلاء تحمل في أحشائها ابنه وحلمه الذي ينتظره، إنها في الشهر الثاني من الحمل، فتبدل الكثير في شخصيته، وفي معاملته لها. وصار أكثر حنانًا وأكثر اهتمامًا وأكثر رقة، وكأن حبه للأطفال وحلم الأبوة بدَّل كل عيوبه إلى النقيض. إنه يخاف عليها من كل توتر، من كل مجهود، من كل ضيق، يهتم بها اهتمامًا مذهلًا، صار معها الزوج الذي كان في خيالها، تعلَّم كيف يهتم بها كما تريد. كيف يحادثها وكيف يغازلها وكيف يثني على ما تفعل مهما كان بسيطًا.

أصبح وقته في البيت لها وللحديث معها وعنها وعن ولي العهد، لا ينشغل عنها إلا بها وبابنه، كانت في حالة ذهول من كل هذه المشاعر الفياضة وكل هذا الاهتمام والشغف. وتساءلت أين كانت هذه الشخصية تختبئ؟ أكانت مختبئة في تقاليد ومفاهيم خاطئة بأن تدليل المرأة يُفقد الرجل هيبته أم كانت مختبئة في زحام مهام العمل؟

إنها تتعامل مع خالد آخر غير زوجها، زوج يمكن أن يترك عمله ويأتي مهرولا إليها إن ظن أنها متعبة، رغم أنها تؤكد له أن تعبها مجرد أعراض الحمل المعتادة ولا شيء يقلق، ولكنه يأتي ليطمئن عليها ويدللها بعضًا من الوقت.

شعرت بهذه التصرفات أنها أمام رجل جديد وزوج مثالي وحبيب يستحق كل قلبها ومشاعرها، زوج يملؤ قلبها وعقلها، ويستولي على مشاعرها، فلا يمر طيف غيره أمامها، وإن مر طيف حسين للحظة تلوم نفسها بشدة.

كلما اهتم بها كلما بهتت صورة حسين في ذاكرتها، كلما تلاشت حكايته من أيامها، كلما تعالت وتغلبت على أي اندفاع بلا عقل. ولكن مر في عقلها سؤال مهم:

هل سيعود خالد القديم البارد التقليدي الجاف بعد أن تنتهي فترة الحمل؟

هنا راودها قلق بالغ، هل يمكن أن تفقد كل هذا الحنان؟ تملّكُها خوف بالغ أن تفتقد يومًا هذه الشخصية التي تعشقها وتعود من جديد الشخصية الباردة التي هربت منها سابقًا إلى طريق كادت تضل فيه بلا رجعة.

دعت الله أن يُبقى لها خالد الحبيب الذي تحبه، دعت الله أن يظل في حياتها زوجٍ حاني محب، فهي لا تريد أكثر من هذا الحنان والاهتمام.

الفصل الثاني والعشرين

بدأت داليا حياة زوجية جديدة مع علي. بدأت عُمرًا مختلفًا، أيامه تمر بهدوء وسلاسة بلا خوف ولا قلق ولا تأزم. حياة جديدة مع رجل هادئ الطبع، صادق الوعد، رقيق القلب، أكثر ما يعجبها في على أنه يخاف عليها، يخاف على مشاعرها، يظللها باهتمام وافر وحنان مريح، تفاصيل يومه واضحة بالنسبة لها، ليست لديه أسرار، كأنه كتاب مفتوح تقرأ في سطوره، وكلما قرأت كلما أحبته أكثر وتعلقت به أكثر، وهو يدرك جيدا بقلبه وعقله معنى أن تحبه، ومعنى أن يحبها، الحب عند على ليس كلمات تردد باستسهال بل التزام بالسعادة والوفاء والإخلاص، التزام بالأمان، الأمان الذي افتقدته كثيرا في زواجها السابق وعلاقة أنهكتها وأرهقتها طويلا، وهي لا تريد أكثر من ذلك، أن تشعر بالأمان في بيته، أن تكون على يقين أن قلبه لا يتسع إلا لها، وحضنه لا يقبل غيرها، وعينيه لا تعشق سواها.. هذا هو الحب الذي سعت إليه وبحثت عنه.

وبدأت تزور طبيب نساء وتوليد للاطمئنان على قدرتها على الإنجاب وطمأنها الطبيب أنها بخير ولا يوجد أي عائق لتحقيق حلمها، إنها تريد طفلًا من علي، إنها تحب الأطفال لدرجة الجنون وتنتظر تلك اللحظة التي تصير فيها أمًّا. فهي تستحق هذا اللقب العظيم وزوجها سيكون أعظم أب كما هو أعظم زوج.

عادت إلى البيت وهي مطمئنة وأخبرت زوجها بما أخبرها به الطبيب، ولكنه كان في حالة من الوجوم والهدوء والسكون الحزين، فقلقت عليه، وظلت تلح باستماتة إلى أن أخبرها أنه ذهب إلى

الطبيب لنفس السبب، والتحاليل أثبتت أنه يحتاج إلى علاج قد يطول وقد ينجح وقد يفشل، تحدث بصوت مهزوم حزين لدرجة قبضت قلبها، نبرة صوته أخافتها من المستقبل وخافت عليه من الحزن الطاغي في عينيه فاحتضنته وقالت بهدوء يبعث الراحة:

-إن شاء الله خير.

لكنه نظر إليها بحزن وسألها بصراحة إن كانت تريد أن تخوض معه تلك التجربة الصعبة أم تريد الانفصال، خيّرها وكأنه فاقد الأمل، فعاتبته بحب لماذا هذا اليأس؟ وتساءلت هل الطبيب أخبره أنه لا يوجد أمل بالمرة أم أن هناك مشكلة تحتاج علاجًا، فأكد لها أن الطبيب متفائل ويرى أن الأمر يحتاج علاجًا وسيتحسن كل شيء، صرح لها

علي بمخاوفه أن تطول مدة العلاج وهو يدرك أنها تريد طفلًا وتشتاق إلى الأمومة، ولا يريد أن يعذبها بمشكلته.

فابتسمت بهدوء وأخبرته أنها تريد طفلًا منه، طفلًا يشبهه في ملامحه وحنانه وطيبته، تريد أن تكون معه إلى آخر العمر. تنهد وصمت، وهي ما زالت تحيطه بنظرات حانية رقيقة لتخفف قلقه وتعيد إليه ثقته بنفسه.

ثم قالت بكل ثقة:

-معا إلى آخر العمر.

فهي تثق أن الله الذي وهب لها حب علي لترتاح بعد المعاناة سيكمل سعادتها حتما بطفل يحمل اسمه.. الله الكريم سيمنحها أكثر مما تتمنى، هكذا يقينها في رحمة الله وكرمه أقوى من أي مواقف صعبة تمر عليها ومن أي ابتلاء. ماذا يكون الابتلاء إلا اختبار من الله لثقتنا به وصبرنا على ما قدره لنا؟ فتركت الأمر كله لله وقررت أن تسعد بزوجها وحياتها قدر ما تستطيع، ويوما ما سيحقق الله الأمل، فقط عليها الصبر واليقين في كرم الله ورحمته. ولا أكثر من ذلك.

*****

جاء يوما في موعد الغداء فوجدها تجلس في سكون وهدوء. سارحة في أمر ما، اندهش محمود من جلستها وهي التي لا تطيق البقاء في المنزل واستغرب سكونها وهي التي تطير كالفراشة، تبدو حزينة، قلقة، غير راضية، فسألها باهتمام عن

حالها وإن كان هناك شيء ما يضايقها فأخبرته بصوت خافت ووجه مستاء وملامح عابسة أنها ذهبت إلى الطبيب وأخبرها أنها حامل، فاتسعت ابتسامته ولمعت عيناه ورقصت السعادة على ملامحه، وبارك لها على هذا الخبر السعيد وهنأ نفسه على هذه اللحظة التي كان يؤجلها كثيرًا، ولكن اليوم هو سعيد سعادة بالغة بهذا الخبر ومستعد تمامًا لهذه التجربة، مستعد ويرغب أن يكون أبًا.

فنظرت إليه بسخط وقالت إنها كانت تريد ألا يحدث ذلك الآن، لا تريد أطفالًا تقيدها وتحجم خروجها وتلزمها بالبقاء في المنزل، إن الأمومة معاناة وهي تريد أن تسعد بشبابها قبل هذه الخطوة، فنظر لها باندهاش واستغراب وسألها أليست الأمومة حلم كل امرأة فكيف لا يكون حلمها؟ فردت بانفعال إنها مثل كل امرأة تريد الأمومة وتحب الأطفال، ولكن كانت تريد أن تقضي عامين أو ثلاثة أعوام حرة من مهام الأمومة الثقيلة.

احتدت بينهما المناقشات إلى أن مل محمود النقاش وخرج غاضبًا، انقلبت سعادته إلى ضيق وحزن بعدما وجد نفسه أمام زوجة مدللة تحب نفسها أكثر من أي شيء، قاده حنينه إلى شقة حبه الأول وأيام زواجه الأول، وانتابه شعور بالهدوء والسكينة، هذا المكان بات عالمًا خاصًّا يفر إليه من واقعه الصعب إلى ماضٍ جميل. وتذكر فيها داليا، وتجسدت أمامه ترجوه أن يتركها تنجب طفلًا، وهو يجادل باستماتة وبكل استهانة بأمومتها، ويرفض أن يكون هناك أطفال

بينهما قبل خمس سنوات من الزواج، كان يتحدث بنفس حديث نورهان، واليوم تبدلت الأدوار وشعر بنفس وجع وقهر داليا. ويا له من وجع ويا له من قهر!

وقاده خياله لسؤال مهم ماذا لو كان بينه وبين داليا أطفال؟ هل كانت ستصر على الطلاق بكل هذا العناد؟

وشعر أنه ذبح نفسه بيده، لو كان بينهما أطفال كانت حاولت إصلاح ما بينهما، كان صبرت عليه وعلى نزواته، كانت منحته وقتًا كافيًا حتى يهدأ فوران شبابه وينضج ويهب كل حياته لزوجته وأسرته. ولكن ما حرمها منه جعلها أكثر جرأة وشجاعة وإصرارًا في اتخاذ قرار الانفصال. ويا له من قرار!!.

تذكرها بكل حنانها ورقتها وبراءتها وعطائها وإخلاصها، تذكرها وكأنه يقتبس من الجنة نورا بعيدا يطل على ظلام أيامه البائسة، تذكرها ويا لها من ذكريات يدفع فيها عمرًا بأكمله لتعود من جديد، ولكن داليا ضاعت منه للأبد.

إنها الآن زوجة لرجل آخر. وتساءل في حزن هل هي سعيدة الآن مع علي؟ هل تحبه كما أحبته يوما؟ هل منحها علي الأمان والسعادة التي افتقدتها معه؟ هل تذكره؟ هل تحن إليه أم أنها تلعنه وتلعن أيام عذابه؟

تساءل أسئلة كثيرة تشق قلبه كسكين حادة لا ترحم، فبكى من ألمه وحزنه وتلك الجراح القاسية التي تعذبه، بكى بحرقة وما كان يعلم يوما أنه سيبكي شوقًا

إليها وحزنا على حرمانه منها، بكى ولم يكن يدرك يوما كم سيشقيه فراق داليا. لكننا لا نعلم قيمة ما نملك إلا بعدما يضيع بلا رجعة.

*****

مرت أيام صعبة على سلمى بعد أن قرأت اعتذاره، وصراع بين حبها وكرامتها يحتدم. إنه أهانها ببعد بلا معنى، وعذبها ببعد بلا ذنب، إن كرامتها تأبى أن تسامح وقلبها يأبى أن يغفر، كلما قرأت اعتذاره ابتسمت وفاضت دموعها ودق قلبها بشوق يفوق احتمالها، وتمنت لو ارتمت في حضنه واختبأت بين ذراعيه من العالم كله طوال العمر، ولكن هناك شيئًا في العلاقة بينهما انكسر، هذه المشاعر الرقيقة الراقية حينما تجرح تُبقي جراحها صعبة عنيدة عصية على الالتئام وحتى لو التأمت يظل لها أثر بارز يذكرنا بجرح مضى.

إن ما بينهما الآن يفتقد أهم ما يحافظ عليه، بنيان هواهما يفتقد أهم ركائزه، يفتقد الثقة، كيف تثق في رجل ابتعد وحمّلها ذنب غيرها ثم عاد يعتذر ويرمي ذنبه وظلمه على الظروف والأيام؟ وماذا لو ظهر جزء آخر من الماضي بعد الزواج، هل سيتركها ويبتعد؟ وماذا لو بينهما أطفال هل سيهرب بنفسه ويتركها تواجه الحياة هي وأطفالها؟ لقد فقدت الثقة في وعوده واليقين في وجوده إلى جوارها دائما، وسألت نفسها هل حبها له يغفر أيام تخليه عنها؟ سألت قلبها فوجدت الصراع يشتعل أكثر وأكثر، وكأنها تنقسم إلى شخصيات عدة تتشاجر بغباء، فحاولت أن تهدأ، أن تتعقل، بل طالبت قلبها وعقلها وكرامتها وحنينها

بالصمت، على كل أفكارها ومشاعرها أن تصمت، أن تتركها تتنفس بهدوء وانتظام، تلك المعارك النفسية مجهدة لدرجة قد تقودها إلى الجنون، وبعد قليل من الوقت سألت نفسها أيهما أهم الحب أم الأمان؟ سؤال صعب يحتاج تفكيرًا جادًّا، ولكن قلبها يجيبها بدون تعب "الأمان في الحب"، فيرد عقلها بفكر رشيد متدبر أن "سليم يحبها لكن حبه لم يمنحها الأمان" ولكن قلبها أبدا لن يصمت، ذكّرها بكل ما قدم لها سليم في سنوات طويلة من حب واحتواء واهتمام، ولكن عقلها ما زال منتبهًا، قادرًا على المجادلة والمناقشة، فنبهها عقلها أن سليم فشل في أول اختبار حقيقي لحبهما، ووقفت بين عقلها وقلبها تائهة خائفة ضائعة، وظلت المناقشات تحتد وتحتدم، ثم طرأ على عقلها العنيد المنتبه فكر غريب وذكرى مهمة، ذكّرها عقلها بحب محمود وداليا، الحب وحده لم يكف؛ لأن داليا لم تشعر بالأمان مع محمود، وحذرها عقلها أن تسير في طريق الحب مع سليم فتنتهي إلى ما انتهت إليه علاقة محمود وداليا، ظلت المشاعر والأفكار في مباراة مشتعلة أيامًا وليالي طويلة، إلى أن استقرت أن الحب وحده لا يكفي، وأنها إن خُيرت بين الحب والأمان ستختار الأمان، والحب الذي لا يمنحها الأمان هو حب منقوص.

كان سليم يومًا أمانها وحبها وكل عالمها، ولكن اليوم هو الحب الضعيف الذي لا يستطيع مواجهة العواصف والأزمات.

اقتنعت بأن سر الماضي سيظل طوال العمر حاجزًا منيعًا بينهما. فلا داعي لمزيد من الجراح والآلام. فكتبت له:

أحبك بعدد أيام عمري طالت أو قصرت، ولكن هناك جرحًا ينزف لن يلتئم أبدًا، لم أجدك في وقت الضيق وقسوة الظروف، ولم أجد قلبك بينما قلبي يحتضر من الألم والخوف، لم أعد أحتاج الحب، يبدو أنه رفاهية ليست من حقي، فقط أحتاج الأمان والاستقرار، عذرًا الحب وحده لا يكفي.

*****

على مدى الشهور الأخيرة كان هناك تواصل هاتفي ولقاءات على فترات بين زياد وزينة.

كان إلى جوارها في فترة وفاة عمها واضطراب سليم وغموضه، هوّن عليها كل ما يدور حولها، رمت كل أحمالها عليه، فانتصب ظهرها وارتاح قلبها وشعرت بأن هناك قلبًا يمكن أن يفعل أي شيء لأجلها. وبدأ يدق قلبها بدقة مختلفة لم تمر عليها من قبل، إنه حب من نوعٍ خاص، إنها تذوب أمام نظراته وتصبح حروفًا وكلمات على شفتيه. إنها تغرق في أفكاره وهدوئه وكلامه وتصبح تفكر كما يفكر، يا له من شعور جديد، لقد كانت تحب كمال، إنها تثق أنها أحبت كمال، ولكن ربما كان حبًّا وقورًا، ربما حب ناضج، لا تعرف ما هو المسمى،

ولكن إحساسها بزياد غير إحساسها بكمال تماما. كانت تنبهر بشخصية كمال، وعقليته الناضجة ونظرته الواعية لكل أمور الحياة، كانت تحب حبه لها وتدليله لها، أيام علاقتها بكمال كانت تتمنى لو تكبر وتقفز فوق عمرها عمرًا لتصبح في نفس نضجه وتفكيره.

لكن مع زياد هي تعيش معه بإحساسها وعلى طبيعتها، تحب نفسها وعمرها، وترى شبابها وشبابه تاجًا ذهبيًّا يتوج أيامهما ويمنحهما نظرة متفائلة للمستقبل وأحلامه الكثيرة القادمة، إنها تتكلم بعفويتها وبساطتها مع زياد دون أن تخشى أبدًا أن يتهمها بالصبيانية والتفاهة في التفكير، لقد وجدت في زياد الشخص الطيب الرقيق العاشق البسيط المرح.. هو شخصية تلقائية عفوية، لا تحسب معه للأيام حسابًا، تسعد وتعيش السعادة بكلمة، بهمسة، بجلسة هادئة في مكان جميل. في سير على الأقدام والنيل شاهد على حكاياتهما.

إنها تحبه، اعترفت لنفسها، واعترفت له بأنها تحبه وتقبل به زوجًا. ولم يبق أمام زياد إلا أن يتفق مع سليم على موعد الزواج، ولكنه كان يعلم أن سليم سيؤجل هذا إلى ما بعد مرور عام على وفاة عمه عبد العزيز احترامًا لمشاعر العائلة. ففكر أن يقترح على سليم قراءة فاتحة فقط والاستعداد للزواج فيما تبقى من وقت قليل من أول عام بعد وفاة العم.

وبالفعل رحب سليم بهذا الاقتراح، وطلب منه أن ينتظر رأي ماما بثينة، وفرحت الأم بثينة بذلك حينما أخبرها سليم في إحدى زياراته لبيت العائلة. وتمنت له ولأخته التوفيق، فعاد سليم يذكرها بحلم عمره الذي تعرفه جيدا، الزواج من سلمى، طلب سليم من الأم بثينة أن تساعده في إقناع سلمى بالزواج منه، فسألته الأم عن سبب تغير موقف سلمى منه وألحت في سؤالها وأصرت على أن لا بد من سبب، فتهرّب سليم وأكد لها أن سلمى كل حياته وسيفعل من أجلها كل شيء، فقط تمنحه الفرصة كي يحيا من أجلها.

*****

الفصل الثالث والعشرون

جلست سلمى في حجرتها تفكر في حياتها بدونه، كيف ستكون؟ وكيف ستمر الأيام والليالي؟ تعلمت كيف لا ترد على مكالماته وكيف تتجاهل رسائله وكيف تتهرب من مقابلته إن جاءهم زائرًا، ولكن لا تعلم كيف تتهرب من قلبها الذي يذكرها به بعدد دقاته. آه من الذكريات والهوى. وتساءلت في ألم بالغ:

أين يباع النسيان؟ أين يُشترى الهدوء وراحة البال والقلب؟ أين طريق الخلاص من المشاعر والحب؟

البُعد لم ينسها، العمل لم يُنسها، كل ما تفعله مجرد مسكنات تريحها بعض الوقت، لكن ما زالت العلة كما هي. لقد أخبرتها والدتها أن سليم تقدم لخطبتها من جديد، ولكن سلمى أبلغت أمها أنها لن تخالف قرار والدها. قالت سلمى ما لديها ولم تستمع إلى نصائح والدتها التي تصر على أن تختار زوجها بعيدا عن رأي أي حد، الزواج حياة كاملة، ربما أخطأ والدها وكلنا نصيب ونخطئ وربما لو كان حيًّا الآن كان تراجع عن قراره ووافق، خاصة أنه لم يقدم أسبابًا لهذا الرفض.

ولكن سلمى ما زالت وراء ستار خوف قاتم يمنعها أن تقترب من سليم ويحذرها أن تستأمنه على عمرها فلا يصون، ما زال الماضي قائمًا بينهما أقوى منه ومنها،

تناست سلمى كلام الجميع وعاشت تعافر ضد مشاعرها العنيدة، إلى أن كان يوم جاءهم أخيها محمود في زيارة مسائية كما اعتاد.

جلست مع والدتها وأخيها وعقلها شارد، فقال لها محمود:

-أنا جاي عشانك.

-أنا؟

-فاكرة الطيار اللي اتقدملك قبل كده، كلمني تاني امبارح، أنا عارف إنك مش موافقة بس قلت أسألك قبل ما أرد عليه.

-سيبني أفكر

فنظر لها أخيها باندهاش وهز رأسه في استغراب، أما والدتها قالت بانفعال:

-تفكري في إيه، إنتي بتحبي سليم، وهو طلبك مني وأنا قولتك.

فنظرت إلى والدتها في تحد:

-بابا كان رافض جوازي من سليم، وخلاص سليم أخويا وابن عمي وبس.

فنظرت لها والدتها نظرة غاضبة وقالت:

-إنتي بتكدبي عليا ولا على نفسك، أنا عايزه أفهم إيه اللي حصل بينكم، لا إنتي ولا سليم بتقولوا حاجة وأبوكي مات من غير ما يفهمني حاجة؟

قامت الأم منفعلة ودخلت غرفتها وأغلقت بابها.

وجلست سلمى تعض على شفتيها وتهز ساقيها ودموعها تلمع في عينيها، فشعر محمود بأنها تتعذب فسألها في حنان:

-قوليلي يا سلمى كل اللي جواكي، ماما بتتكلم صح، إيه اللي حصل من سليم خلاكي تتغيري من ناحيته، وأنا عارف كويس سليم إيه بالنسبالك.

فارتمت في حضنه وبكت بحرقة وقالت لأخيها:

-أنا مش هكسر كلمة بابا أبدا سواء كان حي أو ميت.

فصمت محمود قليلا وهو يحضنها بحنان ويقبل رأسها في عطف بالغ، ثم طلب منها ألا تتسرع في اتخاذ أي قرار؛ لأن الزواج مسئولية والتزام، وإن كانت لا تريد الزواج من سليم فعليها أن تنتظر ولا تدخل في علاقة جديدة قبل أن تطوي بداخلها كل ما سبق، طلب منها أن تتأكد جيدا من مشاعرها قبل أي قرار حتى لا تندم بعد ذلك، بعدما يضيع منها الحب للأبد.

قال كلماته الأخيرة بصوت مذبوح وعيون تفضح حنينه إلى الماضي، فمسحت سلمى دموعها ونظرت في عيونه، وأدركت أنه في هذه اللحظة يتحدث عن نفسه، عن حبه الذي ضاع منه للأبد.

وسألت نفسها في حزن:

هل أمامي فرصة للاختيار؟ إن الخوف يقيدني، يقيد أفكاري، يقيد مشاعري، يقيد أنفاسي، فيبدو كل شيء في عيني عسير، مجهول المصير.

*****

جاءته مكالمة هاتفية من أمه بثينة تبلغه أن سلمى وافقت على الزواج من ذاك الطيار، فطار عقله، كيف لها أن تفكر في الارتباط بغيره؟ كيف طاوعها قلبها وكيف أطاعها؟.

ترك كل شيء وهرع إلى بيت العائلة لينقذ حبه من الضياع.

استقبلته أمه بترحيبها المعتاد وفي عينيها رجاء أن يفعل شيئا وألا يغادر قبل أن تفيق سلمى وتعود إلى رشدها.

تركت بثينة سليم وسلمى يتحدثان سويا عن حبهما ومستقبلهما.

تحدث سليم بانفعال ولهفة وحزن، وكل ملامحه تنطق بكل مشاعره من صدمة وارتباك وحزن واضطراب. اعتذر عن غيابه وربما غبائه في التعامل مع أهم صدمة مر بها وهي تستمع في صمت، فقط عينيها تحاصره بنظرات قاسية لا تغفر ولا تسامح. ظل سليم يذكرها بكل يوم أحاطها فيه باهتمام ورعاية وحب ظل يحمله في القلب عمرًا كاملًا، ولما أعلنه انهالت عليه سهام الأقدار. فقالت في أسى:

-أنا عارفة إنك بتحبني، لكن الأمان أهم من الحب، وأنا مش هحس معاك بالأمان يا سليم. فيه بيني وبينك سور عالي، لا نقدر نهده ولا نعديه.

فصمت ثواني وهو يشعر أن كل حديثه وكل ما قاله لم يُسمع، ثم قال:

-ليه مُصرَّة تعذبينا العمر كله؟ اللي بيحب بيسامح ويعذر.

فقالت وهي تبكي بشدة:

-وأنا مش قادرة، حاولت ومش قادرة.

وساد الصمت دقائق، ثم قال سليم:

-لو مش قادرة تسامحيني، على الأقل سامحي نفسك وبلاش تظلميها بجواز من شخص مفيش بينك وبينه أي مشاعر، انتظري لما تنسيني لو عايزة تنسيني.

-الحب يتنسى بحب جديد، أنا لازم أبدأ تجربة جديدة وحياة جديدة وإلا هموت من الوجع.

استعصى عليه تحمُّل مزيد من كلامها، فهي أصبحت مستعدة أن تلقى بنفسها في الجحيم هربًا من حبه، فرمقها بنظرة تعج بمشاعر الحب والحزن والأسى واللوم ثم هز رأسه وقال في استسلام:

-أنا أتمنالك إنك تعيشي مليون سنة سعيدة ولو في سعادتك موتي يا سلمى، ابعدي أد ما تقدري، وانسيني بألف حب جديد بس أنا عمري ما حاولت أنساكي. ولا هحاول، لأني بحبك حب كبير ميتنسيش.

غادر وهو مذهول من قسوتها وقوتها في تحدي مشاعرها وحبها. غادر وهو يسأل نفسه

كيف يسطو الماضي على الحاضر فيدمره بلا رحمة؟ وكيف يتملك العناد والخوف من القلوب فيقودها إلى أن تقتل نفسها بلا وعي؟

عاد إلى البيت وهو في حالة من الحزن لم تمر عليه من قبل، فسألته أخته باهتمام عن حاله فقال لها:

-سلمى هتتخطب لطيار، باركيلها.

فذُهلت زينة وانهالت عليه بالأسئلة لعلها تفهم شيئًا، ولكنه هز رأسه وقال:

-خلاص كل حاجة راحت.

دخل غرفته يختلي بنفسه وبأحزانه واستلقى على فراشه وهو يشعر أنه أصبح كومة من الهموم والأحزان، استلقى وهو مستسلم ليأسه وقدره، وأغمض عينيه على صورتها وهي تبكي، ومشاعره نحوها تموج بين الغضب والإشفاق.

بقي ساعات على حاله بلا حراك مفتقدًا كل قدرته على مقاومة كل شيء، مستسلما لكل شيء.

أما زينة فقد هرولت إلى بيت العائلة، ودخلت على سلمى غرفتها وهي منفعلة وظلت تصرخ في وجهها وتلومها بقسوة وتسألها لماذا تقسو على سليم؟ لماذا تخونه؟ كيف تبيع الحب فجأة بلا سبب؟

فقفزت سلمى من فراشها وارتمت في حضن زينة وانهمرت في بكاء هستيري وقالت في ضعف شديد:

-أنا عايزة أموت، أنا عايزه أروح لبابا. أنا تعبانة أوي.

فاندهشت زينة من دموعها وانهيارها وكلماتها فأشفقت عليها واحتضنتها بقوة، وابتلعت كل ثورتها التي جاءت بها، وقالت في حنان:

-أنا مش فاهمة حاجة، إنتي منهارة هنا وسليم منهار هناك، طب لما إنتي بتحبي سليم هتتجوزي غيره ليه؟

فقالت سلمى:

-عشان مبقاش في حل تاني، متقوليش مش فاهمة، عشان أنا مش هقول غير اللي سمعتيه.

وظلت زينة تسأل وتسأل، تثور وتهدأ وتموج وتسكن وسلمى ترد بدموعها وكلمات مقتضبة لا تفسر شيئا، إلى أن ملّت زينة وشعرت أنها تتحدث بلا جدوى، فأقسمت أنها لن تسامحها أبدًا على هذا الظلم لسليم ولن تحضر لها

خطبة أو زفافًا. وغادرت غاضبة ساخطة لا تصدق أن سلمى تقبل أن تكون زوجة لرجل غير سليم.

*****

ما زالت رحلة علاج علي لم تحقق الحلم المرجو، لكن في كل زيارة للطبيب المختص يؤكد له أن هناك تحسنًا في الحالة. بدأ علي يقلق ويبدو قلقه في تصرفاته، خاصة مع زوجته داليا. انفعال بلا مبرر وعصبية لم تعتد عليها، ولكن الغريب أنها كانت تستقبل كل هذا الانفعال بهدوء مفرط وابتسامة راضية. كانت تعلم جيدا أن وراء كل هذا الصياح والانفعال خوفًا أن يظلمها إن لم يتحقق حلم الإنجاب وخوفًا على قلبه أن يفقدها إن اختارت الأطفال دون قلبه وحبه الكبير.

كانت تقرأ في عينيه كلامًا كثيرًا لا ينطق به، ولكنه كان واضحًا كأنه مسطور في صفحات كتاب بديع الطباعة. هو يحبها لدرجة يستحيل معها أن يستوعب بُعدها عنه، ولو كان لعذر قهري وحلم لا تتخلى عنه أي امرأة، هو يحبها ويؤلمه إلا يسعدها. ما انفعاله إلا آهات ألمه المكتوم، ما انفعاله إلا من فرط الهموم.

لهذا كانت تغفر وتصفح وتدلل حبيبها على قدر حبه لها وخوفه عليها.

أحيانا كانت تسأل نفسها ماذا لو لم يُشفَ؟ ماذا لو كان علي عقيمًا؟ ألف ماذا لو، ولكنها لا تملك إلا إجابة واحدة إنها على يقين أن الله سيمنحها طفلًا ويمنُّ عليها وعلى زوجها يومًا ما. حتى لو تأخر ذاك اليوم فهي لا تفقد اليقين إنه قادم لا محالة. وهل هناك محال على خالق الكون؟ الله أمره كن فيكون. يوما ما ستكون أمًّا وسيكون علي أبًا.

وفي ذات الوقت كان علي يتبع تعليمات الأطباء اتباعًا حرفيًّا، فهو يحلم مثل زوجته نفس الحلم ويتمسك بأبوته كما تتمسك داليا بأمومتها. ولكن في بعض اللحظات يشعر أن الأمل بعيد والطريق طويل، وقد ينتهي العمر قبل أن يصل لحلمه، ولكن كيف يحيا بلا أمل بلا حلم. كيف لا يتمسك بأي بارقة أمل في نفق أيامه المظلم. هو لديه صبر طويل ولكن كل ما يخافه إلا تصبر حبيبته، وكان يسأل نفسه كثيرًا ماذا لو ملت الصبر وسئمت من شفائه؟ ماذا لو اختارت أن تبحث عن سعادتها وأمومتها مع زوج آخر وحياة أخرى؟ هذا ما يقبض صدره ويشوه صورة آماله ويذبح روحه ببطء.

لقد تعلق بها لدرجة يعجز عن وصفها، ربما إحساسه بها تخطى مرحلة الحب، إنه لا يحبها فقط، بل تعلق بها تعلق طفل صغير لا يتخيل حياته بدون أمه. هي عالمه بالكامل. قد يفوق التعلق الحب، ربما هو درجة أعلى من الحب ذاته. أن تتعلق حياتك وروحك ودقات قلبك بشخص لدرجة تفقدك القدرة على تحمل

فراقه هذا شيء رائع ومرعب في نفس اللحظة، لأن بُعد حبيبك عنك قد يعني فقدان شغفك ورغبتك في الحياة بأكملها، يعني موتك.

إنه لا يخاف العجز على الإنجاب قدر خوفه من أن تضيع منه داليا، حتى الأبوة يسعى إليها من أجلها ومن أجل إسعادها، وربما يخطر في باله أحيانا كيف أحبها إلى هذا الحد؟ كيف في وقت قصير صارت هي كل البشر وكل الأرض وظل السماء، صارت كل شيء ولا يعوضها شيء ولا ينسيه حبها شيء.

وذاب كثيرا بين أفكار متشائمة يتصور حياته بعد أن تغرب شمسها لو اختارت داليا حياة أخرى، ويتخيل نفسه وهو يجوب بين ظلمات أيامه بعدها بلا هدف ولا حلم ولا حب ينير الطريق. يا لها من حياة فقيرة!! وأحيانا تغلبه دموعه وتنتصر أحزانه ويهمس في أذنه اليأس بصوت كالرعد (الموت أفضل). ولا يأخذه من كل هذا التشاؤم والإحباط إلا ابتسامتها الناعمة التي تبعث فيه الحياة بكل معانيها. ابتسامة راضية متفائلة مليئة بالحب وربما يقرأ في عينيها كل ما يتمنى من وعود الحب والوفاء، ولكنه لا يستطيع التغلب على مخاوفه من المستقبل. وتظل أيامه تتأرجح بين الرجاء واليأس والتفاؤل والتشاؤم في انتظار لطف الله ورحمته.

*****

وحدث ما لم يكن تتوقعه نجلاء. فقدت جنينها إذ فاجأها نزيف حاد، وتمكن الأطباء من إنقاذ حياتها، ثم طالبوها هي وزوجها بألا يحزنا، وحاول الأطباء بث

الأمل فيهما بقولهم إن أمامهما العمر كله لتعويض الجنين المفقود. كلمات رقيقة وطيبة قالها الأطباء لمعاونتهما على تخطي تلك الأزمة.

وبعدما تعافت نجلاء وجدت زوجها يعود بسرعة إلى خالد الأول، نفس الشخص الذي يهملها وينغمس في عمله كل وقته. نسيها كما كان ينساها سابقا مما جعلها تنقلب في مشاعرها نحوه، وبدأ عقلها يحدثها بأحاديث مزعجة، إن خالد لا يحب إلا نفسه، وما كان يعتني بها من أجلها بل من أجل جنينها، وتساءلت في حزن ماذا أكون له؟ فقالت لنفسها في أسى:

امرأة تحمل وتلد.. إنه لا يحب ولا يؤمن بالحب، يفكر كالحاسوب، حتى مشاعره يدخرها في حساب بنكي ويقترض منها عند الحاجة. يا له من رجل، يا له من زوج.

وبدأ إهماله لها يسمح لذكريات تناستها أن تستيقظ من جديد، وتخيلت لو كان حسين في حياتها الآن لا بد إنه كان سينسى كل شيء ويسعد لنجاتها من الموت. هذا هو الحب الذي تبحث عنه ولم تجده في زوجها.. هو لا يدرك أن الجنين المفقود قطعة من قلبها وروحها، وإن كان هناك من حزن وخسر فهي الخاسر الأكبر. كان عليه أن يحيطها بعناية واهتمام وحنان لتتخطى أزمتها وخسارتها، ولكنه زوج لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، رجل بلا مشاعر.

بعدما تيقنت أن خالد لن يتغير ولن يكون يومًا هو الزوج الذي تتمناه، بدأ عقلها يفكر في حل لهذه المأساة. هل ستبقى عمرها كله مع رجل كالحاسوب؟ لماذا ترضى بهذا العذاب؟

ووقفت أمام مرآتها تتأمل جمالها ورشاقتها وتساءلت في أسى بالغ ماذا ينقصني كامرأة كي أنعم بالحب والاهتمام؟

فلم يكن لديها إلا رد واحد، قالته لنفسها بوضوح:

-العيب عيب خالد. لقد اخترت الزوج الخطأ وما دام هذا الرجل زوجي لن أسعد أبدًا.

وبدأ قلبها يبكي قبل عينيها:

وعقلها يحدثها أن تتحرر من زواجها التعيس وزوجها البارد، وتبحث عن سعادتها وتنطلق في أيامها بكل شبابها وجمالها.

فكرت أن تراسل أخيها وتشكو له حالها وما أصابها من ألم مع هذا الزوج، ولكن هل سيتفهم أخوها مشاعرها وحرمانها؟ صمتت بعض الوقت ثم استقرت أن أخيها لن يتفهَّم أبدًا حرمانها العاطفي، قد يستوعب حرمانها المادي، قد يأتي خصيصًا من الخارج ليبوِّخ زوجها إن كان لا ينفق عليها ماديًّا ويلبي كل احتياجاتها، قد يطلب منه بحزم أن يطلقها، ولكن هي لا تشكو هذا الحرمان

المادي، هي تشكو من حرمان قلبها من الحب والحنان، هل سيتفهم أخوها ذلك؟

فكرت بعض الوقت ووصلت إلى إجابة واحدة. أخوها لن يوافق على طلاقها ولن يدعم موقفها، بل سيوبخها بعنف ويجبرها على أن تواصل عذابها في صمت. إن فارس لا يفرق كثيرا عن زوجها، إنه لا يعطي لمشاعره فرصة أن تتنفس، يلهث خلف المال ويسافر لآخر الدنيا بحثًا عنه.

إنه حتى الآن لم يحب وربما لن يحب، سينتهي به الحال إلى اختيار زوجة بنفس عقليته تشاركه مشواره في البحث عن الثراء. إنه أيضًا يعمل كالحاسوب مثل زوجها فكيف تستنجد به؟

وبات السؤال المرهق ماذا تفعل وكيف تتصرف وكيف تتحرر من زواج لا يسعدها؟ أجابت نفسها (ليس هناك إلا حل وحيد، الطلاق، سأسعى إليه وحدي بكل قوتي إلى أن أنتزع حريتي وأحيا كما أريد. لن أبقى زوجة رجل وأبحث عن الحب مع رجل آخر، أنا لست تلك المرأة اللعوب الساقطة، سوف أقرر مصيري).

*****

الفصل الرابع والعشرون

تألقت في فستان أنيق أسود طويل محلى بخيوط ذهبية على الصدر محتشم وقور لدرجة كبيرة، وانساب شعرها الذهبي على ظهرها في بساطة، وتعمدت أن تكون ألوان زينتها هادئة، وعلقت ابتسامة باهتة مصطنعة على شفتيها، وجلست سلمى إلى جوار خطيبها طارق شكري في سكون، وحولها والدتها وأخوها وزوجته وصديقتها نجلاء وأسرة طارق.

كان عدد الحضور قليلًا كما طلبت أسرة سلمى أن يتم الأمر بشكل عائلي، وأن يكون الاحتفال الكبير في ليلة الزفاف فقط، وتمت قراءة الفاتحة، وانهالت القبلات على سلمى من صديقتها ووالدة طارق وزوجة أخيها، أما والدتها فقد اكتفت بابتسامة باهتة مثل ابتسامة ابنتها، وما زالت سلمى تتجاوب مع الحضور بابتسامة باهتة مذهولة لا تصدق أنها تبدأ حياة جديدة والتزام وفاء نحو شخص لا تعرفه ولا تريده، وقدّم طارق الشبكة وأمسك يدها ليضع خاتم الخطبة وهو في سعادة بالغة وفرحة غامرة، بينما لمسته تسري في جسدها كنار حارقة، تكاد تنفر من لمسته أمام الجميع، ولكنها تراجعت وتمالكت نفسها، وتركته يضع خاتم عذابها في استسلام، فهي من اختارت وقررت أن تخوض تلك التجربة، وألبسته خاتمه في هدوء وفتور كأنها تؤدي واجبًا ثقيلًا ولكن لا بد أن تتمه.

وتمر الدقائق ثقيلة وطارق يهمس في أذنها ويقول إنها أجمل من رأت عينيه، وإن الأسود الذي أصرت عليه حبًّا في والدها ما زادها إلا جمالًا وأناقة، أثنى على جمالها بكلمات رقيقة وهي تبتسم ابتسامة باهتة وتهز رأسها ولا ترد، بينما والدة طارق ترمقها بنظرات فاحصة متعجبة، بعين أم التقطت أن خطيبة ابنها لا تبدو سعيدة كأي عروس، بل لمحت في عينيها الحزن العميق، فقالت ذلك لزوجها بصوت هامس فرد عليها بنفس الهمس (العروس لا بد أنها تذكرت والدها في تلك اللحظات).

ووالدة سلمى تراقب وتدرك كل مشاعر ابنتها، ولكنها لا تملك لها إلا الدعاء بالتوفيق. ومحمود يحمل في صدره كثيرًا من الندم إنه وافقها على هذه الخطبة، وتساءل في أسى:

لماذا تفعل سلمى ذلك بنفسها؟

لا يملك إجابة ولا يملك حلًّا لمشكلتها، كما لا يملك حلًّا لمشكلته مع زوجة لا تسعده ولا تحبه. وتساءل في أسى هل كُتب على أولاد عبد العزيز التعاسة أم نحن من نسعى إليها بغباء ثم نبكي من ألمها؟

إنه لا يفهم شيئًا أبدًا. لا يدرك لماذا فرّط في داليا حب عمره ولا يعرف لماذا تضحي سلمى بحبها الكبير لسليم؟

وما زالت سلمى تجلس في شرودها وذهولها ولا تملك إلا ابتسامات باردة توزعها على الجميع، وتتمنى أن ينفض هذا المجلس ويرحل الجميع لتختلي بنفسها المتعبة.

ومضى الوقت وانصرف طارق مع أسرته وودعها على وعد أن يحادثها هاتفيًّا فور وصوله البيت، فهزت رأسها في استغراب، ما كادت تسعد بانتهاء الليلة حتى حملها هم جديد وهو التواصل الهاتفي، ووقفت تودع ضيوفها وهي تفكر كيف تتهرب من الاتصال القادم وكيف تنهيه في دقائق معدودة؟

*****

يا لها من ليلة صعبة على سليم، لم ينزل إلى عمله في الصيدلية كالمعتاد، اعتكف في غرفته في حزن بالغ، الليلة هي أصبحت عروسًا لغيره، وبعد بضعة أشهر ستكون زوجة لغيره. أهو كابوس سخيف أم حقيقة؟ إنه يحاول إقناع نفسه بأنه كابوس، فكيف تفرّط سلمى في حبهما في الحقيقة؟ ولكن كل شيء يؤكد أن ما حدث واقع لا يقبل التشكيك أو التكذيب، دعوة محمود له للحضور، ودموع أمه بثينة وهي تؤكد له أنها كانت تتمناه زوجًا لسلمى ولكن القدر والنصيب. ومواساة أخته له منذ أن علمت بما قررت سلمى، وانقطاع سلمى عن الرد عليه هاتفيًّا أو مقابلته إن زارها في بيت العائلة. كل شيء يقسم أنها ضاعت منه للأبد، إنها اختارت الفراق، ويا له من اختيار قاتل! لقد قتلته بلا رحمة. كيف

قبلت أن تهب حياتها وعمرها وقلبها لرجل غيره؟ وكيف تناسي قلبها كل ما بينهما من أيام وأحلام وحب كان يظنه لا يهون يومًا؟

لبست ثوب الخوف وهربت من حبها، تناست عمرًا من الهوى والاهتمام والأمان، وتعللت بأيام قليلة من البُعد المرغم عليه، لم تعذر ولم تغفر ولم تتفهم ظروفه القاسية. ولكن رغم كل هذا الألم والخذلان الذي يمزقه، فهو لا يزال يحبها ويعذرها ويتفهم خوفها واضطرابها، لا يزال يرى الدنيا من وراء ستار الخوف، لكنه لا يخاف منها كما تخاف منه بل يخاف عليها من طريق عذاب سارت فيه بلا وعي، يخاف عليها من اختياراتها ويخاف على قلبه مما هو قادم، بكل هذا الألم تنقضي ليلة خطبتها فكيف ستمر عليه ليلة زفافها، وراح بخياله يرسم تلك الليلة الحزينة وظن أن قلبه لن يحتملها مهما حاول، قد يتوقف نبضه وترحل روحه إلى عالم الراحة الأبدية هربا من جحيم هذا العالم القاسي.

فكتب عنها الليلة كما اعتاد أن يكتب منذ سنوات

حبيبتي، لن أخون يوما ما بيننا من عهود، ولن أنسى ليالي الهوى والوعود، حقا لا أحتمل هذا الفراق الموعود ولكني لا أستطيع أن أخلع عشقك من بين الضلوعِ، أحبك إلى أن أفارق هذا العالم وبعد أن أفارق هذا العالم، ما عدت أطمع أن يعود قلبك إلى أيام الهوى والوفاء، ولا أطمع أن أجد لقلبي الحزين شفاء، فما رأيت هواكِ يومًا علة أبحث لها عن دواء، بل أنت سر حياتي ما دامت لي حياة.

*****

أعلنت نجلاء العصيان وهجرت عش الزوجية وعادت إلى بيت والدها، وصممت على الطلاق بقرار لا رجعة فيه، حاول زوجها استرضاءها ولكنها كانت تصده بكل قوتها وبأسلوب غير لائق، فاتصل خالد بأخيها وحكى له ما حدث، وأخبره أنه قد يضطر إلى تنفيذ رغبتها مقابل تنازلها عن كافة مستحقاتها. ذُهل فارس مما علم وتواصل مع أخته ولكنه تفاجأ بأنها مصممة على الطلاق وتهدد بالانتحار، فانسحب من الأمر وتركها تحدد حياتها كما تشاء، فقط نبهها أنها ستندم على الطلاق ندمًا بالغًا فيما بعد.

ووقع الطلاق كما أرادت مقابل تنازلها عن مستحقاتها، ولم تكن غاضبة أو ناقمة أو نادمة، إن حريتها من هذا الزواج الممل تستحق مقابلًا، وأي مقابل من أجل حريتها وسعادتها هو ضئيل، كانت سعيدة بالطلاق الذي تم أسرع مما توقعت بكثير، وشعرت أنها رُدت إلى الحياة مرة أخرى. وعادت إلى نفسها وإلى شبابها وإلى أحلامها.. وتذكرت حسين، كيف أحبها وكيف ضاع منها من أجل الوفاء لزوج لا يستحق أي اهتمام أو أي تضحية. زوج كالحاسوب، حتى عندما قررت الطلاق نفذ رغبتها سريعًا ما دام لن يخسر أمواله، كل ما يهمه المال ولا شيء غير المال.

ولكن أين حسين؟ هي لا تعلم عنه شيئا أبدًا منذ أن رحل. سيظل في ذاكرتها حلم الحب الضائع. حلم لم يكتمل وكان يستحق أن يكتمل ويُتوَّج بالزواج. وجلست تفكر في حالها، تبحث عن الحب ولا تجده، وإن وجدته يأتي في الوقت

الخطأ، فلعنت حظها ونفسها، وقارنت بينها وبين سلمى صديقتها.. سلمى التي يذوب فيها سليم عشقا وأهملته دون سبب واضح وارتبطت بآخر يذوب في جمالها عشقا وهي لا تحبه ولا تراه. وكأن سلمى توصد بابا للحب فيفتح لها ألف باب آخر، الحب يطاردها، والعاشقون الهائمون يحيطون بها من كل اتجاه، وكأنها جميلة جميلات العالم. وتساءلت في ضيق لماذا يتساقط الرجال كأوراق الشجر أمام عيونها الخضراء؟ هل للعيون الملونة كل هذا التأثير على الرجال؟ هل للعيون الخضراء كل هذه الجاذبية؟ رغم أن الشعراء كلهم كتبوا وتغزلوا في العيون السوداء؟ أكان ذلك عن حق أم من باب الشفقة والمواساة؟ يا له من أمر عجيب!

إنها تعرف أن سلمى جميلة ولكنها هي أيضًا جميلة، لماذا جمال سلمى يخطف القلوب سريعًا، فتصد عاشقًا لتجد غيره يزحف خلف جمالها بلا وعي. ولماذا جمالها هي لم يلهث خلفه المعجبون؟ حتى من لهث خلفها كان فقيرًا معدمًا لا يملك إلا قلب يموج بالمشاعر. حتى لم يملك الجرأة الكافية أن يختطفها من زوجها ونفسها ويقفز بها فوق الحواجز والسدود التي بينهما؟ هو ليس فقيرًا في المال بل فقير في الأفكار، ضعيف الإرادة، كل ما يصعب عليه يتركه ويتجاهله ويتناساه إلى أن ينساه.

تنهدت في أسي وعادت تفكر في سلمى، تركت سليم الوسيم لترتبط برجل أكثر وسامة، تركت سليم الغني الناجح لترتبط برجل أكثر نجاحًا وثراءً، ورغم

كل هذا تجلس شاردة وحزينة وكأن العذاب يحاصرها، يا لها من متمردة لا تحمد الله أبدًا.

إنها تتنقل بين دروب الهوى كما تشاء وكأن الهوى والعشق ترك فتيات الدنيا كلهن ليرضيها ويسقيها من شهده إلى أن تشبع، ولكنها أبدًا لا تشبع ولا تقنع ولا تكف عن الحزن. ابتسمت في سخرية وقالت

إن زاد الحب عن حده انقلب لضده.

*****

اليوم استبد بها القلق لدرجة لا تحتملها، إنه أول موعد لقاء لها مع طارق خارج بيت العائلة، حاولت أن تتهرب ولكنه أصر على دعوتها للغداء في أي مكان تختاره. وجاءها صباحا ليوصلها إلى عملها على أن يعود لها بعد موعد العمل لتناول الغداء سويا. ارتدت ثيابها في توتر ولم تختر بعناية بل ارتدت أول فستان قابلها من فساتينها السوداء التي اعتادت أن تخرج بها منذ وفاة والدها. وخففت من ألوان زينتها، أي فعلت كل شيء كما اعتادت يوميًّا، وانتظرت قدومه، ولما أضاء شاشة هاتفها وعلا رنينه عرفت أنه ينتظرها أمام العمارة.

نزلت وركبت السيارة إلى جواره وعلى شفتيها ابتسامة هادئة، بينما هو حياها بأرق الكلمات ووصفها بأجمل الأوصاف، وظل يحكي لها عن جولاته ورحلاته، بينما هي شاردة في أيام مضت، كيف كان حالها وهي تجلس إلى جوار سليم

وهو يوصلها يوميًّا إلى جامعتها أو مكان عملها، كيف كانت تحاصره بنظراتها وتلتقط كلماته القليلة بشغف بالغ وتطير من السعادة إن أثنى على جمالها في وقار بالغ، كانت تحب منه كل شيء حتى صمته، وتثق أنه ما صمت إلا ليفكر فيها، حتى استبداده في تنفيذ رأيه وإن كان عكس رأيها. كانت تثق أنه ما يستبد في تقييد حريتها إلا خوفًا عليها وحبًّا لها. والآن إلى جوارها من يقول لها كل كلام الحب والهيام ولكنها لا تشعر بأي كلمة ولا تتلهف لسماع المزيد، بل تتمنى أن يصمت، أن يمل كلامه بل أن يملها هي شخصيًّا، يا له من شعور غريب، ما أصعب أن تتلهف إلى ثانية من الماضي فلا تجد إلا عذاب الحاضر.

وما أصعب أن تخطو نحو عذابك بكامل إرادتك وبكامل وعيك، كمن ينتحر ويصر على ذلك وهو يعلم أنه يسير إلى الموت ولكنه يشتري الموت هربا من جحيم الحياة.

وصلت إلى عملها وبحثت عن صديقتها وأخبرتها أن طارق سيمر عليها بعد انتهاء العمل وتريد حيلة للتهرب من خطيبها دون أن يتضايق.

فنظرت نجلاء لها بامتعاض وسألتها في ضيق لماذا توافق على تلك الخطبة إن كانت لا تطيق خطيبها؟ وإن تهربت اليوم ماذا تفعل غدا؟

فصمتت سلمى لأنها إن كانت تعلم ما سبب موافقتها على تلك الخطبة، فهي لا تعلم حقًّا كيف تتعامل مع طارق وكيف تسمح له باختراق أبواب قلبها؟

صمتت طويلا ثم طلبت من صديقتها أن تساعدها في تمثيل أنها مريضة وتحتاج إلى الراحة في البيت اليوم.

فلم ترد نجلاء، واكتفت بنظرة غاضبة متعجبة من هذه التصرفات الغريبة.

وبالفعل جاء طارق أمام المستشفى في موعد انتهاء العمل بالدقيقة، فخرجت سلمى إليه تتحرك بخطى بطيئة مستندة على صديقتها، ففزع طارق واستفسر باهتمام بالغ فأجابته نجلاء بأنه لا داعي للقلق وأنها تعاني من مغص شديد واضطراب في الهضم، وتحتاج إلى العودة للمنزل ولكن طارق أصر على أن يصطحبها فورا إلى عيادة صديق له طبيب جهاز هضمي، وقاد طارق السيارة مسرعًا إلى الطبيب ونجلاء وسلمى تنظران إلى بعضهما ويكملان هذه التمثيلية في صمت.

وانقضى الموقف، ومر كما أرادت سلمى، وعادت بعد زيارة الطبيب إلى البيت في رفقة خطيبها وصديقتها نجلاء.

وبعد دقائق معدودة انصرف طارق واصطحب نجلاء ليوصلها إلى بيتها.

وبدأ يتحدث مع نجلاء ويسألها عن سلمى، سألها باهتمام عما يسعد سلمى، عن الأشياء التي تفضلها، فقالت نجلاء بفتور:

–اسألها هي؟

–سلمى خجولة أوي، بتتكسف بشكل غير طبيعي.

-لا موضوعِ بتحب إيه وبتكره إيه دا عايز وقت، اديني تليفونك وأنا أقولك على أفكار كتير يا كابتن، أنا فاهمة سلمى أكتر من نفسها.

وتبادل الاثنان رقمي هاتفيهما، وعادت نجلاء إلى بيتها وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، وتشعر أنها أمام رجل متميز وسيم وحنون ورقيق، ثري ومثقف، لا ينقصه شيء أبدًا، لا يعيبه فقط إلا أنه لا يفهم كثيرًا في النساء رغم أنه طيار وطاف العالم وتعامل مع فتيات من مختلف الجنسيات، ولكنه يبدو بلا خبرة في التعامل مع النساء أو قراءة أفكارهن، ولو كان ذا خبرة كان فهم أن سلمى لا تحبه ولا تريده منذ أول يوم من علاقته بها، ولكن لا بأس، سيدرك كل شيء سريعًا.

*****

في المساء ذهب سليم إلى زيارة ماما بثينة، رحبت به كعادتها وأخبرها أن قراءة الفاتحة لزينة وزياد يوم الجمعة القادمة دون أي مظاهر احتفالية وينتظر حضورها هي وسلمى، وسوف يتواصل مع محمود وزوجته ويبلغه بالموعد، فسعدت الأم ودعت لها بالتوفيق والسعادة، وفي طيات الكلام أخبرته ماما بثينة أن سلمى تعبت اليوم في عملها، فسأل باهتمام عما أصابها وضرورة أن تزور طبيب للاطمئنان على صحتها، فحكت له ماما بثينة أن خطيبها لم يهدأ إلا بعدما اصطحبها فورا إلى الطبيب وأنها صارت أفضل. فهز سليم رأسه وقال الحمد لله.

ثم استأذن لينصرف وبينما هو يودع ماما بثينة ويقبِّل يدها كما اعتاد، إذا بسلمى تخرج من غرفتها وتطل عليهما بوجه شاحب وعيون مرهقة، ونادته سلمى برقة:

-سليم

فالتفت إليها واقترب منها في خطوات مترددة ورمقها بنظرة معاتبة مشتاقة ومد يده يسلم عليها وهو يقول:

-ازيك يا سلمى عاملة إيه؟ ألف سلامة عليكي.

فمدت يدها وقبضت على كفه بقوة وكأنها تحتمي به وقالت في حزن:

-أنا تعبانة جدا

فنظر إلى يدها التي في كفه وإلى خاتم الخطبة الذي يلمع في يدها، فشعر كأن نارا حارقه تسري في أصابعه، فسحب يده سريعا وقال باهتمام:

-سلامتك، العلاج ماريحكيش؟ أنا سمعت من ماما إنك كشفتي

فقالت بانفعال بالغ:

-الدكتور ده مش فاهم حاجة أبدا. أنا مش هكمل علاجه.

-طيب حاضر، تحبي تكشفي عند مين وأنا هحجز الصبح وروحي مع ماما يا سلمى؟ أهم حاجة راحتك.

-مش توصلنا؟

فصمت قليلا ثم قال:

-متهيألي الأفضل تروحي مع ماما أو محمود.

-إيه الجديد؟ إنت دايما اللي بتروح معانا.

فقال بحزن بالغ:

- مش عايز خطيبك يتضايق، هو دلوقتي أقربلك مني.

ثم نظر إلى ماما بثينة وقال:

-اتفقوا يا ماما وبلغيني، تصبحوا على خير

واتجه نحو الباب فنادته سلمى بصوت باكٍ:

-سليم

فالتفت لها وقال بصوت دافئ:

-خلي بالك من نفسك يا سلمى.

وفتح الباب فإذا كابتن طارق على الباب، فابتسم طارق وسلم على سليم بحرارة وحياه باهتمام، وقال له إنه يتذكره جيدا منذ حفل زفاف محمود، بل وعاتبه لأنه لم يحضر الخطبة.. بينما سليم رد التحية ببرود وكلمات مقتضبة وانصرف.

ودخل طارق وجلس مع ماما بثينة وخطيبته، وظل يتحدث معهما أحيانا عن العمل والرحلات وأحيانا عن أشياء عامة، وقامت الأم لتقدم واجب الضيافة، فسأل سلمى عن صحتها فقالت:

-الحمد لله، كويسة.

- سلمى أنا حاسس إنك مكسوفة أوي وفيه حاجز بينا، الخطوبة المفروض فترة للتعارف، عايز أعرفك وتعرفيني أكتر.

-أنا فعلا خجولة، ودا عيب كبير.

-أبدا، إنتي أرق وأجمل بنت شوفتها في حياتي، أنا مسافر وراجع بعد ٥ أيام، هتوحشيني جدا.

صمتت سلمى ثواني وأدركت أنها لا بد أن ترد على كلماته الرقيقة، فقالت:

-وإنت كمان.

وانقضت الجلسة وانصرف طارق ودخلت سلمى حجرتها وانهمكت في البكاء، لقد أتعبها هذا الطريق الذي اختارته، إنها تتألم وتسبب ألمًا لكل من حولها ولا تدري ماذا تفعل؟

*****

قضى سليم تلك الليلة يفكر فيها وفي جلستها مع طارق، ماذا قال لها؟ وماذا قالت له؟ كيف يحبها؟ وكيف يغازلها؟ وكيف يلمس يديها في لهفة؟ جلس أمام مكتبه يفكر والنار تشتعل في قلبه مع كل سؤال، ترى كم مضى من الوقت وهو

معها؟ وحتى بعدما ينصرف، لا بد أنه يقضي الليل ساهرًا على الهاتف معها، وكيف تستمع وتستمتع وربما تقتنع، وتجتهد كي تحبه، فمزق بعض أوراق خالية كانت على مكتبه، الغيرة تنسف أعصابه، ورغبة عميقة بداخله أن يضرب هذا الطارق ويطرده بعيدا عن حياتها، ويهب عليه قليل من الحكمة وسط نوبة الجنون ويزهو أمام عينيه سؤال لكن ما ذنب طارق؟ هو تقدم لخطبتها كأي شاب يرغب في خطبة فتاة، هو ليس له ذنب، سلمى هي من أشعلت النار لتحرق قلبه بلا رحمة، هي من تلعب معه لعبة انتقام قاسية ويا لها من لعبة!.

وتذكّر ملامحها اليوم ونبرة صوتها ولمعة الدموع في عينيها، إنها تتألم، هكذا شعر بها، هكذا رأى حزنها وضعفها، بل اعترفت بأنها متعبة، هذا ما قالته، ويظنها صادقة في تلك الكلمة خاصة، فقد كانت في لحظة تجرد من عنادها وخوفها وكانت تبحث عن سليم الذي تعرفه، بل كانت تريده معها في زيارة الطبيب، وتساءل كثيرا:

لماذا؟ ماذا تريد مني بعد أن قررت الفراق؟. وقال لنفسه وهو يجتهد في تحليل الموقف:

لقد زرت أمي مرات ومرات وتجاهلتني قبل خطبتها كثيرا، لماذا اليوم تطل على بوجه حزين؟ وفي عينيها رجاء لا أفهمه وفي صوتها حنين أكاد أراه بعيني. ماذا تريد؟ هل ندمت على تلك الخطوة؟

كرر السؤال على نفسه كثيرًا بصوت مسموع، يا له من سؤال مريح لأعصابه المنهكة في لعبة الحب والفراق هذه.

تمنى من قلبه أن تفيق مبكرًا، وأن لا تكمل مشوار عنادها إلى الزواج، ثم عاد عقله يحذره من أن يتمسك بأمل العودة السالمة فيستيقظ على كابوس جديد، وقضى ليلته بين غيرة قاسية وأفكار متطاحنة، وصراع محتدم بين قلب يذوب حنين واشتياق، وعقل يريد أن يعتاد ليل الفراق.

*****

الفصل الخامس والعشرون

واحتار طارق في أمر خطيبته، إنه يرتاح إليها بشدة وينجذب لها بقوة، ولكن يشعر أن هناك حاجزًا بينه وبينها، لا يدري هل هو خجلها؟ أم أنها أُجبرت على تلك الخطبة؟.. حاول أن يزيل حاجز خجلها، وأن يقربها منه بالاهتمام والكلام المعسول الذي يسيطر على قلوب الفتيات، ولكنها تستقبل كل محاولاته ببرود يضايقه، حتى الآن وأثناء سفره، كلما تواصل معها لا تتحدث إلا بكلمات قليلة لتصبح أمامه كتابًا مغلقًا ولغزًا محيرًا. وإن كان هذا اللغز يزيد تمسكه بها ورغبته في الوصول إلى أعماق قلبها. ولكن كيف؟ لقد حاول استكشاف شخصيتها ولكنها لا تساعده أبدا ولا تبادله هذا الاهتمام ونفس الرغبة في فهم شخصيته. احتار في أمرها لدرجة مزعجة، وأصبح ينشغل طويلًا في التفكير فيها وفي أمرها.

وخطرت في باله فكرة جيدة، لا بد أن يستعين بصديقتها نجلاء لتساعده في غزو قلبها، هو لا يريدها فقط خطيبته بل يريدها حبيبته التي تشتاق إليه حتى وهو أمام عينيها واتصل بنجلاء هاتفيا، كانت ودودة معه للغاية، وشجعه ذلك على أن يطرح عليها مشكلته ويطلب مشورتها في علاقته بخطيبته، وبدأت نجلاء تتحدث معه وتسأله عنه وتستكشف شخصيته كي توضح ذلك لسلمى وتزيل هذا الحاجز الذي يتحدث عنه طارق، أكدت نجلاء له أن سلمى تمر بأزمة

نفسية عنيفة منذ وفاة والدها مما جعلها في حالة انكسار وحزن مبالغ به، ولكن لا شيء يدوم وحبه لها سيساعدها على تخطي تلك الأزمة النفسية.

وانتهى الحوار بين طارق ونجلاء بعدما أهدته بعض الأفكار التي قد تسعد خطيبته، فقد علم من نجلاء أن سلمى تحب البساطة في كل شيء، إنها تحب الزهور وتمثل لها لغة بلا حروف تقرؤها جيدا، تحب أن يبادلها نفس الأفكار، وطلبت منه أن يحدثها عن أعظم إنسان في حياتها وهو والدها ببالغ الاحترام والتقدير، ثم يحدثها عن عملها، من هنا ستتحدث عن نفسها بالتدريج إلى أن تعتاد على الحوار معه في كل تفاصيل حياتها، إنما الغزل المستمر قد يبدو لها مبالغًا فيه ومتكلفًا بعض الشيء. طالبته أن يتحدث معها فيما تريد، ويترك دفة الحوار لها تديرها كيفما تشاء لأنها خجولة إلى درجة كبيرة.

اقتنع طارق بأفكارها، وتفاءل بأن الفترة القادمة سيقطع ما بينهما من مسافات ويصبح لها حبيب العمر.

بينما نجلاء ظلت بعد المكالمة تفكر في طارق، طيار يخطف العقل والقلب ويطير به بعيدا إلى عالم الخيال والأحلام، يا له من شاب رائع! وتعجبت من سلمى التي لا تدرك قيمة خطيبها، بين يديها كنز ولا تقدر قيمة ما تملك، ثم سألت نفسها:

ولماذا تقدر سلمى هذا أو ذاك إذا كان الجميع يقع في غرامها من النظرة الأولى دون أن تبذل أي مجهود؟ من حقها أن تتدلل كيفما تشاء، ويبدو أن الرجال لا يحبون إلا الفتاة التي تعذبهم وتشقيهم وتتمنع عليهم.

تنهدت بابتسامة ماكرة وتخيلت لو أن طارق خطيبها، كانت ستبذل كل ثواني عمرها لإسعاده، وتساءلت في أسى:

لماذا لا يظهر أمامها مغرم بها مثل طارق؟ لماذا دنيا الحب لا تفتح لها أبوابها؟ لماذا تتنقل بين قصص فاشلة موجعة، وتحيا في وحدة قاسية، كانت وحيدة قبل الزواج، وظلت تسكن ديار الوحدة بعد الزواج، وها هي بعد الطلاق تقاسي نفس وحدتها كأنها ظلها الذي لا يتركها.

وفكرت ماذا لو لم تجد من يشاركها أيامها؟ هل ستظل وحيدة طوال حياتها؟ فارتجف قلبها خوفا، إنها تخاف من الوحدة، وتملها بشدة، إنها تريد حياة كاملة، بيت وأسرة وأطفال وزوج يسعد بها ويسعدها، أهذا حلم صعب؟ فكرت في أسئلتها طويلًا ولا تعرف أين الإجابة وما هو الحل لمشاكلها التي كلما ظنت أنها تنتهي، العقدة تزداد تعقدا.

*****

اجتمع كل الأهل في بيت صبري لتهنئة زينة بخطبتها، حضرت سلمى في صحبة والدتها وأخيها وزوجة أخيها، وحضر قليل من أقارب زياد.. وتألقت زينة في فستان رمادي مزخرف بخيوط فضية وإلى جوارها زياد في بدلة سوداء أنيقة. وجلس الخطيبان في انسجام وتفاهم وسعادة غامرة، وسليم يحيط أخته بنظرات سعادة ورضا، بينما زينة وزياد في همس متواصل لا ينقطع إلا لثوانٍ معدودة لتحية الأهل، ثم يعودان لحديث العشاق المغلف بابتسامات من عالم الحب

والأحلام، وسليم اختار أن يجلس في موضع تكون سلمى أمامه يختلس بعض النظرات بين الحين والآخر في صمت، كم هي جميلة، كم هي رقيقة، كم هي حزينة، نعم هو يثق أنها حزينة وتعيسة، في عينيها حزن وقلق وخوف، لقد اختارت له ولها أصعب اختيار. وماما بثينة تراقب في صمت حديث العيون بين سلمى وسليم، فهي تشعر بعذاب الاثنين وتتألم لهما، وما زالت تأمل أن تفيق ابنتها وتتراجع عن خطبة ما زادتها إلا حزنًا وقلقًا وتوترًا.

وانطلق رنين هاتف سلمى، فبدا على ملامحها الضيق وأخذت هاتفها وتوجهت إلى الشرفة في خطوات مضطربة، وعيون سليم تتابعها، وغابت في الشرفة ثلث ساعة فقلق عليها، وتحرك في اتجاهها، ورآها واقفة شاردة تعلق عيونها على السماء والنجوم وكأنها سافرت إلى القمر بقلبها وروحها وعقلها، فاقترب منها وقال بصوت منخفض:

–اتأخرتي، فجيت أطمِّن عليكي، فيه حاجة ضايقتك؟

–طارق بيحاسبني علشان جيت من غير ما أقوله.. إنسان مستفز.

–طارق مش غلطان على فكرة

فنظرت إليه باستغراب وقالت:

–مش من حقه يتحكم فيا يا سليم

–حقه، والدبلة اللي في إيدك دي بتقول إنه حقه.

وتركها وعاد إلى ضيوفه وهو يعلق ابتسامة لا تخفي مشاعره وأوجاعه، وإن كان يحاول جاهدا إخفاء ضيقه أمام الناس، فهذا ليس الوقت المناسب لتلك المشاعر، فليخفيها إلى أن يختلي بنفسه، وقتها فقط يحق له أن يحزن ويضعف ويئن ويشكو منها ومنه لنفسه.

وانقضت الليلة وانصرف الجميع، ونامت زينة على الهاتف في حديث موصول مع خطيبها العاشق بينما اختلى سليم بنفسه فاستيقظت آلامه وسمح لها بأن تفيق، فمن حقه أن يتألم ويتنفس ألمه، فإن كان يخفي كل هذا على الناس ويكذب عليهم بابتسامة مصطنعة فلن يكذب على نفسه، ويظل الليل متنفس أحزانه وستارًا يختبئ خلفه ليحزن كطفل صغير ضل طريق العودة إلى أغلى مَن في حياته وبقي يتخبط بين أناس لا يعرفهم.

أما سلمى فقد جلست في غرفتها تسأل نفسها بوضوح ما نهاية الطريق الذي اختارته؟ الخطوة الأولى في طريقها مع طارق تنسف أعصابها وتدمر كيانها، جعلتها في حالة دائمة من الحزن والتوتر فوق احتمالها، فماذا بعد؟ وماذا تفعل لو أراد طارق تحديد موعد الزفاف؟ إنها لا تطيق جلسة قصيرة معه في بيتها فكيف ستطيق حياة كاملة معه؟

وعلا صوت يحذرها من كل ما تفعل. وأنين قلبها يصرخ بشدة ويرجوها أن تنجو من هلاك مؤكد في طريق معزز بالجراح، حتى صوت عقلها الذي أصر

على الفرار من سليم خفت وتكاد لا تسمعه الآن، حنينها إلى حبها وحبيبها يزداد ويستبد بها، وما كانت تظن أنها ستهرع إلى الماضي سريعًا بهذا الشكل.

*****

جلست نورهان وعلى وجهها سحابة من التأثر، وشكت لزوجها من الحمل، من آلامه وتعبه وزيادة وزنها التي باتت تؤرقها وتضايقها، وانتفاخ بطنها الذي يجعل شكلها مضحكًا بين الناس، إنها لم تعد جميلة كما كانت بسبب الحمل، حتى الخروج والنزهة والتجول مع الصديقات بات أمرًا شاقًّا لا تقدر عليه، فهز رأسه في ضيق وقال لها إن كل هذا تغييرات طبيعية تمر بها كل أم أثناء الحمل ثم تعود بعد الولادة إلى شكلها الطبيعي ووزنها الطبيعي، فانفعلت وظلت تردد كلمات مستفزة عن أنها تسرعت، وكان عليها أن تأخذ كل الحيطة والحذر لتأجيل الحمل، فما رد على كلماتها إلا بنظرة مستنكرة لكل حديثها، ثم هرول إلى الخارج، الحديث معها مرهق وسيرهقه أكثر، وربما انهال عليها ضربًا إن فاض به الضيق، وهذا ليس أسلوبه ولا منهجه في التعامل مع زوجته، فر قبل أن يصبح شخصًا آخر لا يعرفه، وقال لنفسه في أسى:

لم تنجح نورهان في أن تفقدني كل مشاعر الانبهار والإعجاب بها فقط، بل جعلتني أنفر من كل النساء.

وتذكر حبيبته داليا وقال لنفسه:

أحببتها وظننت أن كل النساء مثلها، وأني سأجد حنانها وحبها مع أي امرأة، ولكني أدركت بعد فوات الأوان أنها امرأة نادرة لن ألتقيها في حياتي إلا مرة واحدة وإن ضاعت سأظل أبحث عنها العمر كله ولن أجدها، وسأظل بين جدران ذكريات مضت أتلهف للحظات المودة والرحمة، سأحيا باقي العمر بين الذكريات.

فذهب إلى شقة الذكريات كي يرتاح ويهدأ بين الجدران الدافئة، وإن فقدت أميرتها، ولكن يبقى الأثر في المكان شاهدًا على أيام حلوة لن تتكرر.

وانقضت ساعة وهو بين ذكرياته، وخطر في باله أن يتواصل مع صديقه علي، يتحسس أخبارها، يشم رائحتها من بعيد، لعلها تعاني معاناته وتبحث عنه ولا تجد إليه سبيلا، فاتصل بصديقه وحيّاه بكلمات طيبة وأبدى له محبته وأنه يتمنى ألا تنقطع صداقتهما أبدا، والزواج نصيب ويجب عليهما التسليم بذلك، واعتذر عما بدر منه سابقًا، بينما صديقه استقبل اتصاله بشيء من التوجس ورد عليه بكلمات مقتضبة، ووعد بأن يتكرر بينهما التواصل.

وانتهى الحوار الهاتفي، واشتعلت نار الغيرة في قلب علي، فترك جلسته مع أصدقائه وعاد إلى زوجته، التي كانت تجلس أمام التلفاز هادئة متأثرة بما تشاهد من مشاهد رومانسية راقية، فجلس علي إلى جوارها في هدوء دون حديث، فارتابت من سكونه، فهذه ليست عادته فقالت برقة:

-مالك يا علي؟ إنت رجعت بسرعة

– مضايقة إني رجعت بسرعة

– مضايقة؟ ليه بتقول كده، بالعكس.

– محمود اتصل بيكي؟

فنظرت إليه نظرة غاضبة وقالت بانفعال:

–محمود مين؟

–إحنا نعرف كام محمود يا داليا؟

–ويتصل بيا ليه؟

–اتصل بيا وعايز نرجع أصحاب تاني؟ إيه رأيك؟

–صاحبك إنت مش صاحبي أنا، اعمل اللي إنت عايزه، وبعدين طريقتك فيها حاجة أنا مش قابلاها يا علي.

وقامت منفعلة إلى غرفة النوم، وشعر علي أنه عاملها بطريقة غير لائقة، وأنه تهور، وغيرته جعلته يخطئ، فتبعها إلى غرفة النوم ووجدها تجلس في فراشها تبكي، فازداد ضيقه من نفسه، وقال:

–إنتي بتبكي ليه بس؟

–إنت بتشك فيا يا علي، لو فقدت الثقة فيا، تبقا حياتنا هتنتهي، وأنا مش عايزة كده.

-ولا أنا أقدر أعيش من غيرك، إنما..

فقاطعته قائلة:

-يا على أنا بحبك فوق ما تتخيل، ومش عايزه من الدنيا غيرك، أرجوك متجرحنيش من غير سبب.

فقبلها بحنان بالغ وتأسف لها واعتذر كثيرا، فقابلت اعتذاره بابتسامتها الهادئة على وعد بألا يتكرر هذا مرة أخرى.

*****

الفصل السادس والعشرون

وعاد طارق من رحلته وفي قلبه أشواق ملتهبة لخطيبته، عاد إليها بلهفة بالغة يحمل أجمل باقة زهور، والكثير من الهدايا القيمة.

فشكرته سلمى كثيرا على كل هذا الاهتمام، وجلست إلى جواره صامتة، تخفض بصرها إلى الأرض، بينما هو يتأملها بلهفة ويدقق في كل تفاصيلها الجميلة، يتنسم عطرها، ويسرح في جمالها الساحر، وفاجأها بأن دس أصابعه بين خصلات شعرها الذهبية فانتفضت وقامت من جواره وجسدها كله يرتعش كأنها أصيبت بصعق كهربائي، فذهل من ردة فعلها المبالغ فيها وصمت، بينما هي انفعلت وقالت:

–لو سمحت يا طارق، إحنا عيلة محافظة جدا، وأنا ما أسمحلكش بكده إلا بعد الجواز.

قالت ما أرادت وصبت نار انفعالها على رأسه ثم عادت إلى هدوئها، ولكن جلست على مقعد بعيد أمامه.

فكبت غضبه وحاول أن يستوعب غضبها ويتفهم خجلها ويلتزم بعاداتها المحافظة وقال في هدوء:

-أنا آسف يا سلمى، عندك حق، وفعلا أنا غلطان، ولازم ننهي الخطوبه دي بسرعة، أنا هكلم محمود ونتفق على معاد الفرح.

فارتبكت أكثر وقالت:

-متهيألي لسه بدري، إحنا معرفناش بعض كفاية.

-بصراحة إنتي خجولة جدا، وأعتقد لو اتجوزنا على طول أفضل، أنا حاسس إن الخطوبة مقربتناش أبدا من بعض.

فصمتت قليلا ثم قالت:

-أنا مش موافقة على الجواز بسرعة، على الأقل نتخطب سنتين.

فاندهش طارق وقال بانفعال:

-ليه سنتين خطوبة إذا كان نقدر نتجوز دلوقتي يا سلمى.

تعثرت كلماتها وارتبكت أكثر وأكثر ثم قالت بصوت متقطع:

-أرجوك تحترم رغبتي أو نفسخ الخطوبة.

ألقت كلماتها وهرولت إلى غرفتها، وجاءت الأم مسرعة بعدما رأت سلمى تهرول باكية إلى غرفتها، وحكى لها طارق أنه يريد التعجيل بالزواج، وسلمى تريد خطوبة طويلة بلا سبب، وسألها أن ترشده إلى ما يسعد سلمى لأنه حقا حاول كثيرًا ولم يعرف السبيل إلى قلبها.

وعدته الأم بأن تتدخل واعتذرت له عن انفعال سلمى. وغادر طارق وهو غاضب، مختنق من تصرفات خطيبته التي تصد كل محاولاته لإسعادها، وبدأ يشعر أن الأمر أكبر من خجل البنات بل ربما تكون مترددة في علاقتها به وتبحث عن وقت كاف لتحدد موقفها، وهذا التفكير أثار غضبه أكثر، وبدأ يفكر ماذا ينقصني كي تحبني؟

التفكير أرهقه وكاد عقله يشل، فأمسك هاتفه وطلب من نجلاء أن تقابله فورا، وما كان منها إلا أن لبت رغبته وذهبت لمقابلته في أقل من ساعة في المكان العام الذي اختاره.

ذهبت إليه متألقة في ثوب أصفر أنيق وشعرها يتطاير مع خطواتها الرشيقة، بينما هو كان ينتظرها بوجه شاحب وعيون زائغة، سلمت عليه بحماس وخفة وحيّته بصوت مبتهج، بينما هو رد تحيتها بصوت مهزوم قلق متوتر، وبعدما طلب طارق لها مشروبًا باردًا وطلب لنفسه قهوة بدأ يتحدث، أفاض في وصف حيرته مع سلمى، لا يعرف كيف يرضيها؟ كيف يتقرب منها؟ رغم أنها خطيبته إلا أنه يشعر أن بينهما مسافات كبيرة، تكون إلى جواره بجسدها إنما شاردة العقل والروح إلى عالم آخر لا يعرفه، التمس لها كل الأعذار والمبررات بلا فائدة وحكى لنجلاء ما دار بينهما اليوم، الموقف أزعجه جدا وهناك أفكار سوداء صارت تتطاحن في رأسه وشكوك مريرة، إنها تنفر منه، من حديثه، من لقائه، من لمسة يده، إنها تخشى يوم زفافهما، كل هذا محزن ومؤلم وقاس على كبرياء رجل يسعى

إلى قلب خطيبته وهي ترجع للوراء خطوات كثيرة كلما تقدم نحوها خطوة واحدة. حكى آلامه بصوت مرهق وإحساس صادق لمس قلب نجلاء، فذبلت ابتسامتها وتبدلت ملامح وجهها البشوش بالحيرة والتردد.

قال كل ما في قلبه وصمت وانتظر أن تساعده برأي أو تفسير لكل ما حكي، ولكنها ظلت صامتة فسألها في رجاء وحزن:

-إنتي صاحبتها، وأكيد تعرفي عنها كتير، ليه بتعاملني كده؟

– هو أنا ممكن أسألك إنت ليه حبيتها؟

-مش عارف، فيها سحر بيخطف القلب والعين.

– دا إعجاب إنما مش حب.

-إعجاب أو حب مش دي المشكلة، المشكلة إني حاسس إنها بعيد عني ومش مستعدة تقربلي، طب وافقت على الخطوبة ليه.

-أنا مش عارفة أقولك إيه، سلمى صاحبتي ولازم أحفظ سرها.

فاندهش واشتعلت غيرته وقال بانفعال:

-يعني إيه، في حد تاني في حياتها؟

-هي كانت بتحب سليم ابن عمها، لكن باباها رفضه، وبعد وفاة والدها رفضت إنها تخالف رأي باباها، لكن سلمى لسه مقدرتش تنسى سليم، هي دي المشكلة.

نزلت كلماتها كالصاعقة التي تستوجب صمت طويل لعله يستوعب ما عرف، ومرت دقائق الصدمة وقال بعدها:

-وأنا اللي دايمًا فاكر إن المشكلة فيا.

-إنت كمان غلطان.

-غلطان في إيه.

-إنك بتجري ورا انبهار بالشكل، أوقات الحب بيكون قدامنا ومش شايفينه ونجري ورا اللي مش شايفنا ولا حاسس بينا، دا بالضبط ملخص كل حكايتك مع سلمى.

-أنا بشكرك يا نجلاء جدا.

وعايز أقولك يا ريت تفضلي على تواصل معايا الأيام الجاية.

-مقولتليش هتعمل إيه؟

-هقولك بعدين.

*****

عادت نجلاء وهي منتشية بما فعلت، إنه عمل جيد بل عمل عظيم، لقد أنقذت قلبًا من أن يتعذب بحب لن يسعده، حب يشقيه باقي عمره، لقد تعذّب هذا الرجل دون ذنب، كل خطيئته أنه أُعجب بفتاة وطرق باب أهلها لتكون زوجته أمام العالم كله، فما كان من تلك الفتاة إلا أنها تتلاعب بمشاعر هذا الرجل لتشعل غيرة آخر وتشقيه. إنها تثق أن سلمى تحب سليم ابن عمها وما فعلت

ذلك إلا لتعذب سليم وتثير غيرته وتساءلت لماذا تفعل كل هذا؟ ما وجدت إجابة قاطعة، ربما لأن سليم أهملها في فترة ما، ربما خانها وعلمت بخيانته، الاحتمالات كثيرة ولكن ما لا يقبل أن تؤذي غيرها، لقد أشفقت نجلاء على طارق الذي لا يعيبه إلا أنه انبهر بسلمى، فهي تصمم أن طارق لم يحب سلمى بعد، إنه لم ير منها ما يحرك مشاعر الحب في قلبه، هو فقط انجذب إلى جمال أسر عيونه والعين تعشق كل جميل، إنما القلب لا يمكن أن يذوب في حب تمثال جميل بارد لا يشعر بمشاعره ولا يهتز لآهاته. وخطر ببالها سؤال ما رد فعل سلمى نحوها إن علمت أنها قابلت طارق وباحت له بأسرارها؟ هل ستكرهها؟ هل ستعتبرها خائنة لصداقتهما؟

فكرت دقائق ثم قالت لنفسها:

ربما تشكرني على أني خلصتها من هذا الخطيب الذي لا تحبه ولا تريده، إن معاملتها لطارق تؤكد أن التجربة فاشلة ومصيرها إلى فراق، فسألت نفسها:

ولماذا لا أترك تلك العلاقة تنتهي بعيدا عني وهي تخوض مراحلها الأخيرة كي أتجنب خسارة سلمى؟.

فكرت طويلًا ولكنها لم تشعر بندم يؤلمها أو يرهقها بل كان يشغلها أمر أهم بكثير من علاقتها بسلمى، كان يشغلها موقف طارق وكيف سيتصرف ومتى يحسم النهاية المتوقعة؟

بل ذهبت بعيدًا في أفكارها، كيف يراها طارق؟ ألم يدرك تلك التضحية التي قدمتها له؟.. إنها ضحت بصديقتها لأجله، حبًّا له وخوفًا عليه. هل أدرك كل هذا؟

سرحت طويلًا وتذكرت كلماته لها وثناءه عليها ورجاءه أن تظل على تواصل معه الفترة القادمة.

أنهكها التفكير ولكن لن تفقد الأمل في حب يقترب من قلبها، حب بحثت عنه طويلا وربما آن الأوان أن تدخل جنته.

*****

الليل قاس طويل على من ضل طريقه ولا يدري أين الفرار من جراحه. جلست في فراشها تفكر في اتخاذ قرار صعب، بداخلها رغبة قوية أن تنهي علاقتها بطارق، جلست واعترفت لنفسها بأنها لن تحب رجلًا بعد سليم، ولن تسعد لهمسة رجل إلا سليم، ولن تهنأ أبدًا مع غيره مهما قدّم لها من حب وعطايا.

فقلبها ملك سليم ولن يتحرر من حبه مهما هربت وبعدت عنه. من قال إن البُعد يُنسي القلب حبيبه بل يشعل نار الأشواق ويذيب القلب اشتياقًا، لقد انهار في البُعد كل كيانها وتشعر أنها تتلاشى وتكاد تصبح عدمًا، لقد غرقت في حزنها وحنينها إلى أن ظنت أنها تموت ببطء أو ربما ماتت ولم يبق فيها إلا جسد

يركض مع الراكضين في زحام الأيام، بينما الناس تظنها تحيا، أي حياة تلك وهي لا تشعر بقيمة شيء ولا يسعدها شيء، وإن أرادت أن تقتنص لحظة حلوة تعود بذاكرتها إلى ذكرى بينها وبينه، إن سعادتها معه حتى ولو كانت في لحظات من ماضٍ انقضى، ما زادها البُعد إلا يقينا أنه لها كل الحياة، ولا حياة بعده.

ولكن ماذا تقول لطارق الذي يسعى جاهدا أن يسعدها، حقا هو شاب مثالي ما يعيبه إلا أنه جاء يسعى لقلب محتل بحبيب لا يتزحزح. ولكن إنهاء تلك العلاقة الآن أفضل كثيرًا من بعد ذلك، فهي علاقة لن تنجح وفشلها محسوم، إذن إنهاؤها الآن هو أقل الخسائر لها وله.

وفكرت في رد فعل محمود، ربما انفعل عليها، ربما ثار، لكن كل هذا لا يهم، ليس هناك أهم من تصحيح هذا الوضع الخطأ.

وتساءلت ماذا بعد فسخ خطبتها مع طارق؟ ماذا ستفعل؟ هل تعود لسليم؟ هل انتهى خوفها من تأثير الماضي على علاقتهما؟ هل خطبتها أثرت على حب سليم لها؟ لا تدري ولكن قررت أن تبدأ الخطوة الأولى، لا طارق ولا أي رجل آخر بعد اليوم.

وفي صباح اليوم التالي صرحت لوالدتها بهذا القرار، فهزت الأم رأسها وعلى ملامح وجهها ابتسامة راضية، وتولت الأم عنها إبلاغ رغبتها إلى محمود، إن الأم تعرف جيدا أن سلمى لن تحب طارق مهما فعل، ومهما قدم لها من حب لن تشعر به. إنها تعرف جيدا أين قلب ابنتها وبمن تتعلق مشاعرها وروحها؟

لم تتفاجأ من القرار ولم تره قرارًا متعجلًا أبدا، هي كانت تنتظره بين دقيقة وأخرى، وتعلم أن هذه الخطبة قصيرة العمر لأنها من البداية خطوة غير محسوبة وغير صائبة.

*****

الأفكار تدور بطارق بين ألف اتجاه وألف طريق، ما بين الانسحاب والفراق عن قلب منشغل عنه بغيره، وبين أفكار عديدة للانتقام، لقد جرحت كبريائه واستهانت بكرامته وطعنت رجولته لمجرد لعبة ملعونة لتعذيب حبيبها، إلى هذا الحد مشاعر قلبه بلا ثمن، إلى هذا الحد تُخفي شيطانًا خلف وجهها البريء؟ وماذا يعيبه كي لا تحبه؟ وماذا يميز ابن عمها هذا كي تحبه؟ وإن كان هو شاب جيد لماذا رفضه عمه؟ وإن كانت تحبه لماذا لم ترتبط به بعد وفاة والدها؟ إصرارها على تنفيذ رغبة والدها تؤكد أنها اكتشفت عيبه الكبير.

تعجب في أسى من براءتها ورقتها وجمالها الذي يلعن من يقترب منه ويعذب من يحبه. إنها ممثلة بارعة، خائنة محترفة، مخادعة ممتازة وهو مخدوع بامتياز، فهل يتركها بهذه البساطة تنجو بفعلتها وتهنأ بحبيبها أو تعذبه أو تعذب غيره؟ أين العقاب على كل هذا الخداع؟ أين الحساب على كذبتها البشعة؟

وظل أيامًا يفكر ويفكر، وتتنازعه الأفكار والآلام وفكرة الانتقام تغزو كل كيانه بلا رحمة.

*****

أبلغت ماما بثينة ابنها محمود بقرار سلمى، ولم يُخفِ محمود استياءه من الأمر كله، الجميع حذرها من الارتباط عامة في الوقت الراهن، ولكنها أصرت على إتمام الخطبة في أسرعِ وقت ثم تعود بعد أقل من شهرين لتقرر فسخ خطبتها، إنه وقت قصير للغاية للحكم على طارق، إنها تعجلت بشكل مبالغ به وألقت عليه مهمة ثقيلة في إنهاء الأمر مع خطيبها.

أبدى محمود ضيقه من هذا الموقف الذي وضعت فيه سلمى الجميع وكأنها طفلة صغيرة لا تدرك معنى الاتفاق بين الرجال، وما قد يتداول عنها وعن الأسرة بعد هذا القرار.

امتعض من هذا التذبذب والقرارات المتعجلة ولكنه في النهاية لن يجبرها على شيء. وأبلغ والدته إنه سينهي الأمر. ولكن لن يسمح بتكرار ذلك مرة أخرى، وعليها أن تعرف أن الارتباط ليس لعبة أبدا، وأن تكون على قدر المسئولية.

وتواصل محمود مع طارق هاتفيًّا وأبلغه برغبة سلمى في فسخ الخطبة، وطلب تحديد موعد للقاء، وأصر طارق على أن يكون اللقاء في منزل العائلة وحضور سلمى، فمن حقه أن يفهم لماذا قبلت سلمى الارتباط به ولماذا قررت إنهاء العلاقة.. كان طارق منفعلا مستاءً وهو يسمع ما استقرت عليه خطيبته، ومع كل كلمة تشتعل نار غضبه وغيظه من هذه الطريقة الحمقاء المسيئة لإنهاء العلاقة.

وتم الاتفاق على أن تكون الجلسة الليلة لفسخ الخطبة بحضور الطرفين

الفصل السابع والعشرون

ارتاحت سلمى من حمل خطبتها الثقيل وتخلصت من ذنب كبير كان يؤرقها أن يكون قلبها ملك رجل، وحياتها وعمرها ملك رجل آخر، لقد عانت أيامًا صعبة إلى أن وصلت إلى النهاية، وإن كانت النهاية كانت قاسية عليها جدًّا وصعبة، كلمات طارق الأخيرة ولومه وتوبيخه لها على أنها وافقت من البداية على الخطبة كانت قاسية، ومحاولته أن يقتنص منها اعتراف بالسبب الحقيقي لقرارها المتعجل كانت مرهقة، واعترافه لها بأنه مخدوع فيها حيث كان يراها ملاكًا ولكن ليس كل ما ترى العين حقيقة كان اعترافًا جارحًا، ثم أنهى طارق حديثه بأنه لن ينسى ولن يسامح أبدا، كلمات قليلة قالها بحدة وغلظة لم ترها منه أبدًا، نظراته المليئة باللوم وربما الاحتقار كانت حادة كأنها سيف قاطع بينما هي استمعت في صمت قاتل ولم ترد إلا بكلمة اعتذار واحدة (أنا آسفة).

اختلت بنفسها وبكت كثيرًا على حيرتها وتخبطها، على هذا الألم النفسي الذي تسببت فيه لإنسان لم يقدم لها إلا المودة، ولكن عذابه كان سيتعاظم لو تم الزواج، هي تثق أن إنهاء العلاقة الآن أفضل بكثير من زواج فاشل. الاعتراف بالفشل في الخطبة يوفر كثيرًا من المتاعب والمشاق على الطرفين، كانت مقتنعة بأنها فعلت الصواب ولكن أحيانا الصواب يؤذي غيرنا. بكت ولا تعلم إن

كانت دموعها دموع حزن على جرحها لطارق أم دموع راحة لأنها تخلصت من صراع نفسي مدمر كلما فكرت في طارق أو رأته.

لقد تحررت من قيد هي من قيدت به نفسها، ولكن هل تحررت من خوفها من حب سليم؟ هل تحررت من عذابها في بُعد سليم؟.

هي تعرف الإجابة جيدًا وتثق أن قلبها ما زال لا يغفر لسليم أيامًا بعده، ولكنه لم ينس أيام مودته وقربه؟ ويا لها من حيرة!

ذاع خبر فسخ الخطبة إلى أن وصل إلى سليم فسارع إلى بيت العائلة، وقابلها، وجلس إلى جوارها يتأملها كأنها غابت عنه سنوات، وعيناه تبارك لها حريتها من خطبة قيدتها وأحزنتها وجعلتها تجلس أمامه في ذبول، فبدأ حديثه قائلا:

-حمد الله على السلامة يا سلمى، كان طريق صعب ورجعتي منه بإرهاق كبير كأنك مشيتيه سنين.

فنظرت إليه في حيرة وقالت:

-أنا تايهة يا سليم، نفسي أرجع لسلمى بتاعة زمان.

-سلمى موجودة بس إنتي معذباها بخوف مالوش لازمة، أنا بحبك يا سلمى.

-لو بتحبني قولي اللي أنا معرفوش عشان أقدر أحدد إن كان ينفع يتنسي ولا لأ.

-الماضي مالناش ذنب فيه، ليه نسجن نفسنا في دوامة الماضي، أنا خرجت من سجن الماضي، ومش راجع له تاني ولا هفتكره تاني.

صمتت والتقت عينيها بعينيه العاشقتين، فأشرقت شمسها الغائمة منذ زمن، وفاضت في قلبها رغبة عميقة أن تصدق وعده وتهرب من مخاوفها وأحزانها إلى عالم حبه وأمان قلبه.

*****

تغيرت العلاقة بين نجلاء وسلمى، ولم يعد هناك تواصل هاتفي، بل تفاجأت سلمى بأن صديقتها ستنتقل للعمل في مستشفى أخرى، كل هذا وهي لا تدري لماذا تغيرت معاملة نجلاء معها؟ لماذا انقلبت عليها بلا سبب؟، فسألت سلمى عن الأسباب في عتاب موجع، سألت بجدية وطلبت من صديقتها ردًّا واضحًا، ولكن صديقتها عاملتها ببرود وتجهم ولم ترد عليها بشيء إلا كلمة (لا شيء)، وعندما استفسرت سلمى عن سبب انتقالها للعمل بمستشفى أخرى فأجابت أيضًا بإجابة مبهمة وكلمات باردة إنها تظن أن المستشفى الجديد أفضل، وشعرت سلمى أنها أمام نجلاء أخرى لا تعرفها، مجرد زميلة ربما تقابلها لأول مرة، أما نجلاء صديقتها التي كانت تبوح لها بجعبة أسرارها وتزورها في بيتها وتحدثها كما تحدث نفسها ضاعت واختفت، اختفت بلا سبب، وما أصعب تلك العلاقات التي تنتهي بلا سبب، هو أمر مرير ينهش الأرواح، ألم لا يتوقف؛ لأنها لم تضع يدها على علة الفراق وأسباب انتهاء العلاقة.

وفي ذات الوقت توطدت العلاقة بين طارق ونجلاء، أوفت بوعدها له أن تظل إلى جواره إلى أن ينسى تجربته مع سلمى، فصار وقتها ملكه، تحدثه وقتما يريد وتقابله وقتما يريد، اختزلت المسافات بينهما بسرعة غريبة، وكان كل منهما يهرول سعيا للآخر دون أن يفكر بماذا ستنتهي تلك المغامرة، وشيء ما احتل كيانها سريعًا، هل هي حالة حب أم حالة انبهار أم حالة عطف وإشفاق؟

لا تدري ولكنها في حالة من النشوة والسعادة في كل دقيقة لها مع طارق حتى ولو كانت دقائق صامتة، يبدو أمامها كطفل تائه يتشبث بها لأنها طوق نجاته الوحيد، ولكنه لا يدري أنه أيضًا طوق نجاتها الوحيد من الوحدة المؤلمة التي تحيطها والفشل القاسي الذي يحاصرها، كلاهما يجد نجاته وأمل حياته في الآخر، وخلال أقل من شهر، صارت علاقتهما أكبر من أن تحتويها الأماكن المفتوحة والنوادي العامة، حيث تلك العيون المتطفلة التي تحاصرهما بألف سؤال وسؤال، كلاهما أراد بيتًا صغيرًا يضم أسرارهما ويحمي لقاءهما وسر علاقتهما من العيون الحاقدة والحاسدة، من مجتمع متطفل لا يؤمن بالصداقة بين رجل وامرأة، لا يؤمن بأي علاقة بين رجل وامرأة إلا إذا توجها الزواج، وهما لا يفكران الآن في أي مسمى لما بينهما، لا يفكران إلا في عهد بأن يحمي كلاهما الآخر من نفسه ومن يأسه، ووجد طارق البيت الآمن الهادئ الخاص به الذي يمكن أن يجمعهما بعيدا عن الناس، فصارت كل لقاءاتهما بين جدرانه، يتحاوران ويتهامسان ويرفق كل منهما بالآخر في عالم لا يرحم. يأكلان سويا ويقضيان وقتهما بحرية ولا

أحد يريد من الآخر إلا أن يضمد جراحة ويهون عليه آلامه، لقاء روحي لا يسعى إلى شهوة ولا نزوة، وقت لطيف ينعش الأرواح الحائرة والقلوب الحزينة.

ولم يُخفِ طارق على نجلاء ما يدور برأسه، إنه ما زال يرغب في الانتقام من سلمى. لقد طعنته واستخدمته لإشعال نار الغيرة في قلب حبيبها دون أن تفكر ثانية فيما سيصيبه من ألم نفسي بالغ. فظلت نجلاء تغذي فكرة الانتقام التي تراود طارق.

حتى تعملقت، وتمكنت منه، إن بداخلها شيطان يتلذذ بإيذاء سلمى، لماذا لا تحزن سلمى؟ لماذا لا تدفع ثمن خطيئتها؟ طارق محق في دفاعه عن كرامته المبعثرة، وكبريائه الممزق، ورجولته المهانة، وعليها أن تفي بوعدها له وتدبر له حيلة تداوي جرحه وترد له كرامته، عليها أن تعينه في ثأره من تلك المغرورة المستهترة. فوعدته أن تدبر له أمرًا يرضيه في لقائهما القادم غدا في الركن الهادئ في تلك الشقة الجميلة الصغيرة، ستفاجئه بفكرة فيها كل ما يريد وأكثر.

*****

كان يومًا طويلًا مرهقًا في العمل، عادت سلمى من عملها في الثالثة عصرًا منهكة تشتهي ساعة نوم واسترخاء.. فوجدت والدتها جالسة تبكي، وأخاها محمود يجلس في توتر وانفعال ينظر لها نظرات قاسية تكاد تحرقها، فاهتزت خطواتها وانقبض قلبها، ألقت عليهما التحية وسألت في قلق ماذا بهما؟ فوقف محمود واقترب منها وانهال عليها بالصفعات على وجهها وهي تستقبل لطماته

في ذهول وتصرخ لماذا؟ ووالدتها تحاول بكل قوتها أن تجذب محمود بعيدا عن أخته، فتراجع محمود خطوات للوراء وأخرج هاتفه وطلب منها أن تنظر لصور على هاتفه، ففزعت سلمى وصدمت مما رأت وصاحت في صراخ مرير.

(مش أنا، دي مش صوري، والله ما أنا يا محمود)

فهجم عليها محمود في جنون مرة أخرى، وانهال عليها بالصفعات واللكمات الموجعة وهو ويلعن خطيبها السابق الذى يهدده بنشر هذه الصور العارية لها في مواقع الإنترنت.

كان محمود يضربها بلا عقل، ويلومها بلا عقل، لا يسمع صرخاتها ولا نفيها، فهو يصدق عينيه ويكذبها مهما صرخت في استجداء، ووالدتهما تصرخ لصرخات ابنتها ومصدومة نفس صدمة محمود، تعذره في عنفه وتلومه على قسوته، كل ما تفعله إنها تحاول استخلاص سلمى من بين يديه، ولكن عقلها لا يستوعب ما رأت، الدقائق تمر قاسية ثقيلة على الجميع، استسلمت سلمى لعنف أخيها وصارت تتلقى ضربه وتوبيخه في صمت، وما زالت الأم تحاول فض الاشتباك، وما أوقف محمود عن ضرب أخته إلا أنه تعب من ضربها، فجلس يلتقط أنفاسه وارتمت سلمى على الأرض غارقة في دموعها، فساعدتها أمها لتنهض إلى غرفتها. ثم عادت تجلس إلى جوار ابنها وترجوه أن يهدأ، أقسمت له أن سلمى لا يمكن أن تكون أرسلت تلك الصور العارية لخطيبها السابق، لم تكن تطيقه من الأساس، وكانت تجلس معه صامتة إلى أن اشتكي

منها ومن خجلها وطلب سرعة الزواج لأن الخطبة لم تقرب بينهما. بينما محمود منفعل وفي حالة ثورة تعيقه عن مجرد التفكير، صمت دقائق ثم تمتم بكلمات قليلة في صوت منخفض، لم تفهم الأم منها إلا أنه سينتقم من طارق مهما كلفه الأمر، غادر محمود دون أن يشرح لأمه ماذا قرر وكيف سيتصرف؟ تركها وقلبها ينتفض من القلق عليه، إنها تعلم إنه مندفع عصبي ومتهور، وقد يفعل شيئًا يضيع به مستقبله. فماذا تفعل؟. تذكرت زوجها وتنهدت ثم سارت إلى صورته المعلقة على الجدار وعاتبته على تمسكه بطارق، اشتكت له مما فعل هذا الوغد، وكأن عبد العزيز سيقفز من الصورة ويرد للحياة ليصلح ما أفسده هذا الوغد في حياتهم.. وقفت أمام الصورة دقائق، ثم تحركت سريعًا بحثًا عن هاتفها وكأنها تذكرت شيئًا مهمًّا، وطلبت سليم وأخبرته بهذه الكارثة وطلبت منه أن يلتقي بمحمود قبل أن يتهور ويرتكب شيئًا يدمر حياته.

*****

التقط سليم كلمات أمه بثينة وهو لا يصدق ما يسمع، إنها كارثة حقيقية، أمسك هاتفه سريعًا يطلب محمود ليعلم منه كيف يتعاملان مع الأمر، رد محمود بانفعال وأخبره أن طارق مسافر في رحلة طيران وسيعود بعد ثلاثة أيام. فطلب منه سليم ألا يتصرف منفردًا، وأن يفكرا سويا للخروج من الأزمة، وربما سفر هذا المجرم يمنحهما وقتا للتروي والهدوء قبل أي قرار.

وأسرِع سليم إلى بيت عمه وقبّل أمه وطلب منها ألا تبكي ووعدها بأن هذا المستهتر المجرم سيُحاسَب على جريمته، ثم طلب من أمه أن يقابل سلمى، فطرقت الأم باب غرفة ابنتها وأخبرتها أن سليم يريد أن يقابلها، ولكن سلمى لم ترد، فعادت الأم لتجلس بجوار سليم وأخبرته أنها منعزلة في غرفتها ولم تخرج منذ أن دخلتها، فقلق عليها سليم واستأذن أمه أن يحاول معها بنفسه، فطرق على باب غرفتها وقال:

–سلمى، افتحي، أنا عايز أتكلم معاكي، أنا مش هسيبه، سلمى أرجوكي ردي عليا، أنا واثق إن الصور دي مفبركة.

ما زال يطرق على الباب ويتحدث ويطمئنها ولكنها مختبئة في غرفتها من عيون الجميع. فازداد قلقه عليها، وهدد بكسر الباب، فلا يمكن أن يغادر قبل أن يطمئن عليها.

ففتحت سلمى الباب، وما إن رأته حتى ارتمت في حضنه بكل همومها ويأسها وضعفها، تبحث عن الراحة والأمان بين ذراعيه من عالم قاس لا يرحم. وارتاحت برأسها على كتفه، مستسلمة بين يديه، وهو يحتضنها بكل قوته كأنه يقول لها أنا أمانك وأرضك ومكانك وإن كذبك العالم كله فأنا أصدقك.. ودموعها تجري بلا توقف على كتفه، وجسدها يرتعش بين يديه، وهو يحاول أن يبعث فيها بعض من الطمأنينة فهمس في أذنها:

-أنا آسف، آسف على كل لحظة وجع عيشتيها وأنا موجود، بس أوعدك محدش هيوجعك تاني، أنا مش هسيبه، أوعدك هجيب حقك. أوعدك

فقالت بصوت خافت منهك:

-خلاص أنا كفاية عليا إنك مصدقني.

فقال في حنان:

-إزاي ماصدقكيش، إنتي أنا يا سلمى.

ومرت دقائق صامتة، سكت كليهما عن الكلام وما زالت هي مرتاحة في حضنه وهو يبقيها في جنة حنانه كما أرادت، والأم بثينة سارحة فيما جد عليهم من ظروف، جالسة في صمت وحزن تفكر في القادم، ثم جلس سليم وإلى جواره حبيبته تلقى برأسها على كتفه. مرت دقائق أخرى صامتة، وقال سليم وعينيه تحتضنها بحب كبير:

-حبيبتي، أنا هسيبك دلوقتي وخلي بالك من نفسك متفكريش في أي حاجة، ثقي فيا وأوعدك كل حاجة هتخلص.

فهزت رأسها باكية، فابتسم لها ابتسامته الحانية الواثقة في أن غدا أفضل مهما كان اليوم صعب ثم استأذن أن يغادر.

واتجه إلى باب الشقة للمغادرة فنادته سلمى وهي تخطو ببطء نحوه بخطوات ثقيلة متأرجحة فالتفت لها، وشعر أنها توشك على السقوط، فهرول إليها

وأحاطها بذراعيه وسقطت بين يديه، جسدها بارد ومتراخٍ، ونبضها ضعيف، وأنفاسها غير منتظمة وهو يصرخ باسمها ودموعه تغلبه، وعيناها تودعه في صمت، ثم غابت عن الوعي.

حاول سليم إفاقتها بكل جهده، بكل حبه، بكل أمله في الحياة وهو في فزع بالغ، ولكنها لا تستجيب، وهرولت الأم إلى غرفة سلمى باحثة عن أي عطر لإفاقتها، ولكنها عثرت على زجاجة أقراص مهدئة فارغة، فخرجت من الغرفة وهي تصرخ وتقول لسليم (سلمى انتحرت).

هرع سليم وبثينة بها إلى أقرب مستشفى وهما في حالة من الفزع والقلق لا توصف، وفي قلبهما سؤال مرعب هل ما زالت هناك فرصة لإنقاذها؟

ووقف سليم والأم بثينة في انتظار ما تسفر عنه محاولات الأطباء لإنقاذها.

الأم منهارة لا تصدق أن سلمى تفعل بنفسها ذلك، واتصلت بمحمود تعنفه وتلومه وتخبره بنتيجة تهوره وقسوته على أخته. أما سليم مشلول الأفكار، يشعر أنه يقف على خيط فاصل بين الحياة والموت. خيط لا يحتمل ثقل همومه وخوفه وآلامه ويكاد يهوي به إلى النهاية. ويمر الوقت ببطء قاتل وأنفاسه تضطرب وقلبه يخفق وقدميه تكاد لا تحمله. الوجود على اتساعه يضيق في عينيه حتى يكسر ضلوعه، والقلق يتلف خلايا جسده، كأنه يسحب منه الحياة مع كل ثانية. ولا يملك إلا الدعاء لله، فظل يدعو الله أن يترك له نور أيامه الوحيد، أن ينقذها من الموت برحمته.

جاء محمود في قلق وخجل وضميره يجلده بقسوة، ويحمّله مسئولية تلك الأوقات العصيبة. كيف لم يفكر في كذب طارق، وهجم على أخته كوحش مفترس يهينها ويتهمها بتهمة شنعاء، ألهب جسدها ضربا مبرحًا كان أولى أن يلهب به جسد الكاذب الحقير الذي يلصق التهم بأخته وهي أشرف البنات.

جلس إلى جوار أمه يبكي معها ويلوم نفسه لومًا موجعًا، ويرجو الله أن تنجو أخته وإلا سيموت من تأنيب ضميره.

*****

الفصل الثامن والعشرون

جاءها اتصال هاتفي من طارق يخبرها أنه سيعود الليلة في مفاجأة سارة وغير متوقعة، سيعود قبل موعد عودته الذي أخبرها به سابقًا، فاتجهت إلى حيث يلتقيان في لهفة بالغة وشوق شديد.. جلست في انتظاره بعد أن أتمت زينتها وتجملت كي تكون في أبهى صورة، كانت ترتدي فستانًا منقوشًا قصيرًا ضيقًا، يكشف عن ذراعيها وساقيها ويبرز مفاتنها، وشعرها الأسود يتدلى على ظهرها ليزيدها

جمال. جلست كأميرة في انتظار فارسها العظيم إلى أن حانت لحظة اللقاء، استقبلته نجلاء بلهفة بالغة وقبلات حارة ولم تكن لهفته عليها وشوقه لها أقل من لهفتها وشوقها بل كانت نظراته تلتهمها بانبهار، وقدم لها هدايا قيمة، ولكن مهما كانت الهدايا تبدو أقل بكثير من هديته الكبرى وهي هذا الشوق الذي يطل من عينيه. شعرت أنه يحبها، يذوب شوقًا لها، إنه مختلف عن أي مرة قابلها

فيها في السابق.. نظراته، همساته، لمسات يده، كل شيء مختلف، حتى حديثه تطرب له بشدة كأنه نغم لم تسمعه من قبل، وتناولا العشاء سويا ثم ألقى برأسه على صدرها كطفل صغير يبحث عن الحنان، فما لها إلا أن تسقيه حنانها الذي ادخرته له.

وتمضي الدقائق بينهما تكسر كل الحواجز والعوائق والقيود إلى أن شعر كلاهما إنه في حاجة إلى الآخر احتياجا لا يقبل التأجيل، إنهما يريدان أن يذوبا سويا ليصبحا قلبًا واحدًا وحياة واحدة وجسدًا واحدًا، وطغت رغبتهما على كل منطق وأي عقل، فكانت ليلة عشق من ليالي الهوى التي لا توصف. منحت نجلاء لطارق كل شيء، وذابت بين قبلات شفتيه التي طافت بكل جسدها في لهفة وذاقت متعه اللقاء وكأنها لم تتزوج من قبل ولم يلمسها رجل من قبل، هذا هو الحب الذي بحثت عنه طويلا.. هذا هو العشق. أخيرًا وجدت السعادة، ونامت في حضنه نومًا عميقًا بعد ليلة رائعة كأنها لم تنم من قبل.

وأشرقت شمس يوم جديد، استيقظت نجلاء على قبلات طارق، فبدأت يومها بابتسامة وسعادة وابتهاج. وأعدت الإفطار، وجلس طارق في استرخاء يتناول طعامه، وسألها بشغف:

–ما تعرفيش حصل إيه بعد ما أخوها شاف الصور.

–طبعا عارفة.

–حصل إيه؟

–انتحرت.

فوقف مفزوعا وسأل في هلع:

–ماتت؟

فردت في برود بالغ:

–في المستشفى بس حالتها خطيرة.

–إنتي إيه شيطانة؟ وعارفة كل ده، وعادي

–أنا شيطانة؟ وإنت ملاك؟ مش كنت عايز كده؟

–أنا كنت عايز أعاقبها إنما مش عايز أموتها، أنا غلطان إني مشيت وراكي

– أنا مالي.

–إنتي مالك؟ مش إنتي اللي اديتني الصور والفكرة كلها فكرتك.. إنتي مش ممكن تكوني إنسانة.

وهرول يستعد للنزول، واستعد في دقائق معدودة، وهي في ذهول لا تفهم ما الذي قلبه عليها بعدما كان يذوب حبًّا في حضنها بالأمس.. ثم سألها باستياء:

–هي في أي مستشفى؟

فقالت في ذهول:

-إنت رايح لها؟ يعني بتحبها؟ وأنا إيه؟

فصفعها على وجهها صفعات متتالية بعنف حتى أقرت باسم المستشفى، وقال لها في اشمئزاز:

-مش عايز أشوفك تاني ولا حتى صدفة.

هرول طارق إلى المستشفي، ووجد عائلة سلمى قابعة أمام غرفة العناية المركزة، أخيها وأمها وابنة عمها وسليم، وعلى ملامحهم حزن وقلق يدل على أن الحالة ما زالت خطيرة، فاقترب منهم ليعتذر ويتأسف وما إن لمحه سليم حتى هرول نحوه وسدد له اللكمات والسباب، بينما طارق لا يقاوم، واقترب محمود يشارك سليم في الانتقام من وغد تسبب لهم في مأساة كبرى، إلا أن أمن المستشفى فض الاشتباك وهدد بإبلاغ الشرطة، فعاد سليم ومحمود إلى مكانهما بجوار باقي العائلة بينما طارق لم يغادر المستشفي، وقف بعيدا ساعة ثم عاود الاقتراب فكبت سليم غضبه وقال:

-إنت جاي ليه؟

-أنا آسف، أنا بعترف قصادكم بالحقيقة.

وأقر طارق أمام الجميع أن سلمى لم ترسل له أبدا أي صور شخصية لها، وأنه أخذ صورًا عادية من صديقتها نجلاء وأرسلها إلى من حولها باحترافية إلى صور

خليعة مخجلة.. أقر طارق بندمه وأنه لم يكن يتخيل أبدا أن ما فعل سينتهي بهذه الكارثة، بل لم يفكر من الأساس في نتيجة ما يفعل، كل ما أراده هدم غرورها وعقابها لأنها لم تحبه وأهانته بفسخ الخطبة بعد فترة وجيزة. اعترف بأنه لجأ إلى أسلوب حقير ونادم على فعلته ولا يطمع إلا في أن يسامحوه، فقال سليم:

-إحنا مش مستنين تقولنا إن الصور مفبركة، إحنا واثقين في سلمى يا حقير. هتتحاسب على كل اللي عملته بس أطمن عليها الأول. اتفضل من هنا.

غادر طارق وهو لا يعلم كيف يكفر عن ذنبه؟. غادر وهو يبكي خوفًا أن تموت ويظل ذنبها جبلًا فوق ظهره طوال عمره. وعاد يفكر في نجلاء، كيف تسللت بشرها إليه، ففتنته وسحرته وجعلته لا يرى ولا يفكر إلا فيما تريد، بعدما وقعت الكارثة أدرك الحقيقة، نجلاء تغار من صديقتها وتريد تدميرها بأي وسيلة، وكان هو الخنجر الذي استخدمته.. سخر من نفسه ومن غبائه ومن ضعفه أمام عقل امرأة مريضة، فاشلة في زواجها وفاشلة في صداقتها، وتصب فشلها على غيرها ونار حقدها وشرها تحرق كل من يقترب منها.

ندم طارق ولكن هل يصلح ندمه شيئا؟

*****

وتحقق الحلم ونجحت رحلة علاج عليّ، وتوجت الرحلة الشاقة بحمل داليا، تحقق الأمل الذي ظنه على أملًا بعيدًا، وما خاب يقين داليا بأن الله سيمن

عليها بالسعادة والراحة، وشعرت داليا أن سعادتها اكتملت، فقد منحها الله الزوج الذي يحبها ويحترمها وتشعر إلى جواره بالأمان والراحة، وها هي الآن في انتظار طفل يمنحها أروع إحساس تنتظره امرأة وهو إحساس الأمومة.

كل شيء تمنته وجدته في الوقت المناسب.. لقد تمنت الإنجاب في بدايات زواجها الأول ولو تحققت تلك الأمنية ربما بقيت في عذابها العمر كله مع محمود، ولكن الطفل جاء من الرجل الذي يصونها ويصون طفلها. وعادت تسأل نفسها لماذا لم أقابل علي وأحبه قبل محمود؟

وفكرت وقتًا ليس بالطويل، وعرفت الإجابة أن على هو فرحة العمر التي ادخرها المولي لوقت لاحق، لعلها لو قابلت علي أولا ما أدركت قيمة حبه الكبير، فهو لا يكثر الكلام المعسول، ولكن يفعل الكثير من أجل أن يثبت لها حبه. يكفي إنه يراها أجمل نساء الأرض، وإخلاصه لها فرض، صريح في كل رد، لا يسمح للخوف أن يمر على قلبها وهي إلى جواره، الخوف الذي عانت منه طيلة أيامها مع محمود، لقد منع عنها زوجها الأول متع الحياة وحرمها الأمان وأشقاها في خوف بغيض من غدره وبعده وضياعه منها إلى أن اتخذت القرار واختارت أن تبتعد بكامل إرادتها وتمزق ستار خوفها وتتحرر من عذابها معه، ومنذ أن عرفت على والأمان حياتها والاستقرار أيامها.. حقًّا إن علي هو نعمة الله التي تدعوه دوما أن يحفظها لها.

ولم تكن سعادة علي أقل من سعادة داليا، إن سعادتها سبب كاف لأن يسعد ولم يكن يرغب في الأطفال إلا تحقيقا لرغبتها. أخيرا شعر بالراحة والهدوء وتخلص

من خوف كان يلازمه منذ أن عرف أن لديه مشكلة صحية قد تعوق الإنجاب، كان يخاف أن يفقد داليا بعدما عرف معها الحب والسعادة، ظل الخوف يحاصره إلى أن فاض الله عليه بكرمه وحقق أمله.

ما أجمل الأمل بعد اليأس والأمان بعد الخوف! ما أجمل أن يبقى الحب سر حياتنا!

*****

عادت نجلاء إلى شقتها وهي لا تصدق ما حدث بينها وبين طارق في ليلة وضحاها، كيف انقلب من حبيب رقيق إلى وحش مفترس، كيف بعدما منحته كل شيء؟ أهذا هو ذنبها؟

إنها منحته كل شيء دون أن يقدم لها شيئًا، وسألت نفسها ماذا قدم طارق لي؟ فبكت بحرقة، إنه لم يقدم لها إلا كلامًا، كلامًا فقط، حتى مجرد الوعد الكاذب بالزواج لم يلفظ به، هو لم يعدها بشيء، هي مَنْ تطوعت ومنحته أكثر مما يريد، ولم تجنِ إلا الندم. ما هو مصيرها الآن بعدما ارتكبت معه الخطيئة الكبرى وتخلت من أجله عن مبادئها وتحولت على يديه إلى امرأة ساقطة؟ لا تعرف، كل ما تعرفه أنه انقلب عليها وغدر بها.

أمسكت هاتفها وحاولت أن تتواصل معه، أن تتمسك بأي أمل لها معه، فلم تفلح محاولاتها، حاولت أن تتواصل معه برسائل فلم تفلح محاولاتها، فجلست

منهارة تبكي حالها، وإذا رنين هاتفها يعلو، فأمسكت الهاتف متلهفة لعله طارق، ولكن كانت المفاجأة إنه حسين، حبيبها الذي ظهر كضوء قمر في ليلة ظلماء ثم اختفي وظنت أنه لن يعود أبدا، إنه هو يحادثها بنفس الشوق ونفس اللهفة ونفس الحب القديم ويخبرها أنه يعلم إنها طُلقت من زوجها خالد، ويعدها بأن يعود خلال شهرين ليتزوجها.

وهي تستمع وتبكي وكلما تُسأل عن سبب بكائها تقول إنها تبكي فرحا. حدثها نصف ساعة حديث عاشق ولهان أضناه الحرمان، أكد لها أنه وجد طريقه وبدأ رحلة النجاح ووعدها بحياة مستقرة وزوج جدير بها، وهي تبكي بحرقة ولم ترد إلا بكلمات معدودة طوال المكالمة وفي قلبها سؤال يقتلها هل أنا جديرة بك؟

انتهت المكالمة وانهمرت في بكاء موجع.. الآن فقط أدركت ماذا فقدت وكيف تاهت وكيف أخطأت في حق نفسها؟. لم تعد نجلاء التي أحبها حسين، إنها امرأة أخرى، إنها خائنة، خانت نفسها وخانت ثقته فيها واستسلمت لرغبة عمرها دقائق لتندم عمرًا بأكمله، فماذا تقول له عند عودته؟

أتخفي عنه كل ما سبق أم تصدقه القول وتترك له حرية الاختيار؟ وماذا بعد أن تبوح بسقطتها وذنبها الكبير؟ هل سيغفر؟ هل يرضاها زوجة له؟ هل سيأتمنها على اسمه وعرضه وبيته وأولاده؟.

الإجابة واضحة أمامها:

لقد خسرت كل شيء، وانتهى أمرها.

*****

بدأت حالة سلمى تستقر، وخرجت من العناية المركزة إلى غرفة عادية وسمح الأطباء لأسرتها بالاطمئنان عليها والحديث معها.. وأخيرًا تنفست أسرتها الصعداء، وكأنهم بُعثوا للحياة من جديد، وصلّت الأم إلى جوار ابنتها شكرا لله، وجلست زينة إلى جوار سلمى بابتسامة متفائلة، وقبّل محمود رأس أخته وتأسف لها كثيرا على تهوره وأخبرها أن طارق جاء إلى هنا واعترف بالحقيقة واعتذر، فقابلت سلمى اعتذار أخيها وأسفه بابتسامة راضية وتسامح مفرط فهي تعذره وتجد له في قلبها ألف مبرر حتى ولو لم يقر بخطئه. بينما سليم يقف في الغرفة بعيدا بعض الشيء يترك لأخيها فرصة التقرب والاعتذار، ولكنه يحيطها بعينيه العاشقتين ونظراته تبارك نجاتها ونجاته، نظراته تعزف لها لحن الحياة، لحن الحب الذي لا يموت.. وأدرك الجميع أن بين سليم وسلمى حديث رقيق لن يقال على الملأ بين الناس، فتعلل كل منهم بعلة زائفة ليتركوهما سويا دقائق معدودة، فجميعهم يعلم أن وجود سليم إلى جوار سلمى يعجل بالشفاء ويرسو بها إلى بر الأمان بعد الاضطراب والخوف.

فجلس سليم إلى جوار سريرها وقبل يدها.. فقالت له:

-شكلك تعبان أوي يا سليم، أنا بقيت كويسة، يا ريت ترجع البيت تستريح شوية.

-تعبان؟ لا يا حبيبتي أنا كنت بموت، ليه تعملي في نفسك وفيا كده؟.

-أنا مش عارفة عملت كده إزاي، هي لحظة معينة فقدت فيها ثقتي في كل شيء، وكرهت الدنيا عشان قاسية أوي يا سليم.

-وأنا؟ ليه ما كلمتينيش؟ ليه ما حكيتيليش كل اللي حصل؟

-خوفت، يكون رد فعلك نفس رد فعل محمود، أنا مقدرش أشوف النظرة دي في عينيك، ولا أتحمل إنك تشك فيا ولا في أخلاقي لحظة، إنت غير كل الناس.

-عشان أنا غير كل الناس كان لازم تعرفي إني هكدب الدنيا كلها والناس كلها وأصدقك، أنا قبل كده قولتلك إنتي أنا.

فابتسمت ولأول مرة منذ أن غطت غيوم الماضي سمائهما تشعر إنها أمام سليم حبيبها الذي تعرفه منذ طفولتها، إنه هو الحبيب والسند والأمان والعالم الخاص الذي لا ترضى بغيره من كل هذا الوجود. هو حبيبها الذي يمحو بكلماته كل ألم الأيام كأنه ما كان. كيف يفعل هذا؟ كيف يستطيع حبه أن يردها إلى الحياة؟، فترى الأيام رحلة من السعادة بلا نهاية بلا خوف.

الخوف، ذاك العدو اللدود الذي قادها مغمضة العينين لتبتعد عن أقرب الناس لقلبها وروحها بل هو قلبها وروحها وحياتها كلها.

ما عاد للخوف مكان بعد اليوم. فلن تسمح للخوف أن يغتال مشاعرها ويبعد بينها وبين حبيبها. لقد استسلمت لخوفها طويلًا فما جنت إلا الشقاء، حتى

هذا الشقاء ما أنقذها منه إلا قلب سليم الذي هربت منه طويلًا تحت تأثير خوف أحمق أعمى.

ابتسمت وأبحرت في نظراته العاشقة لتذوق الراحة بعد العناء الطويل. فليس لها عن دنيا سليم بديل.

*****

تجاوزت سلمى فترة مرضها وخرجت من المستشفى وعادت إلى عملها وعيادتها، بينما داخلها رغبة قوية أن تواجه نجلاء، كلما فكرت فيما فعلت بها تشعر أنها تكاد تجن من الذهول والصدمة، لماذا تدخر لها كل هذا الكره والغل بعد كل ما كان بينهما من صداقة؟، بعد كل ما قدمت لها من حب ومودة؟، كيف استطاعت أن تخطط للتشهير بها بهذه الطريقة البشعة؟ كيف تناست كل أيامهما سويا بهذه السهولة؟ ما الإساءة التي فعلتها بها وتستحق كل هذا الإيذاء؟ وما الجزاء الذي كانت تنتظره بهذه الخطط البشعة؟.. لقد ارتكبت في حقها جُرمًا عظيمًا، فبأي ذنب تعاقبها؟

فقادتها الرغبة الجامحة في المواجهة إلى بيت عائلة نجلاء الذي تقيم به منذ طلاقها من خالد، ولكن هناك كانت المفاجأة، لقد أخبرها حارس العقار أن نجلاء سافرت إلى أخيها، وهاجرت من مصر.

عادت سلمى إلى بيتها في وجوم، يا لها من قاسية، لقد هاجرت وحرمتها أبسط حقوقها، هاجرت تستريح في غربتها من كل الماضي وتركت لها الحيرة وجراح الخيانة والغدر، وتساؤلات كثيرة بلا إجابة.

فأخبرت سلمى والدتها بما عرفت عن نجلاء، فأخذتها والدتها في حضنها وغمرتها بحنانها وطلبت منها أن تنسى نجلاء وتنسى كل ما مضى من أيام صعبة، لقد هاجرت نجلاء بكل شرها ومكرها، وأفاق طارق وندم على فعلته، وعليها أن تفكر في مستقبلها، وحياتها الحلوة التي تنتظرها، نصحتها أن تغلق صفحات الألم والخوف وتكتب مع سليم أيام السعادة والحب والأمان.

ولم يكن أمام سلمى إلا أن تأخذ بنصيحة أمها، لن تقف باقي أيامها تنعي الماضي المجهول مقيدة بخوفه وعذابه، العمر أيام معدودة، ويكفي ما ضاع منه في جراح ومعاناة، لن تستسلم للخوف بعد اليوم، ستهب كل قلبها وعقلها وأفكارها للمستقبل، ومستقبلها هو سليم وحياتها مع سليم، حبهما هو الحقيقة المؤكدة، وكلاهما ما استطاع أن يحيا بدون الآخر، ستظل أيامها تعزف على أوتار أيامه، سيظل عشقه يسكن قلبها للأبد، وستبقى حروف اسمها تكتب اسمه. فلا فراق بعد اليوم.

*****

الفهرس

الفصل الأول..........5

الفصل الثاني..........26

الفصل الثالث..........43

الفصل الرابع..........62

الفصل الخامس..........77

الفصل السادس..........92

الفصل السابع..........107

الفصل الثامن..........122

الفصل التاسع..........134

الفصل العاشر..........147

الفصل الحادي عشر..........161

الفصل الثاني عشر..........172

الفصل الثالث عشر..........186

الفصل الرابع عشر..........199

الفصل الخامس عشر..........209

الفصل السادس عشر..........220

الفصل السابع عشر 234
الفصل الثامن عشر...243
الفصل التاسع عشر 258
الفصل العشرين 271
الفصل الحادي والعشرون 284
الفصل الثاني والعشرين 296
الفصل الثالث والعشرون...306
الفصل الرابع والعشرون 319
الفصل الخامس والعشرون 334
الفصل السادس والعشرون 343
الفصل السابع والعشرون...353
الفصل الثامن والعشرون 364

writer
operation

كم لديك من السطور الجميلة التى اخذت
منك الكثير من المجهود و الاعتناء
لكى تكون افضل ما يمكن
لكى تعبر بها عن شعور داخلى
لم تستطع ان تشاركه مع احد غيرك
مهما كانت سطورك
قصص .. روايات .. اشعار .. مقالات
باللغة
العربية او الإنجليزية او الفرنسية

تواصل معنا
لتشارك سطورك مع العالم

01122380443

writer
operation
شارك
سطورك
مع العالم
SCAN ME